

جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

ملامح الحياة العباسية من خلال كتاب الحيوان للجاحظ

إعداد الطالبة

رابعة عبدالسلام المجالي

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة
في الآدب والنقد قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2006

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة رابعة عبد السلام المجالي الموسومة بـ:

ملامح الحياة العباسية من خلال كتاب الحيوان

استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. سمير محمود الدروبي		2006/5/9	مشرفاً ورئيسا
أ.د. ماجد ياسين الجعافره		2006/5/9	عضواً
أ.د. أنور عليان أبو سويلم		2006/5/9	عضواً
د. فايز عبد النبي القيسي		2006/5/9	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. أحمد القطامين



MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الالكترونية

فهرس المحتويات

ملخص

"ملامح الحياة العباسية من خلال كتاب الحيوان للجاحظ"

رابعة عبدالسلام المجالي

جامعة مؤتة، 2006

وتـــتكون هـــذه الدراســـة من ثلاثة فصول: الفصل الأول يتحدث عن الحياة العلمـــية في العصر العباسي، حيث ناقش منهج الجاحظ العلمي في البحث والتأليف، ثـــم الطب عنده، مبيناً كيف كان للجاحظ السبق والريادة في ميدان علم النفس وعلم النفس الحيواني.

والفصـــل الثاني: عالج الحياة الثقافية في ذلك العصر، فناقش نظرة الجاحظ للكتاب، مبيناً كيف كان الجاحظ أول من وضع أسس الترجمة في عصره، ثم أوضح كيف أثّر الجاحظ في لغة عصره.

أمـــا الفصـــل الثالث: فقد خُصِص للحديث عن الحياة الاجتماعية، فبيّن كيف تحـــدّث الجـــاحظ في علم الاجتماع، فوضع بعض الأسس الهامة في بناء المجتمع، رابطاً ذلك بأثر البيئة على خلق وطباع الناس، مصوراً مجتمعه في أطواره وحالاته المتباينة مظهراً إياه من خلال طبقاته وفئاته المتعددة.

Abstract

AL-Jaheth's book which is called(AL-HIWAN).

Rab'a Abd-Alsalam Al-Majali

Mu'tah university, 2006

This thesis consists of three subjects; the first subject titled by the scientific life, which consists of three chapters; the first is AL-Jaheth's methodology in research and writing , the second is AL-Jaheth'smedical practice, the third one is AL-Jaheth's as psychologist.

As for the second subject is AL-Jaheth's cultural life. The first is AL-Jaheth's vision towards the book, the second is AL-Jaheth's own translation, and the third is the language.

As for the third subject, the social life of Al-Jaheth,which consists of three chapters; the first is Al-Jaheth as a socialist, the second one is the meaning of the environment in Al- jaheth point of view. The third is the image of the society of AL-Jaheth's vision.

الفصل الأول

الحياة العلمية

1. 1 المقدمة

إن كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ والمتوفى سنة 255هـ، جدير بالاهتمام، حريٌ بالمطالعة والدرس والتفقّه والتجوال في أسفاره المتعددة، لا من قبل المثقفين فحسب، بل هو حريٌ بالاهتمام من كل من يهتمُّ بماضي الأمة وحاضرها وبات يؤرقه مستقبلها، وكل من أراد أن يصل فرعه بجذوره فثقافة الأمة خالدة بخلود لغتها الأصيلة، فقيمة الكتاب جدُ عظيمة، والأجدر بالدارس لهذا التراث أن يكون موقناً مؤمناً أن العودة له ضرورة لا بدّ منها، وأنه لزامٌ عليه أن يقف على قاعدة صلبة متجذرة في المعرفة ليستخرج كنوزها؛ عندها سيحسن ربط الماضي بالحاضر وليصنع منه علماً مجدياً للمستقبل، وبقدر إيمان الشخص بأهمية تراثه وجدواه بقدر ما يكون ناجحاً متهيئا لما سيأتي من زمان.

فضلاً عن الأهمية الخاصة التي يمتلكها ويحوزها هذا الكتاب إذ أنه من أهم ما كتب وألف أبو عثمان، فهو خبرة سبعين عاما مثمرةً مشحونة بالطاقات والاطلاع الصادرة عن عقلٍ مختمر، وفكرٍ مستوٍ، وتجارب واسعة، والقارئ لهذا الكتاب أو الناظر لعنوانهِ (الحيوان) يخالهُ كتاباً خاصاً بالحيوان فقط، وهذا ربما يلاحظه الشخص إن كان قارئاً له للغاية العلمية، وكان يهمهُ أولاً علم الأحياء متخصصاً فيه، فلا ريب أنه موسوعة تُعنى بمعالجة الحيوان في جميع ما يخصه، إلا أن هذا الكتاب وبالصفة التي لا نستطيع انتزاعها وخلعها عنه، فهي صفةٌ ملتصقة به وهي صفة الشمولية الموسوعية ؛فهو كتاب حياة بكافة جوانبها يفصح عن العصر الذي عاش فيه مؤلفهُ، كما يتحدث عمّا كان قبل هذا العصر، وهو كتابٌ يصلحُ لأن يُقرأ من فئات متعددة للمعرفة والإطلاع والبحث فيها، وهذا ليس تنظيرَ أعشى، بل سيكون الاستشهاد عليه من نصوص الكتاب نفسه، فمحتواه ينطق بشموليته وموسوعيتهِ فإن طالَعه أديب يجد حاجتهُ وبُغيتهُ فيه، فشِعرُ العرب

والأعراب أهم مصادر الكتاب، وكــذلك كــان المؤلف يستند ويرجع إلى عددٍ جمٍّ من الأمثال العربية.

وإذا كان القارئ مفسّراً فالكتــاب يشتمل على تفسير لعدد كبير من آي الذكر الحكيم، وفيه عرضٌ لآراء جماعةٍ من المفسرين.

أما عالم الاجتماع فيجدُ فيه التنظير الأول والقواعد والأسس الأولــى والضرورية لبنـــاء المجتمعات واستمرارها، وطرق تفاهمها مع بعضها بعضاً.

أما المترجم فسيجدُ فيه بذور علم الترجمة، وكيفيّتها الحقّة، والتي تحافــظ على أصول النصوص، وتضمن الفائدة المرجوة منها، وأسس تحقــيق الكتب ونسخها.

أما علماء العلوم التطبيقية؛ فالطبيب يجد فيه الكثير من الوصفات العلاجية، والأدوية الضاربة في أعماق القدم والتي مازالت حاضرةً ومواكبةً لتطور العصر، ثم يجد فيه ما يرفضه الطب وما استنكره ورفضه المؤلف من أخطاء طبية تشيع عبر العصور، وعالم الحياة يجد شرحاً مفصلاً عن الحيوانات منذ نشأتها وتطورها، والحديث عن خصائصها وتولدها وصفاتها.

وعالم النفس يجد فيه تفسيراً لكثير من السلوكات المبرّرة وغير المبرّرة لدى عالم الحيوان والإنسان على حدٍ سواء، ثم هو حقلٌ خصب بالتجـــارب الصادرة عن الخبرة الشخــصية لمؤلفه، إضافة إلى ما توصل إليه واستعان به من خبرات وثقافة عصره، آخذاً بتجارب من سبقه علماً وزمناً.

وهكذا لو بقينا نعدد محتويات الكتاب لطال بنا الحديث، إلا أن البحــث سيحاول جادّاً استخراج معالم الحياة من هذا الكتاب العلمي الأدبي، الحياة بشكلٍ عام والحياة العباسية على وجه الخصوص.

إنّ كتاب الحيوان يتألف من سبعة مصاحــف على حد تعبير مؤلفه أو سبعـــة مجلدات، ومروراً سريعاً على محتواه، يتألف جزؤه الأول من مقدمة يبدو أنها كانـــت رداً على كل من سينتقد هذا الكتاب وهذا الجهد بعد إصداره، وبعد أن تتناقلَهُ الأيــدي وتدرسهُ العقول، فهذه مقدمـــة فيها ردٌّ على هــؤلاء المنتقدين لكتـــاب الحـــيوان وغيره من مؤلفات الجاحظ العديدة، فهو إضافة إلى قيمته بذاته

يشكل فهرساً ضخماً للكثير من مؤلفات الجاحظ، ثم ينتقد حال الكتابة والكتّاب في عصره حاثهم على التميز كماً ونوعاً ،مفرداً باباً يعالج فيه قضية نفسيةً صعبةً يحكي فيه عن وضع الإنسان قبل وبعد الخصاء، ذلك النقص المتعمّد الذي يوقعه بنو البشر على بعضهم بعضاً ،مبيّناً أن هذا الصنيع من نوع التسلّط والجور والخزي وعدم الرحمة، مشيراً إلى الأثر النفسي الصعب الذي يعتري هذه الفئة؛ حيث تغدو مسلوبة الإرادة عاجزة القوى. ثم يتجه للحديث عن الكلب والديك خاتماً به الجزء الأول.

أما الجزء الثاني فكان تتمة وتكملة لما كان قد ختم به جزأه الأول، وهو الحديـث عن الكلب والديك، ناثراً بين صفحاته صوراً وإشارات عديدة سنأتي على علاجها -إن شاء الله-.

أما الجزء الثالث فقد دار حول مجموعة من الطيور والهوام مثل الحمام، والهدهـد، والرخم، والغراب، والذباب، والجُعلان، إضافة إلى ما أراد المؤلف بيانه عبر هذا السيـاق، كحديثه عن خصائص الحَرَم، وصدق الفطنة، وجودة الفراسة، والمدح في الجمال وغيره.

والجزء الرابع فقد عالج فيه شأن الذر، والنمل، والأفاعي، والقرد، والخنزير، والظليم (ذكر النعام). ثم تحدّث عن النيران متابعاً كلامه في جزئه الخامس شارحاً نظرية الكمون وتحدث خلاله عن العقرب، والنحل، والجراد، والسنّور، والفأر، والعنكبوت، والضفادع، والضأن، والماعز، مدخلاً فيه باباً عن السر وآخر عن المُنى.

أما الجزء السادس فقد فسَّر فيه قصيدة (البهراني)، وقصيدتين(لبشر بن المعتمر)، وبشر أحد كبار أعمدة مذهب الجاحظ وهو مذهب الاعتزال، مبيّنا ما ورد في هذه القصائد كل ما يخص الحيوان ،متحدثاً بعدها عن الضب والأرنب، مفرداً أبواباً للجن وغيره.

أما الجزء السابع والأخير فقد كان معرضاً لمعرفة الجاحظ في علم النفس الحيواني، فقد دار حول إحساس أجناس من الحيوان وتضمَن شرحاً عن الفيل وحيوانات أخرى، مبيّنا موطن الإعجاز والأعجوبة فيها، مما يؤكد موسوعية الكتاب

وضخامته، فهو يحتوي مادةً علميةً غزيرةً تركزت حول الحيوان بشكل خاص حيث تناوله من زوايا عديدة، فعرض لأحواله وصفاته وطباعه وأعماله.

ومع هذا الوصف الخاص لهذه الموسوعة العلمية العظيمة، فإن لنا من خلالها مداخل واسعةً لمناقشة مظاهر ومعالم الحياة فيها، أهمها أن الجاحظ كلما تحدث عن شأنٍ من شؤون الحيوان يربطها بعالم الإنسان، عارضاً شواهد حية على ذلك ،مما جعل الكتاب كتاب حكمةٍ وإتّعاض واقتداءٍ في بعض المواقف فهو (عندما تحدث عن الصرع عند الحيوان تطرق إليه عند الإنسان)[1]، صانعاً بلغته الجاحظية الخاصة ومقدرته الكبيرة نوافذَ مكّنته من العبور والولوج إلى أي موضوع أراده، نوافذ مفتوحةً على الحياة بعامة والحياة العباسية بشكلها الخاص، نوافذ سياسية، اقتصادية، اجتماعية، دينية، كلامية، اعتزالية أدبية،من خلالها ذكرت مادة لغوية واسعة أفسح لظهورها ما اتّسم به الكتاب من استطراد، فيدلّل صاحبه على هذا التوسع حين يصفه قائلاً (وهذا الكتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العُربُ والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة)[2].

إلا أنه لا يعرف فضل هذا الكتاب إلا من نظر فيه طويلاً، وتناول بالبحث والدرس جوانبهُ، وتبيّن توضيح نواحيه، فعسى أن يكون هذا البحث من الأبحاث التي تعطي هذا الكتاب حقهُ، فالكتاب مكتبة وحدهُ، وهو يحكي ألواناً وأشكالاً من المعارف لو أفردنا لكل علمٍ أو فن بحثاً خاصاً به لكان كتاباً كبيراً مستقلاً بنفسه، والكتاب كما سيتبيّن يمثل صورةً حقيقيةً للحياة، والثقافات المتعددة التي كانت في عصر الجاحظ، وهو من أشهر مؤلفاته، ويمثل جانباً من ثقافتهِ الموسوعية لا سيّما وأن هذا الكتاب نتيجة التجربة والسن المتقدّمة، لذا جاء معرضاً لكل الثقافات

---

(1) (خولة خليل حسين شخاترة، بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ، ص 3، 1996 م، دار الينابيع للنشر والتوزيع –عمان).

(2) (الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ج1،ص11، شرح وتحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية ، 1996م، دار الجيل –بيروت).

المعروفة آنذاك من هندية، وعربية، وفارسية، ويونانية .....وهو كتاب لغةٍ، وأدبٍ، وعلم، وفلسفة، وعقيدة، وديانة، وهو وثيقة تاريخية.

وإن أولى تلك النوافذ التي أطل الجاحظ من خلالها على الحياة العباسية النافذة العلمية.

1. 2 الحياة العلمية

لقد كان انتشار الإسلام، وانطلاق الفاتحين المسلمين في آفاق الأرض ينشرون الدين الحنيف، السبب الأول والمباشر في أن يطّلع العرب والمسلمون منذ العصر الأموي على ما عند غيرهم من الأمم من علومٍ وثقافات في شتى ميادين الحياة، فيأخذون منها ما يطورون به ما عندهم وما هم بحاجةٍ إليه، ناهيك عن أن القرآن العظيم، يدعو إلى إزالة الغشاوة عن العيون ،والوقر عن الآذان، ويدعو العرب ويذكّرهم ويحثهم في معظم آياته على استخدام العقل، والتفكر والبحث والتأمل في آلاء الله ونعمه، والسيّر في الأرض لاستخراج كنوزها وأسرارها مما يسهّل إعمارها، فكانت الألفة بين الإنسان الجديد في فكره الواسع وأفقهِ النيّر المقبل على الحياة، ثم جاء العصر العباسي وجاء الانفتاح على الشرق والغرب حتى أطلق المؤرخون على هذا العصر–لاسيّما عصر المأمون– بأنه العصر الذهبي للأمة الإسلامية حيث أطلق للفكر عنانه، مما كان له إيجابياته التي تُعد للأمة في كثير من الأمور .

وفي الجانب المشرق من تاريخ هذه الأمة، راح الخلفاء العباسيّون يشجعون العلماء بكل ما أوتوا من حكمةٍ وأموال على التنافس في ميادين العلم، فقد أغدقوا على علماء الأمة من الأموال الشيء الكثير، ومنحوهم العطايا الجزلة، (وقد جارى الخلفاء في ذلك الولاة وكبار القُواد فكان أول من سنّ ذلك وجعله تقليداً للدولة (المهدي) فإنه أكثر من مكافأتهِ للعلماء كثرةً جعلتهم يشدّون إليه الرحال من كل بلدة، واحتذاهُ في ذلك ابنه الرشيد فيقال: أنهُ وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم،

وكان من المحظوظين لدى البرامكة، ويروى أن جعفراً البرمكي وصله بخمسمائة ألف)[1].

وقد فاق المأمون غيرَهُ من الخلفاء في هذا المجال ،حتى أنه فتح المجال أمام قوّاده بأن يغدقوا الأموال على العلماء، فهذا(الطاهر بن الحسين) قائدهُ على(خراسان) وواليه عليها، وصل(أبا عبيد القاسم بن سلام) بألف دينار.

وقد كانت المساجد تقوم بالدور الأكبر كونها وسيلة اكتشاف وتنقيب عن هؤلاء النوابغ الذين يلمعون في حلقاتها، فيبعث بهم إلى دار الخلافة ليتبناهم الخليفة تشجيعاً لهم في حقول العلم، ودفعاً لهم من قبل الخلفاء والولاة على حدٍ سواء ،فكان لهذا العامل الأثر الأكبر في دفع وازدهار الحركة العلمية قدماً ؛لما للوضع المادي من أثر كبير في نفس العالم، فهذا يرفع عنه الكثير من الأعباء والمتاعب، فيجعله متفرغاً للعلم والعطاء، موغلاً في سبر غور الدرس، مخرجاً أجود ما عنده.

وهكذا خَطَت هذه الأمة خطواتٍ جديدة في حركتها العلمية، مقبلةً على تعلم ما عند الأمم، سريعةً في مضمارِ الترجمة من العربية وإليها، متلقيةً الدعم الغزير من عطايا ومنح تُعدُّ لعلمائها.

وأمام هذا الإقبال الذي لم يسبق للأُمة أن عهدته على العلم والمنافسة فيه، وأمام هذا النشاط المنقطع النظير في حقول الترجمة، لم تعد للكتابةِ على الجلود وورق البردي –الذي كان مشهوراً في مصر– كافيةً، لذا أخذ استخدام الورق ينتشر ويعم في ذلك العصر، وهذا كان من أهم أسباب التقدم العلمي وبلوغ الحركة العلمية غايتها حتى غدت توجد مصانع خاصة للورق كما فعل(الفضل بن يحيى البر مكي)، فقد (أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً في بغداد للورق ففشت الكتابة فيه لخفتهِ وغلبتهِ على الكتابة في الجلود والقراطيس وكان الإملاء حينئذٍ أعلى مراتب التعليم)[2].

---

(1) (شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول**، ص102، الطبعة الثامنة، دار المعارف– القاهرة)

(2) (شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول**، ص 103)

وهكذا تسابق العلماء في إصدار مجلدات العلم الضخمة، وإعداد النسخ منها، وذلك لانتشارها وزيادة الطلب عليها، حتى اتسعت صناعة الورق، فاتخذ العلماء لأنفسهم ورّاقين ينسخون كتبهم وينشرونها، فغدت الكتب مادةً أساسيةً للمعرفة. فعمّت دكاكين الورّاقين وغدت الوراقة من أشهر المهن المعروفة آنذاك، ويكفيها شهرةً ومعرفةً أنها كانت من أهم مصادر الثقافة التي ساهمت في بناء شخصيات عظيمة، حملت تاريخ الأمة على أكتافها صُعداً كشخصية (أبي عثمان الجاحظ)، فقد ترددت وتكررت في المصادر والمراجع أصداء أنهُ كان يبيت في هذه الدكاكين للنظر والدرس والتثقف.

وثمّة عامل آخر كان له الدور الأكبر في ازدهار هذه الحركة العلمية، كما يذكر ذلك (شوقي ضيف) في حديثه عن هذا العصر، تلك هي المجالس الخاصة التي كانت تعقد في (مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسُراة إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف على نحو ما يروى من مناظرة الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي)[1].

وقد كان للخليفة المأمون في هذا المضمار القدح المُعلّى، فهو من أفسح للفكر سبلهُ، وأعطى للنقاش حريته، فغدا مجلسه مسرحاً للجدل وأصحاب الكلام، حيث قرّب إليه العلماء والفقهاء، وكان هو بطبعهِ خليفةً مثقفاً متابعاً لمستجدات العصر، فسعى لتطوير أهل عصره من خلال تطوير نفسِه، حتى شاع العلم والمعرفة لدى الناس على اختلافَ طبقاتهم ومذاهبهم، فأقبل الناس من جميع الأوساط والفئات ينخرطون في ثقافة العصر، ويشهدون هذا الاتصال الخصيب المثمر المنتج بين الثقافة العربية الأصيلة الخالصة وبين ثقافة الأمم الأخرى فارسيةً، أو هنديةً، أو يونانية، وهكذا مضى العلماء في ميدان العلوم لا سيّما العلوم العقلية من طب ورياضيات وتنجيم وفلك، حتى إن الأدباء أخذوا يصبغون أدبهم بالصبغة العلمية، فقد (رغب العباسيون أن يحيوا في عصرهم فلم يغرقوا في التعصب والتعقيد لعادات

---

(1) (شوقي ضيف ،العصر العباسي الأول، ص105)

وتقاليد تتطلع إلى حرية الفكر، لتسلك علوم شتى طريقها إليهم تأثراً بالواقع المستجد)[1].

وكان لهذا التوجه أثره الواضح البيّن في كثير من المؤلفات، التي من أهمها كتاب الحيوان للجاحظ، موطن الدراسة والبحث.

1. 3 منهج الجاحظ في البحث والتأليف

لقد تميّز عصر الجاحظ بأنه عصر خصب؛ تهيأت لأبنائه حريّة الفكر، تلك الحرية التي ما عرفت لسواه من عصور، وانبسط فيه سلطان البيان كما انفسحت فـيه آفاق العلم والعلماء، ومضى العباسيون يعيشون هذه الحريّة مبتعدين عمّا كان من تعقيد وحدود سالفة، وهكذا سلكـت علوم شتى طريقها إليهم، فتأثر العلماء بالواقع المستجد، فجاءت كتاباتهم إنجازات علمية في علوم لم يسبق لهم الكتابة فيها فيما مضى، فالجاحظ ينشئ في هذا العصر موسوعـةً علميةً تحمل بين ثناياها معالـم حياة، وتختزل خلالها خبرات عبقرية فذة، فيأتي كتاب الحيوان كتاباً علمياً يسير وفق خطى المنهج العلمي الذي قد ينافس المناهـج العلمية في عصور التكنولوجيا والمعدات المخبرية؛ فيكون الجاحظ بهذا واضع منهج يُحتذى به من قبل الكثيرين ممن جاءوا بعده، فهو يسير في منهجه مستخدماً الشك المنهجي في التأليف، معتمداً على التجربة والمعايـنة ليتثبت من صحة ما ينظـر له، مستطرداً فيما يقتضيه الحال من موضوعات، معتمداً على إبراز الحقائق بواقعية جريئة، نائياً بنفسه جانباً عن عالـم الوهم والخيال.

أولاً: الشك عند الجاحظ

ربما سبق هذا البحث من تحدث عن الشك، والشك تحديداً وبصفه خاصة عند الجاحظ، فقد انبرى بعض الدارسين يدافع وبحرقة عن أن هذا المذهب قد نسب لغير واضعه في حين كان الجاحظ واضع حجر الأساس فيه، فراح ينسب إلى غيره مثل (ديكارت) و(فرانسيس بيكون)، إلا أن الأمر جدُّ بعيد، ومختلف بين العالمين، (فلديكارت) الأولوية والسبق فيما ذهب إليه، وللجاحظ الريادة في مذهبه وهو الشك

---

(1) (كاظم حطيط ،أعلام ورواد في الأدب العربي،الجاحظ، ص28، الطبعة الأولى ،1987م ، طباعة ونشر وتوزيع دار الكتاب اللبناني)

المنهجي، فشك (ديكارت) يختلف في مبدئه وغايته والظروف التي عاشها (ديكارت) والبيئة المحيطة حتى نجعله نداً لما سار عليه الجاحظ. إن العصر غير العصر، والهدفُ والغايةُ في تباين تام، فالجاحظ رائدٌ في منهجه العلمي الذي قصد من ورائه الوصول به إلى اليقين، منهجاً شاملاً يصلح لأن يكون منهج دراسة يُقتدى ويُتّبع في الكثير من الدراسات العلمية الحديثة، ويمكن تطبيقه باعتباره منهجاً علمياً دقيقاً.

ثم إن الجاحظ عندما اتخذ من الشك وسيلةً في بحثه، وسار في كثير من أبحاثه وفقها، لم يكن يعيش تلك الظروف التي عاشها (ديكارت)، فالجاحظ لم يكن ثائراً على منهجه العقائدي كما هو حال ديكارت، ولم يكن أمام كنيسة يمارس فيها سلب الناس حقوقهم والتسلط عليهم حتى يجعل من الشك في تلك العقيدة مخرجاً للنجاة، ثم لم يكن شكهُ في مسلّمات في أصول الدين، ولم يكن ثائراً على نظام حياة متّبع ومفروض على الرعيّة حتى تنتظر ثمار شكه فتأتي بإصلاح شامل ينسف الكثير من المسلّمات، فالجاحظ كان من الناحية الدينية أمام عقيدةٍ متينة لم يرقَ الشك إلى الاقتراب منها، ولم يمسس حتى حواشيها، ثم أن منهجه لم يكن معادياً مضاداً لما يؤمن به، ونحن هنا لسنا في موقع دفاعٍ بقدر ما هو توضيح، والشاهد عليه سيكون من أقوال الجاحظ نفسه في كتاب الحيوان.

ثم أن شكه لم يكن مذهباً أدبياً جديداً يقصد إلى التحلل من كل ما هو قديم وكل ما هو دين، وبعبارة لم يكن طريقاً إلى الإلحاد والتمرد. فالجاحظ إذاً رائدٌ في منهجه، سبّاقٌ في طريقته، لم يتخذ من الأدب ذريعةً للتطرف وإضعاف الحق، ولم يكن لهواه سلطان على بحثه العلمي.

إن المسلّم به أن الجاحظ كان أحد أهم رجال المعتزلة (وكان علماً من أعلامهم وكان في المدينة التي ظهر فيها مذهبهم وغلب عليه سلطان المعتزلة الفكري وكان من شيوخهِ النظّام) [1].

وقد أخذ عن (ثمامة بن الأشرس)، و(بشر بن المعتمر)، ولقي (أحمد بن أبي دؤاد)، حتى أصبح حجةً في مذهب المعتزلة. إلا أن الجاحظ وبعد دراسة الفصل

---

(1) (ابن منظور، **تهذيب حيوان الجاحظ**،تحقيق الدكتور زهران محمد جبر عبد الحميد، ص46،الطبعة الأولى ،1992م تصدير محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل ،بيروت.)

الذي عقده في كتابه للشك نجده يعطي دروساً في هذا المنهج، فيحددُ لنا مواطن الشك، وحالاته، والظروف التي توجب له، داعياً إلى مراعاة المسلّمات من الأمور والثوابت التي لا يمكن أن يرقى لها الشك، متخذاً منه وسيلةً للوصول به إلى اليقين، جاعلاً منه علماً يجبُ على الدارس أن يتعلمه، فللشك عنده حالات لا بد منها ومواضع يجب تعرّفها، وذلك لإبراز ما هو حريّ بالتصديق، وإبعاد كثير من الخرافات التي تورّط في إيرادها الكثير من المفكرين في عصره ومنهم الثقات على حدّ تعبيره.

لقد تأثر الجاحظ تأثراً كبيراً في منهجه في البحث والتأليف بأساتذة عظماء من مثل أبي هذيل العلاف وأستاذه النظّام، وقد كان أبو هذيل العلاف متميّزاً في البيان والكلام، متصلاً بالثقافة اليونانية، وقد تأثر الجاحظ بأسلوبه في التدليل على ما يذكر من حقائق وأخبار في كتاباتِه، مستشهداً بالشعر العربي إذ كان أبو الهذيل ولِعاً بالاستشهاد بالشعر العربي، كلِفاً به، ويقول أبو عثمان في ذلك (وقلّ معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناهُ في كتب الأطباءِ والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب)[(1)].

أما النظّام فهو بحق أستاذ الجاحظ في منهج البحث، فقد (كان آيةً في النبوغ، وحدّةً في الذهن، وصفاء قريحة، واستقلال تفكير، وسعة إطلاع، وغوص على المعاني الدقيقةِ، وصياغةِ لها في أحسنِ لفظ وأجملِ بيان)[(2)]. ويقول الجاحظ في ذلك (قيل لأبي الهذيل إنك إذا راوغت واعتللت وأنت تكلم النظّام وقمت فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه، وقال: خمسون شك خير من يقين واحد)[(3)].

وهكذا جاء منهج الجاحظ مطابقاً لمنهج أستاذه لا سيّما في الشك والتجربة وهما الركنان الأساسيان اللذان قام عليهما منهج الجاحظ في التأليف في كتابهِ الحيوان، وقد قال: النظّام في هذا الركن – وهو الشك– مفتتحاً للجاحظ طريقاً علمياً

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج3، ص268)

(2) (محمد عويص، **المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ** ،ص32، 1977م، دار الثقافة ،القاهرة).

(3) (الجاحظ، **الحيوان** ، ج3 ، ص60)

يسير عليه (الشّاك أقرب إليك من الجاحد ولم يكنُ بقين قط حتى كان قبلهُ شك ،ولم ينتقل أحد من اعتقادٍ إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك)[1].

وقد أخذ الجاحظ هذا المنهج من أوسع أبوابه؛ ليكون شكّهُ علمياً هدفه التحقق والتوثّق من المادة العلمية أو المروية وصولاً به إلى اليقين، ولم يكن شكاً مطلقاً في كل ما هو حوله من موجودات وحقائق، حيث كان يزاول شكه إمعاناً في النزاهة، ورغبةً في البعد عن التأثر بأفكار وأقوال سابقة حتى يصل العقل وحده إلى المعرفة اليقينية، وهو لا يرفض الحقائق المعروفة المسلّم بها، وإنما يقبلها بعد دراسةٍ مستفيضةٍ وتمحيص، فإذا ما ثبتت بالامتحان قبلها، وإن لم تثبت رفضها، وإذا لم يستطع أن يقطع بها برأيٍ جازمٍ مفيد تركها كما هي. وهو يحاول جاداً أن يكون باحثاً موضوعياً بحثهُ علمياً مجرداً من كل هوىً، هدفه اكتشاف الحقيقة وحدها، فالجاحظ يعرض المعلومة أو الرواية أو بعض ما يمكن للناس اعتباره حقيقة من الحقائق، ثم يعرض ما يعزز ذلك.الأمر ويردفه بأن يعرض ما يضعفه ذاكراً الأدلة على ضعفه أو تعزيزه، عارضا رأيه العلمي بكل تجرد وحياد.

وإذا عرض له أمر ينكره قلبه لكنه لا يجد من الأدلة ما يردهُ يقول (ولم اكتب هذا لتقر به، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل)[2]، فهو يتحلى بصفة العالم الحريص على إيراد العلم النافع، ليأخذ عنه المتعلمون ومن سيأتي بعده علماً جاداً حقيقاً مصفىً من الأوهام والخيال، فأيةُ حقيقة يعرضها وأيّة رواية تصل لنا عبرهُ إلا وعليها شاهد من كتاب، وشعر من أشعار العرب والأعراب، أو مثل له قصةً متعارفةً بين الناس، كما وضح هو ذلك في كتابه، مبيّناً منهجه في أخذ وتلقي المعلومة يقول: (ولم نذكر، بحمد الله تعالى، شيئاً من هذه الغرائب، وطريفة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهدٌ من كتابٍ منزّل، أو حديثٍ مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعرٍ معروف، أو مثلٍ مضروب، أو يكون ذلك مما يشهد عليه الطبيب، ومن قد

---

(1) (الجاحظ، الحيوان ،ج6 ، ص35-36)

(2) (الجاحظ،الحيوان ، ج6 ،ص34).

أكثر قراءة الكتب، أو بعض من قد مارس الأسفار، وركب البحار وسكن الصحارى واستذرى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية..)[1].

والشك الذي لازم تفكير الجاحظ، حمله على عدم التسليم بالأخبار والآراء التي يسمعها أو يقرأها والظواهر التي يراها إلا بعد الفحص والتدقيق والملاحظة الشديدة، فهو يعتقد أن آراء الناس وأخبارهم عرضةً للضلالة والكذب لأسباب عديدة كقوله وهو يتحدث عن الدساسة، ناقلاً تلك المرويات لكنه غير متيقن من صحتها (ولم أكتب هذا لتقرّ به، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميَل)[2].

ثم أن الجاحظ لإيمانه بضرورة استخدام هذه الوسيلة، ومعرفته بجدواها يجعل منها علماً يحث علماء عصره ومن سيأتي من بعدهم إلى ضرورة تعلمها، فيجب على كل من يتصدى للبحث، ومن يخوض في دروب العلماء ويُضم إلى صفوفهم تعلُّم الشك، ليكون ما يأتي به من علم يقيناً محققاً (وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً فلولا لم يكن في ذلك إلا تعرّف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه)[3].

وهكذا مضى أبو عثمان يرسم للعلماء خطى المنهج العلمي؛ ليتبع من بعده (وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاته الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين وحالاته الموجبة له)[4].

وقد شك الجاحظ في كل خبر (أحدهما ما تناقض واستحال، والآخر ما امتنع في الطبيعة، وخرج من طاقة الخلقة، فإذا خرج الخبر عن هذين البابين، وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك التثبّت، وأن يكون الحق في ذلك ضالتك والصدق هو بغيتك كائناً ما كان وقع منك بالموافقة، أم وقع منك بالمكروه)[5].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج6، ص12-13)

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج6، ص34)

(3) (الجاحظ، الحيوان ،ج6، ص35)

(4) (الجاحظ، الحيوان،ج6 ،ص35).

(5) الجاحظ ،الحيوان ،ج 3، ص238-239)

وكذلك شك في كثير مما ليس يمتنع في القدرة أو الطبيعة وقال (كل قول يكذّبه العيان فهو أفحش خطأ)[1].

وهكذا فتح الجاحظ أبواب الشك، وأفسح آفاقه للعلماء بعده، سواء علماء المسلمين أم من جاء بعدهم من عرب وأجانب، فهذا الإمام الغزالي يصل الشك به إلى طريق الصوفية وبعدها يرجو الله أن يهبه ديناً كدين العجائز، فقد اتجه إلى العلم بحقائق الأمور وبنى دينه على يقين، وكان شكه في قضية عقائدية خاصة ذاتية ،أما الجاحظ فقد اتخذ الشك أساساً ومنهجاً علمياً وسبيلاً إلى اليقين، مازجاً إياه بالنقد العلمي الذي يدحض به كل الخرافات التي يرفضها العقل، منتقداً أساتذتهُ، فنقده (لأرسطو) معروف في كتاب الحيوان في كثير من المواضع، فقد عاب عليه أنه لم يعتمد في تحقيقه أصول وأسس المنهج العلمي كما اعتمد على السماع والعيان والامتحان أي التجربة، وأنه إن تكلّم على الحيوان لا يستوفي عجائبه كقوله (وقد ذكر أرسطو طاليس في كتاب الحيوان، أنه قد ظهر ثورٌ وثب بعد أن خصى، فنزا على بقرة فأحبلها. ولم يحكِ هذا عن معاينته. والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصديق هذا الشكل) [2].

ثم قوله في عقوق العقاب(هذا قول صاحب المنطق في عقوق العقاب، وجفائها بأولادها، فأما أشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك، وقال دريد بن الصمّة:

وكل لجوجٍ في العنان كأنها	إذا اغتمست في الماء فتخاءُ كاسرُ
لها ناهض في الوكر قد مهدت له	كما مهدت للبعل حسناءُ عاقرُ[3]

ثم أننا نجد الجاحظ لم يكتفِ فقط بأن جعل الشك علماً ومنهجاً، فقد دعا قرّاءه إلى تعلّمه، بل إنه جعله موضعاً للفخر والتباهي بين العلماء، وفي هذا الأمر حثٌ شديد على ضرورة هذه المرحلة من البحث –المرحلة الشكيّة–، فلا بد من المرور

---

(1) (الجاحظ،الحيوان ،ج3، ص361)

(2) (الجاحظ ،الحيوان، ج5 ، ص502-503)

(3) (الجاحظ ،الحيوان ، ج7، ص37-38).

بها عبر سلسلة التثبُّت في إيراد الحقائق، يقول (قال ابن الجهم للمكي: أنا لم أكد أشك وقال المكي: وأنا لم أكد أوقن، ففخر عليه المكي بالشك في مواضع الشك، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين) [1].

والجاحظ لم يسرف في استخدام الشك، وكذلك لم يخرج عن المنطق والمألوف، بل إنه تأسى في مواقع التأسي والاقتداء، وفيما قرأنا ومر بنا من نصوص، فلم نجد نصاً غايةً في التهذيب وملاءمة للحال أكثر وأقدر من النص القرآني العظيم في آي الذكر الحكيم، حيث علّمنا الله سبحانه اتخاذ هذا المنهج لأمرٍ ما ولفترة معينة إن كنا بحاجتهِ، فكلنا يذكر خطاب إبراهيم عليه السلام مع ربهِ جل وعلا (ففي القصص القرآني الكريم يعلمنا الله سبحانه أن إبراهيم الخليل قال لربهِ: ربي أرني كيف تحيي الموتى؛ فأجابه: أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي)[2].

ويتحدث الجاحظ عن حال العامة تجاه هذا السبيل في البحث، وهم برأيه جهلة الناس، منتقداً موقفهم إزاء الحقائق والغرائب، منتقداً اندفاعهم للتصديق أو التكذيب دون استخدامٍ واعٍ للعقل (والعوام أقل شكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرّد أو التكذيب المجرّد، وألغوا الحالة الثالثة من حالات الشك التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن)[3].

فالجاحظ يعتقد أن التأني في تحري الحقائق وفي تقبُّلها، والدقة في ذلك علامة وسمة مميزة للاستخدام الأفضل والأنجع للعقل، مما يميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات، كما ميزهُ الله تعالى في خطابه لأصحاب العقول والألباب في آيات الذكر الحكيم، بأن يستخدموا عقولهم ويتفكروا، ويتأملوا ثم يميّزوا ويختاروا طريقهم،

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ، ج6، ص35).

(2) (محمد عماره ، **الشك المنهجي عند الجاحظ**، مجلة العربي ،ص38، عدد(227)، 1977،مجلة ثقافية مصورة شهرية ، وزارة الإعلام ، الكويت)

(3) (الجاحظ، **الحيوان** ،ج 6 ، ص 36–37)

فالجاحظ يبيّن (أن العلماء والمفكرين خاصةً لهم حيال الحقائق والمسائل حالات، فلا التكذيب والرفض أو التصديق أو الشك، وهو درجات وطبقات)[1].

لقد أتمّ الجاحظ ما كان قد بدأه أساتذتهُ من المعتزلة طريقهم في الشك، فكان من قبله (النظّام) يجادل الملحدين، ويفضل أهل الشك على الجاحدين، وكان مبدأه الإيمان بأنه (ولم يكن يقيناً قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحدٌ من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك)[2].

فمضى أبو عثمان في هذا الطريق ليجعل منه أُسلوب دراسة، فقد حاز الريادة فيه غايةً وأصلاً وهدفاً وطريقاً، وهو لم يشك في عقيدته، ولم يتخذهُ وسيلةً للإلحاد، بل أراده منهجاً وديدناً للعلماء، حتى يكون القارئ على بيّنةٍ بحقيقةِ ما يكتب، فالحقيقة ضالة الجاحظ في كتابه الحيوان أنّى وجدها يأخذ بها؛ لتكن بذلك سبيله إلى اليقين والتثبت وجلاء الأذهان ثمرةً عقليةً ربما كانت من ثمار الاعتزال.

ثانياً: التجربة

لقد أشار الجاحظ إلى هذه الوسيلة والأساس المهم من الأسس التي سار عليها في كتابه الحيوان، حرصاً منه على التوثيق والتحقق من صحة ما يروي وينقل ويشاهد، فقد أشار إلى التجربة في كثير من المواضع ذاكراً إياها، حاثّاً عليها، قائلاً (هذا الكتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه به العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السَماع، وعلم التجربة)[3].

فكما أنه جعل الشك علماً ودعا إليه، فهو أيضاً يعتبر أن التجربة علمٌ لا بد منه لإثبات الحقائق، فهو يلخص في كتابه ويبين أصوله التي يبني عليها معرفة الحقائق، وهي استعانته بالحواس والتجربة، ويعتمد على معرفة السماع وعلى العقل، والجاحظ ينتقد كل عالم لا يتتبع هذه الخطوات، ويعيب على كل من يتجاهلها، حتى

---

(1) (محمد عمارة، **الشك المنهجي عند الجاحظ** ، مجلةالعربي، ص38).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج6 ،ص35-36).

(3) الجاحظ ،**الحيوان** ج1، ص11.

لو كان (أرسطو) نفسه صاحب كتاب المنطق، الذي تأثر به الجاحظ في حديثه عن كثير من الحيوانات.

وقد كان الجاحظ (يتناول كل ما يقع عليه الحس، وتنظره العين، وتتشوف إليه النفس، وليس نظره في كل معاني النظر المجرد، بل نظر الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان)[1].

وربما أخذ عليه البعض أن كتابه الحيوان جاء في تجاربه معتمداً أو متأثراً (بأرسطو)، ومع أن هذا القول ليس صحيحاً كلّه ولكن ما العيب في أن أمة تستفيد ممن كان قبلها، فنعلم أن (أرسطو) قد استخدم التجربة والاستنتاج دليلاً حقيقياً للمواضيع التي مارسها، وأنه لديه قدرة ومعرفة بالتشريح، فمن الطبيعي أن تستفيد أمةٌ ناهضة حديثةٌ من معارف الأمم التي سبقتها، وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم، وهو الاستفادة مما في هذه الأرض بكل ما فيها من كنوز، وعلوم، وعلماء، وآثار وعبر، ولو أن في ذلك مأخذ لما كان القرآن الكريم ملئ بالعبر والعضات، والدعوة إلى الإتعاض بمن سبق من الأمم الغابرة، الضالة منها، التي اهتدت، وكذلك ذكره الشخصيات التي هديت سبلها في دينها، ودنياها. فلا بد هنا من أن يظهر أثر (أرسطو طاليس) في كثير من المواضع عند الجاحظ وغيره من علماء المسلمين، إلا أن هذا الأخذ أو التأثر لم يكن تقليداً أعمى واستسلاماً؛ فكلام (أرسطو) لم يتخذه الجاحظ نصاً لا يمكن تغييره، وقد نوّه الجاحظ بذكره معتمداً عليه في بعض المواضع، ناقداً إياه، مصححاً له، في مواقف كثيرة. حيث سلك معه مسلك المعتزلي، العقلاني الحر: فما قبله عقله، وأيدته الأدلة قبله، وما لم يقبله عقله ردّه.

ثم إن الجاحظ لم يبخس(أرسطو) حقه، فهو عالم بعيد عن هوى نفسه، حياديٌ في علمه، لا يقبل الأمور بعلاتها، لكنه كان في الكثير منها يعتذر عن (أرسطو)؛ لأنه ربما يكون المترجم أخطأ في النقل، أو أن المترجمين لم يتوخوا الدقة في ترجمتهم عنه كقوله: (فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريّين، وأحاديث السمّاكين، وإلى ما في كتاب رَجُلٍ لعله أنْ لو وَجَدَ هذا المترجمَ أن يُقيمهُ على

---

[1] (محمد كرد علي ،أمراء البيان ،ج2 ،ص89، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.).

المصنطبة، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته)[1]، لكنه في مواضع أخرى يرد على (أرسطو) مستشهداً بما يدل على بطلان ما ذهب إليه (هذا قول صاحب المنطق في عقوق العقاب، وجفائها بأولادها. فأما أشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك)[2].

وكان الجاحظ (يتناول كل ما يقع عليه الحس، وتنظره العين، وتتشوق إليه النفس، وليس نظره في كل المعاني النظر المجرّد، بل نظر الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان)[3].

والجاحظ يحض العلماء والناس، بأن لا يغتروا بما سمعوا، أو بما تعوّدوا، وألا يتعلقوا بغرائب الأمور، ويعمموها إلا بعد إخضاعها للتجربة، والامتحان، والتنقيب عن أصل هذه الحقائق، وكأني بالجاحظ يعدُّ ويجهز في بعض أبحاثه استبانةً يجري خلالها عمليةً إحصائيةً؛ ليتثبت من مسألة مهمة، فهو في إحدى هذه التجارب وقد أراد أن يثبت أن عرق الخال أنزع من عرق العم، وأن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها على الشبه أغلب، وإن أكثر ما تلد الأمهات الإناث، وكذلك الناس وجميع الحيوانات، فللتثبت من صحة ذلك يجري تجربةً إحصائيةً وينصح القارئ بتتبع الإحصاء، وذلك بأن يحصي سكان عشر دورٍ من يمينه، وعشرٍ من شماله، وعشرٍ من أمامه، وعشرٍ من خلفه، ثم ينظر أيها أكثر رجالهم أم نساؤهم، وذلك للتثبت من أن عرق الخال أنزع من عرق العم.

والجاحظ يرى أن كثرة الاستهتار بسماع الغريب، والتعلق بالعجائب، من شأنه أن يجعل الكتب عرضةً لأن يشوبها الفساد، مما يقلل من قيمتها العلمية، وينقص من شأنها، لعبث جماعة لا تعرف للعلم قيمتهُ (فهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرة أتباعهم ممن تجده مستهتراً بسماع الغرائب،

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج6 ،ص19)

(2) (الجاحظ ، الحيوان، ج 7 ، ص37).

(3) (محمد كرد علي، أمراء البيان ، ج2، ص89).

ومغرماً بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيبا من التثبت وحظاً من التوقي، لسلمت الكتب من كثير من الفساد)[1].

(فهو يرى العلم، وصحة النظر، فوق كل اعتبار، ولا كبير عنده أمام النقد في ميدان الجدال وإحقاق الحق)[2].

ونحن ندرس المنهج العلمي عند الجاحظ، يجب أن لا يغيب عنا أن الجاحظ قد عاش خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، والنصف الأول من القرن الثالث، وإن الواقع آنذاك، والمنطق، يحتّم علينا أن لا نتوقع أن كل ما يأتي به الجاحظ في منهجه العلمي، يجب أن يكون صواباً ،تقبله المقاييس العلمية في عصرنا، حيث أن قيود الزمن، وظروف البيئة، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، فمن الصعوبة بمكان أن نقارن بين آراء الجاحظ في الحيوان من حيث التشريح ووظائف الأعضاء، وبين العلم الحديث بعد تقدم الإنسان في هذا المجال وغيره، ولكن لا بد لنا أن نقول إن كان العلم الحديث أبطل الكثير من آراء (أرسطو طاليس)، والكثير من آراء (جالينوس) في التشريح البشري، فإن آراء الجاحظ -وإن لم يكن علم الحيوان اختصاصه- لم تكد تعارض العلم الحديث، وهو مع بساطة البحث، وبساطة أدوات البحث، نراه يقول بأشياء جديدة، وينفي أموراً قديمة، سواء أقال بها اليونان أم العرب أم غيرهم، تسعفه في ذلك تلك العقلية العربية الفذة، التي تغوص إلى عمق الأشياء، وتحلّل، وتجرّب، وتستنتج بنفسها إن أعوزها البرهان الجاهز، وعليه يقول الجاحظ في تكون الفرخ بالبيضة (قال: ويستبين خلق الفراخ إذا مضت لها ثلاثة أيامٍ بلياليها، وفي ذلك شباب الدجاج، وأما في المسانّ منها فهو أكثر. وفي ذلك الوقت توجد الصفرة من الناحية العليا من البيضة عند الطرف المحددّ وحيث يكون أول نقرها، فثمّ يستبين في بياض البيضة مثل نقطة من دم، وهي تختلج وتتحرك، والفرخ إنما يُخلق من البياض، ويغتذى الصفرة، ويتم خلقه لعشرة أيام. والرأس وحده يكون أكبر من سائر البدن)[3].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج1 ،ص 144).

(2) (محمد كرد علي ،أمراء البيان،ج2، ص397).

(3) (الجاحظ ، الحيوان ،ج3 ، ص177-178).

أما العلم الحديث، ففي كتاب (علم الحيوان) تحت عنوان (جنين 24 ساعة) تكون رأس الجنين واضحة في أدوار النمو الأولى، ويبدأ تمييزها في الأجنة التي تبلغ أعمارها من(21-22) ساعة من الحضانة، حيث يتغلظ الجزء الأمامي للمنطقة الجنينية، ويرتفع عن المستوى العام (للبروستدروم)، وفي الجنين (24) ساعة يزيد ارتفاع هذه المنطقة الأمامية)[1].

ويقول أحد مؤلفي كتاب علم الحيوان (ويتم امتصاص المح ونقله إلى الجنين النامي خلال هذه الأوعية الدموية، فيصغر حجم كيس المح تدريجياً، وكلما زادت كمية المح الممتص حتى يختفي تماماً)[2].

ثم إن الجاحظ يرد على سابقيه ومعاصريه، دعواهم أن السمكة لها رئة، وأنها تتنفس بواسطتها، بقوله ("وسابح ليس له سحر"، فإن السمك كله لا رئة له. قالوا: وإنما تكون الرئة لمن يتنفس. هذا، وهم يرون منخري السمك، والخرق النافذ في مكان الأنف منه، ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء أن ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين، ولكنه تنفس جميع البدن)[3].

ويقول مؤلفو كتاب علم الحيوان (تتنفس السمكة بأن تفتح فمها فيدخل الماء في تجويف الفم، ويصل منه إلى البلعوم، ثم تغلق الفم، فيندفع الماء من البلعوم إلى الأكياس الخيشومية، ومن هذه الأكياس إلى الخارج عن طريق الفتحات الخيشومية الخارجية)[4].

والجاحظ يظهر أنه لم يبطل هذه الدعوى بمجرد الكلام، إنما قام بتشريح السمكة، واستنتج أن السمكة ليس لها رئة؛ فهو في كثير من آرائه وتجاربه صاحب نظر، ورجل تجربة، وعالم في علوم الحياة.

---

(1) (د. زهير ابراهيم فتوحي رحيمو و نجم شليمون كوركيس ،**علم الحيوان العام**،ص 606 ، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل ، دار الكتب للطباعة والنشر.)

(2) (**علم الحيوان العام** ، ص593-594).

(3) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج6 ، ص344-345)

(4) (**علم الحيوان العام** ،ص446).

إن الواقع والمنطق الذي عاشه أبو عثمان في زمنه، يحتّم علينا أنْ لا نتوقع أن نجد كل ما جاء به من علم خالياً من الأخطاء، والتي تعثر بها أكبر العلماء؛ حيث إن قيود الزمن وظروف البيئة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار، ومع ذلك (يمكن أن نقول إن منهج الجاحظ يمثل المنهج العلمي السائد بين الطبقات المفكرة، التي كانت تقود المجتمع الإسلامي آنذاك، وأن الكثير مما جاء به الجاحظ لا زال صالحاً لعصرنا رغم الفرق الزمني البعيد)[1].

ثم يجب أن نعلم أيضاً ونحن ندرس التجربة، والمنهج العلمي عند الجاحظ، أنه عانى من الصعوبات الشيء الكثير في تطبيقه لخطة منهجه، فمن الصعوبة بمكان، أن يكون الإنسان عالماً يتحلى بالأمانة العلمية؛ حيث أن التأليف في هذه الموضوعات العلمية الدقيقة، والبحث فيها، يتطلب الصبر، والجلَد، والتحلّي بالروح العلمية؛ فالجهد في كتاب الحيوان واضحٌ بيّن، فما زلنا ومن سيأتي من بعدنا من أجيال، ينهل من هذا المعين الذي لا ينضب عطاؤه، وهو في غير موضع يشرح لنا جهده، ويعلل صعوبة التأليف في هذه الموضوعات العلمية التي تحتاج إلى الأدلة والبراهين؛ فهي لا تعتمد فقط على تنظير المؤلف، وقدرته على استخراج الحقائق حول الموضوع – كما هو الحال في غيرها من الموضوعات– وإنما تعتمد على التجربة، وتمحيص الخبرات، ومناقشتها، وهذا الجهد الذي يتحدث عنه الجاحظ، نشعر به ونلاحظه عندما نبدأ بوضع أقدامنا على أعتاب البحث؛ لنخطو أول خطوة في ميادين العلم، فهو يتطلب جهداً وجلداً ،ويبيّن ذلك أبو عثمان بقوله (وقد صادف هذا الكتاب–كتاب الحيوان– مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك: العلة الشديدة، والثانية: قلة الأعوان، والثالثة: طول الكتاب، والرابعة: أني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعدد ألفاظه، ومعانيه، ثم كان من كتب العرض، والجوهر، والطفرة، والتوليد، والمداخلة، والغرائز؛ لكان أسهل وأقصر أياماً، وأسرع فراغاً؛ لأني كنت

---

(1) (داوود سلوم، **النقد المنهجي عند الجاحظ**، ص194، كلية الآداب، بغداد، مكتبة النهضة العربية).

لأذرع فيه إلى تلقط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرّق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال)[1].

ونحن ندرك هذه الصعوبة جليةً أمام ضخامة الكتاب، وغزارة المادة فيه، وتنوعها، وإن المرء ليصاب بالعجب حين يعلم أنه جهد رجل واحد! وقد وهن العظم منه، وبلغ من الكبر عتياً.

ونحن إذ نتحدث عن جهد الجاحظ، ربما أُعجبنا به، لا ننكر بل يجب أن نعترف بأن الجاحظ عالم مجتهد، سار في دروب العلم باعاً طويلاً، حققّ خلاله ما حققّه للبشرية، فلا بد أنه في طريقه كان قد تعرض إلى بعض الأخطاء التي يمكن أن يقع بها العلماء الكبار، فهو يجتهد والمجتهد قد يخطأ ويصيب، فيجب أن لا نظلم الجاحظ، ونحن نقارنه بما عندنا اليوم في زمنٍ توصل إليه العلماء من حقائق بفضل تجاربهم، متناسين أن الجاحظ ظهر منذ قرون طوال (فليس من العدل أن نكلفه أموراً لم تهتدِ إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد)[2].

ومن الأخطاء العلمية التي قد أسرف الجاحظ في إيرادها، وتأكيدها، قوله في التولد الذاتي (الخلق التلقائي)، الذي جاء من بعده علماءُ مشوا في هذا الطريق لإثبات نظرياتهم، وربما نجد للجاحظ بعض الأعذار لمضيه في هذا الأمر؛ وذلك لأنه كان مقيّداً في عصره، وزمنه، وبيئته، فكان في عوزٍ شديد إلى أدواتٍ ربما لو توفرت لديه لكان الوضع غير الوضع، ولحاد عن إصراره ودفاعه عن هذا التنظير، يقول(ثم رجع بنا القول إلى ذكر خلق الذبان من الباقلاء، وقد أنكر ناس من العوام وأشباه العوام أن يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر وأنثى، وهذا جهلٌ بشأن العالم، وأقسام الحيوان، وهم يظنون على الدين من الإقرار به مضرةً، وليس الأمر كما قالوا)[3].

ويمضي الجاحظ لتأكيد رأيه مبعدً الدين عن ذلك، ضارباً مثالاً آخر ليقع في أخطاء كان قد حذّر غيره منها، وانتقدها، وهذا ما كان قد انتقد به أستاذه (النّظام)،

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج4 ، ص208).

(2) (شفيق جبري، **الجاحظ معلم العقل والأدب**، ص129، محاضرات كلية الآداب،القاهرة).

(3) (الجاحظ ،الحيوان، ج3 ، ص361).

وراح الجاحظ يضع قاعدةً خاطئةً، ثم يبني على أساسٍ غير صحيحٍ يقول مؤكداً ما ذهب إليه (وقد علمنا أن الإنسان يأكل الطعام، ويشرب الشراب، وليس فيهما حيّة ولا دودة، فيخلق في جوفه ألواناً من الحيات، وأشكالاً من الديدان، من غير ذكر أو أنثى، ولكن لا بد لذلك الولاد، واللقاح من أن يكون عن تناكح طباع، وملاقاة أشياء تشبه بطباعها الأرحام)[1].

بينما نجده يحذر غيره من العلماء؛ خوف الانزلاق في مثل هذه الهفوات العلمية، وينتقدها، وقد عدّه عيباً أن نقيس على ظنٍ غير موثوقٍ، وقد عدّ هذا النقد له من باب غيرته على البحث العلمي، وبعد نظره في المسائل العلمية في نقده للنظّام، فقال (وإنما كان عيبه (أي النظام) الذي لا يفارقه سوء ظنّه، وجودة قياسه على العارض، والخاطر السابق الذي يوثق بمثله، فلو كانَ بدل تصحيحه القياس التمس الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنه كان يظن الظنّ ثم يقيس عليه وينسى أنّ بدء أمره كان ظناً. فإذا أتقن ذلك وأيقن، جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه)[2].

ولكن ما يهوّن مثل هذه الأخطاء، أن الجاحظ لم توفر له المعدّات الدقيقة، والمجاهر المركبة، فلو توفر له ذلك لما فاته مثل هذا الأمر، ولكان قد أصاب (ولعرف شيئاً عن بيوض الحشرات والديدان، التي تتكون قبل أن تحل في الباقلاء أو جوف الإنسان)[3].

وربما كان الجاحظ بهذا النهج العلمي، قد سجل وأثبت نفسه أول عالم تجريبي في هذا الحقل؛ حيث اهتم بتجارب الآخرين، ومشاهدات من يثق بهم، كما اهتم بمشاهداتهِ وتجاربهِ الشخصية، فالجاحظ تلميذ للنظّام في إجراء التجارب، فنجده يجري عدداً من التجارب، ويورد تجارب أجراها النظام سنذكر بعضها للتمثيل لا الحصر، فقد أجرى النظام تجربةً على الظليم وهو(ذكر النعام)؛ ليعرف مدى تحمّل جوف الظليم لحرارة المواد ولطبيعتها، وقد كانت هذه التجربة على مرأىً من

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج3 و ص362).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج 2 ، ص229-230).

(3) (داوود سلوم، **النقد المنهجي عند الجاحظ** ،ص205).

الجاحظ، يتابع خلالها وبدقة بنظر العالم المتتبع للمتغيرات، ولخطوات التجربة، فيقترح في كل مرحلة من مراحلها، ويسجل في دفاتر ذاكرته؛ ليخرج بعدها بالتعميم، ويقول واصفاً بدقة تلك التجربة: (وأخبرني أبو اسحق إبراهيم بن سيّار النظّام -وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماعٍ أو عيان- أنّه شهد محمد بن عبد الله، يلقي الحجر بالنار، فإذا عاد كالجمر قذفه به قدّامه، فإذا هو يبتلعه. وكنت قلت له: إن الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقى الرطوبات، ومتى أطبق عليه شيء يحول بينه وبين النسيم خمد، والحجر أشد إمساكاً لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلاً، وألزق لزوقاً، وأبطأ انطفاءً، فلو أحميت الحجارة! فأحماها ثمّ قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتبت به، فلمّا ثنّى وثلّث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقيّ الحديد، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأول والثّاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهي أن ننظر أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرّف ذلك مع الأيام. وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته، فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعض ندمائه إلى سكين فأحمي، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى خلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه، ثم خرّ ميتاً. فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا)[1].

والجاحظ يروي التجربة بدقةٍ عن النظّام، حريصاً على أدق دقائقها، فبيّن كيف كان التنويع في أدوات التجربة، وكيف كانت مراحلها، ثم استخدامه الحرارة فيها بدرجات مختلفة، فالتبادل بين الأدوات المستخدمة؛ لملاحظة الفرق والفعاليّة، فيبيّن أن النظّام كان يعرف علم التشريح، حيث صرّح عن نيّته في تشريح الظليم، واكتشاف أثر درجات الحرارة داخل جوفهِ، وكيف يحدد الدرجة اللازمة لإذابة الحديد، ثم هو في هذه التجربة يميّز بين صنفين من الناس: صنف العالم المتابع الحريص على البحث عن الحقيقة، وهناك الصنف الجاهل السخيف الذي يجعل كل وقته لهواً ولعباً، فلا هو تعلم، ولا ترك مجالاً لغيره أن يصل إلى مراده.

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج 4 ، ص320-321).

لقد استخدم الجاحظ التجربة استخداماً عجيباً ملحاً في بحثه، حيث، استعان بتجارب أساتذته لثقته بنتائجهم، فنجده وبكل جرأة علمية، وبشجاعة العالم في البحث، يجري التجارب على الحيوانات لغاية البحث، فيسقيها الخمر؛ ليرى مدى تأثيرها عليها. يقول في ذلك (فحدثني إبراهيم قال: شهدت أكثر هذه التجربة التي كانت منهم في إسكار البهائم، وأصناف السباع، ولقد احتال لأسد مقلم الأظفار ينادي عليه: العجب العجب!! حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتمال، فزعم أنّه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكراً من الظبي. ولولا أنّه من الترفّه لكنتُ لا يزال عندي الظبي حتى أسكرهُ وأرى طرائفَ ما يكون منه) [1].

وكان الجاحظ يستند أبداً على التجربة والملاحظة؛ أن يرى الأمور مع عللها، ويلاحظ، ويحسّ، ويتدبر، لا يمتهن شيئاً في الكون وإن كان ضئيلاً، لسان مقاله دائماً (أوصيك أيها القارئ المتفهّم، أيها المستمع المنصت المصيخ، ألا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنٍ) [2]، وقوله (ثمّ اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة) [3].

ثم إن الجاحظ لم يعتمد طريقاً واحداً تقليدياً، بل كان يعتمد طرقاً مختلفة متباينة تختلف حسب نوعية التجربة،والجسم المراد التجريب عليه، فكان له ملاحظاته الخاصة، ومشاهداته الشخصية، فأجرى تجارب على الحيوان، والإنسان، والنبات، مبدؤه في هذا كله (فلا تذهب إلى ما تريك العين وإنما اذهب إلى ما يريك العقل، وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقل، والعقل هو الحجة) [4].

وهو دائم التأكيد على الاستعانة بالعقل، فيضع كل ثقته به، فهو يؤمن بأن العيون تخطيء، وإن الحواس ربما تكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما

---

(1) (الجاحظ،الحيوان ،ج2 ،ص230)

(2) (الجاحظ ،الحيوان ، ج3 ،ص298).

(3) (الجاحظ ،الحيوان ، ج3 ،ص299).

(4) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 1، ص207).

الاستعانــة الصحيحة إلا بالعقل، ويرى أن العقل دائماً زمامٌ على الأعضاء، وعيارٌ على الحواس.

وهكذا فقد نوّع الجاحظ في التجارب، وأجراها على كل ما هو حوله، سالــكاً طرقاً شتى حسب ما يقتضي الحال، مستخدماً ما توفر لديــه من الأدوات، ومع ذلك فقد أحرز نتائج، وكان له ملاحظات فاق بها غيره، وقد كانت نواةً لنظريات علمية غدت فيما بعد من المسلّمات، فنجده يتجرأ في مجال التجربة ويستخدم مواد كيميائية؛ ليعلم مدى تأثيرها في الحيوانات، فقد استخــدم في أحد تجاربه مادتيّ الكبريت والقطران من خلال حديثه عن مبيدات لقتل النمل، يقول الجاحظ { قالوا}: وتُقتل بأن يصبّ في أفواهِ بيوتها القطران والكبريت الأصفر. ويدّس في أفواهِ بيوتها الشّعر. وقد جرّبنا ذلك فوجدناه باطلاً)[1].

ثمّ نجده في تجــارب أخرى يجري عمــليةً جراحيةً، ويقوم بفتح بطــون الحيوانات، مشرّحاً بطــونها وأجزاء جسمها، فقد بعج مرةً بطن عقرب، فوجد فيه أكثر من سبعين عقرباً صغيرة، كل واحد نحو أرزة –على حد تعبيره–.

لقد قابل الجاحظ بين الحيوانات خلال تجاربه، وذكر أوجه الشبه بينها، وأوجه الاختلاف، وأوجد لها تصنيفاً أيضا، وهذا ما يقوم به علماء الحياة المحدثون، ونجده يجدّد في تجاربه و يأتي بإبداعات، فيلقي على بعض الحيوانات السُم، ويقول واصفاً إحدى تجاربه (وقيل لي– وقرأت في كتاب الحيوان–: أن ريح السذّاب يشتدّ على الحيّات. فألقيت على {وجوه} الأفاعي جزر السّذاب فما كان عندها إلا كسائر البقل، فلو قلت لهم في هذا شيئاً لقالوا: الحيّات غير الأفاعي. وهذا باطل. الأفاعي نوع من الحيات، وكلهم قد عمّ ولم يخص)[2].

والجاحظ لم يكن كأي إنسان متقف، أو كأي عالم، مجرّد أن يقرأ شيئاً أو يُحدَّث به يسلّم بذلك، فهو في موطن تثبت وتحقّق، مما يسمع أو يروى له، فيقول وقد رأيت، وقد قيل لي، فأحب أن يتحقق بنفسهِ، فوجد ما سمع وما قرأ ليس له أصل عندما قرنه بالتجريب.

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج4 ، ص36)

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج5، ص365)

وهو يعيد هذه التجربة في مواطن أخرى، وكأني به يهيب بالعلماء أن لا يصدقوا كل ما يقال إلا بعد تحقق تام، يقول (والأفاعي تكره ريح السذاب والشيح، وتستريح إلى نبات الحرمل. وأما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أرَ على ما قالوا دليلاً) [1].

والجاحظ كما سلف وأوضحنا، لم يكتفِ بتجاربه وحده، بل كان يعتمد على تجارب غيره من العلماء الثقات، وكان يشاهد هو نفسه تلك التجارب، وربما كان يقترح تبديل وتغير ظروف التجربة، ويسجل ملاحظات قبلية وبعدية، فقد كان يعاين تجارب غيره، فيقول (ودخلت يوماً على ابن أبى كريمة، وإذا هو قد أخرج إجّانةً كان فيها ماء من غسالة أوساخ الثياب، وإذا ذبّان كثيرةٌ قد تساقطن فيها من الليل فموّتنَ، هكذا كنّ في رأي العين. فغبرنَ كذلك عشيّتهن وليلتهن، والغد إلى انتصاف النهار، حتى انتفخنَ وعفِنَّ واسترخين، وإذا ابن أبى كريمة قد أعدّ آجورةً جديدة، وفتات آجر جديد، وإذا هو يأخذ الخمس منهنّ والست،ثم يضعهنّ على ظهر الآجورة الجديدة، ويذر عليهنّ من دقاق ذلك الأجرّ الجديد المدقوق بقدرٍ ما يغمرها فلا تلبث أن يراها قد تحرّكت، ثمّ مشت، ثمّ طارت؛ إلا أنّه طيران ضعيف) [2].

وعقل الجاحظ العلمي، الذي كان يدعو دائماً إلى الاعتماد عليه، لم يكن يقنع بتصديق الخرافة والأساطير، فقد هزئ بالشائع من الخرافة في عصره، وكان ينتقد العلماء الذين يروون مثل هذه الأمور، وكان يؤمن بأن الشخص المناسب يجب أن يكون في المكان المناسب، حيث هو يؤمن بالتخصص، فينظر فيما يروى له من روايات أو حقائق ،فيتتبع القضية عند أهل التخصص، فيسأل عنها أهلها، فهو يسأل الجزّارين، ويصحّح منهم أخباراً كاذبةً شائعةً عند الناس أو نادرة، ويسأل الحوّائين، وقد يأخذ بآراء البحريين، والحرّاس، وأرباب الصناعات، إذا رووا له ما يقبله عقله.

ومن إيمانه بالتخصص وهو من كان ديدنه (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) [3]، يحدّثنا معجباً بنجّارٍ فاهمٍ لصنعته متقنٍ لها، وكأني بالجاحظ يدعو إلى

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج6 ،ص399)

(2) (الجاحظ، الحيوان ،ج3 ،ص349-350)

(3) (سورة الأنبياء : آيه7)

ترتيب المواقع بين الناس، ويدعو لأن يأخذ كلٌ دوره المناط به في الحياة، يقول واصفاً ذلك الحوار الذي دار بينه وبين النّجار (ومثل ذلك قول نجَار كان عندي، دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له: إن إحكام تعليق الباب شديدٌ، ولا يحسنه من مائة نجار نجارٌ واحد. وقد يذكر بالحذق في نجارة السقوف والقباب، وهو لا يكمل لتعليق باب على تمام الإحكام {فيه والسقوف}، والقباب عند العامة أصعب. ولهذا أمثال: فمن ذلك أن الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل ويحكمان الشيء، وهما لا يحكمان شيَ جنب، ومن لا علم له يظن أن شيَّ البعض أهون من شيَّ الجميع! فقال لي: قد أحسنت حين أعلمتني أنك تبصر العمل، فإن معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشفيق. فعلّقه فأحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقةٌ لوجه الباب إذا أردت إصفاقه، فقلت له: أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق ويرجع. ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه وأخذ حقه وولاّني ظهره للانصراف، والتفت إليّ فقال: قد جوّدت الثقب، ولكن انظر أيّ نجار يدقّ فيه الزّرة؛ فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب -{ الشق عيب}- فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تامّاً)[1].

وهكذا (فقد ظلّت تجارب الجاحظ وآراؤه في التجربة العلمية منهجاً للباحثين المسلمين من بعد عصره، وغير المسلمين فمن الخطأ أن تنسب هذه الطريقة التجريبية إلى الغرب، ولا تنسب إلى مصدرها الأصيل وهم علماء المسلمين أولاً، وفي مقدمتهم الجاحظ)[2].

وكان الجاحظ دائماً، يحاول أن يضع القاعدة، ولا يؤمن بالخرافة ويعقب على بعضها بقوله: وهو من أحاديث الباعة والعجائز، أو فإذا به أكذب البرية، أو وذلك خرافة من خرافات الأعراب، أو لا يكون ذلك حتى يجمع بين الماء والنار، أو حتى يشيب الغراب، فهو دائماً وأبداً يُحكّم العقل أولاً، وقد كان له من تواضع العلماء أوفى نصيب، فيقول (يقولون)،أو (يقال)، أو (قال صاحب الديك)، أو (قال صاحب المنطق)، أو(قال صاحب الحمّام)، وكأن لم يكن دوره إلا الجمع، وحتى في الجمع

---

(1) الجاحظ ، **الحيوان** ج3 ،ص 276-277

(2) (محمد عبد المنعم خفاجي، **أبو عثمان الجاحظ** ،ص178، 1982، دار الكتاب اللبناني، بيروت)

يقول (إن ما جمعته قليل)، ففي حديثه عن الضفدع يقول(وأنا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي، وهو قليل في جنب ما عند علمائنا، والذي عند علمائنا لا يحسّ { في جنب ما عند غيرهم من العلماء،والذي عند العلماء قليل في جنب ما عند الأنبياء، والذي عند الأنبياء قليل في جنب }ما عند الله تبارك وتعالى) [1].

ثالثاً: الشمولية

عندما نتحدث عن الشمولية في التأليف عند الجاحظ، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن الجاحظ دائرة معارف عصره، كما أطلق عليه الكثير من العلماء والأدباء، وهذا أمر طبيعي فنحن أمام رجل واسع الثقافة، ثقافةً تلقّاها عن أساتذة أفاضل، تتلّمذ على أيديهم في شتى العلوم، وهو صاحب ثقافة متنوعة المصادر، ممتدة الفروع، غزيرة العطاء، والتي تلقاها الجاحظ عن مساجد وكتّاب البصرة في طفولته، مما صقل شخصيته، فقد كان نهماً بالكتب والمطالعة، لازم الكتّاب منذ صغره، ثم اعتمد السماع من مفكرين، وعظماء، ومن أصحاب التخصص، وغيرهم ممن اختلط الجاحظ بهم، طالباً يتعلم في المساجد، أو بائعاً يبيع الخبز في سيحان وغيره من الأسواق، (لذا ألمّ بمختلف حقول المعرفة، فلسفةً، ديناً وكلاماً، طبيعيات وحيواناً، نباتاً وإنساناً، أخلاقاً واجتماعاً، سياسةً وتاريخاً، وأدباً ...... وهكذا نجد كتاب الحيوان معرضاً متنوع المنتجات، مختلف الألوان والأزياء) [2].

إن هذا الكتاب موضوعه الأساسي هو الحيوان، لكن الجاحظ حشد في تضاعيفه أبحاثاً شتّى لا تمتّ للحيوان بصلة، إلا أنه ينفذ لها من خلال حديثه عن الحيوان، فنجده يتحدث عن الكتاب ومنافعه، وعن الخط وأنواعه، والشعر العربي وترجمته وتاريخه، وعن اللغة واشتقاقاتها، والكلام وأصوله، والديانات وشعائرها من يهودية، ومسيحية، ومجوسية، إلى جانب الإسلام وفرقه من شيعة، ومعتزلة، وخوارج، ومرجئة، ومشبهة، وسنة، ثم فيه حديث عن النار وكمونها، وجوهرها،

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 5، ص525)

(2) (علي بو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص29 ، الطبعة الأولى، نيسان ،1988، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت).

والعناصر التي تتركب منها الأجسام، والأمراض، والجواهر، والألوان والطعم، وغيرها من الموضوعات التي جعلت من الكتاب موسوعةً في الحياة، لقد صنع الجاحظ موسوعته هذه، ولم يكن همّه كهمٍّ غيره من المؤلفين في الجمع والرواية والحفظ، وإنما كان همّه الابتكار، وأن يطرف، وأن يخلق للناس بديعاً يضفي عليه جميعه، مسحة الدعابة والهزل، ويشيع الفكاهة في أثناء الكلام فجمع بذلك قلوب القارئين له واستحوذ على شتى ميولهم إلى ما يكتب، فصبوا إليه أغرموا به.

وقد طرق الجاحظ في كتابه أبواباً عديدة، وتقرب إلى العامة، وحرص أشد الحرص على استرضائها، ولم ينسَ في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف العالية والسياسة الرفيعة.

إن عنوان الكتاب (الحيوان)، لم يقيّد صاحبه، ولم يحبس تلك الثقافة في كل جزء من الكتاب حتى غدا شاملاً ينبض بالحياة، فهو من الجانب العلمي كما وصفه محققه عبد السلام محمد هارون (أما الجاحظ فأمامك كتابه ينطق بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً ولكل مملكة من ممالكه، ولكل جنس من أجناسه. وهو فضل للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب في الحيوان وإن أعوزه بعض الترتيب والتهذيب، فهو شأن كل كتابة جديدة في أمر متشعب الأطراف ممدود النواحي) [1].

والجاحظ في هذه العلوم العقلية، لم يقتصر في حديثه عن الحيوان فحسب، بل إنه طرق أبواباً أخرى في مجالات هذه العلوم بفروعها المختلفة، فهو يستخدم المواد الكيميائية في الكثير من تجاربه، ويعلق على مفعولها، وكيفية تأثيرها على هذه الأجسام الخاضعة للتجربة. وفي مجال الطبيعيات نجد الجاحظ يسبق غيره في مضمار العلم، فيتحدّث عن سرعة الصوت والضوء، فيقرر حقيقةً فيزيائية وهي (ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعد، والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل إليك في سرعة البرق، لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ، ج1، ص18، عبد السلام محمد هارون ، **مقدمة المحقق**).

وقد ترى الإنسان، وبينك وبينه رحلةٌ فيضرب بعصاً إما حجراً، وإما دابة، وإما ثوباً، فترى الضرب ثم تمكث وقتاً إلى أن يأتيك الصوت)[1].

وعلم الطبيعة يقول إن الضوء يدور حول الأرض سبع مرات في نصف الثانية الواحدة أما الصوت فسرعته (32) قدما في الثانية الواحدة.

وبيّن الجاحظ منهجَهُ الموسوعي وشموليتَهُ في البحث، وكيف أن امتداد أفقه الثقافي لا يمكن أن يحُد ويقتصر على ما يضيق من الموضوعات، فثقافة الرجل جدُّ عالية، وزاخرة بالخبرات والتجارب، التي لا يمكن السيطرة على عدم نفاذها والاستشهاد بها في مجال التأليف؛ ولا عجب فقد عاش الجاحظ خلال قرنين معاً يشهد لهما بأنهما الأساس للعلوم والآداب، حتى أن معظم ما جاء بعد العصر العباسي كان إقتداء ً ونسجاً على منواله، ويصف الجاحظ (حيوانه) بقوله (على أنه كتابٌ معناه أنبه من اسمه، وحقيقته انق من لفظه، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي ،كما يحتاج إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الريّض كما يحتاج إليه الحاذق: ما الريّض فللتعلم والدربة وللترتيب والرياضة، وللتمرين وتمكين العادة؛ إذ كان جليله يتقدم دقيقه وإذ كانت مقدّماته مرتبةً وطبقات معانيه منزلة. وأما الحاذق فلكفاية المؤنة؛ لأن كلّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غُرمه وكان له نفعه وعلى صاحبه كدّه)[2].

ونجد الجاحظ في (حيوانه) يخوض في عالم الطب، فيكتب الوصفات الطبيّة، أو يرفض ويعلّق على بعضها، منتقداً القائلين بها، وموقفه من الأطباء لا يخفى في انتقاده لهم، وهذا ما ذهب إليه بعض النقاد في أن وفاة الجاحظ لم تكن بسبب جمعه بين اللبن والسمك في الأكل، بل أنها كانت شائعة، أريد بها شخص الجاحظ وعدم معرفته بالطب؛ انتقاماً من موقفه من الأطباء.

ويقول الجاحظ في كلامه عن بعض الأدوية، وهو يتحدث عن منفعة التين (فإن كنت إنما تقف من ذكر التين على مقدار طعم يابسه ورطبه، على الافتنان بورقه وأغصانه، والوقود بعيدانه، وأنه نافع لصاحب السل، وهو غذاءٌ قويٌ ويصلح

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج4 ،ص408).

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج1 ، ص10).

في مواضع من الدواء وفي الأضمدة، وأنه ليس شيء حلو إلا وهو ضار بالأسنان ... وأن صاحب البواسير يسهل عليه مخرج الزّبل)[1].

والجاحظ في مواضع كثيرة يسخر ويهزأ من بعض ما شاع بين الناس، ومما كان اعتقاد لديهم من الصعب تغييره، لكن الجاحظ يسخر منهم داعياً كعادته في بحثه إلى عدم قبول مثل هذه الخزعبلات التي غدت بين الناس مسلمات أو شبه مسلمات ، يقول في ذلك(وكان أصحابنا يزعمون أن دماء الملوك شفاءٌ من الكَلَب، على معنى أن الدم الكريم هو الثأر المنيم) ويرد على ذلك بقوله (وليس أن هناك دماً في الحقيقة يشرب)[2].

ثم أننا نجده يتحدث مطولاً عن أثر البيئة في البشرة: وفي أجسام الناس، وطباعهم، وألوانهم، وأمزجتهم، وعقولهم، فتخاله عالم بيئة، ومن خلال كلامه عن الغراب يوضح لنا لونه وطباعه فيقول (وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزّنج فإنهم شرار الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلادهم فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال)[3].

وهنا يبين الجاحظ أن الزنج غدوا ألأم الناس وأسوأهم وأردأهم خلقاً وهم شرار الناس والخلق، ويعزو ذلك كله إلى أثر البيئة، هنا ومن باب الشيء بالشيء يذكر رداً كافياً على من يدّعي زنجية الجاحظ، فما أظن أن رجلاً يعيب أصله بهذه الطريقة، ويشبهه بحيوان ذي دلالة سلبية معروفة بين الناس، ويتهم أبناء قومه بأنهم شر الناس وأسوأهم على الإطلاق في خلقهم ومزاجهم.

ثم نجده يتحدث من الناحية الجغرافية، فيبين خصائص بعض البلدان كحديثه عن خصائص الحرم، ويتحدث عن رداءة بعض البلدان، حيث يتغير فيها كل شيء حتى العطر والسلاح، ربما لظروفها الجوية وطبيعة هوائها (وربّت بلدة يستحيل فيها

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج1، ص208)

(2) (الجاحظ ،الحيوان ، ج2 ، ص7 –8)

(3) (الجاحظ ،الحيوان ، ج2 ، ص314)

العطر وتذهب رائحته، كقصبة الأهواز. وقد كان الرشيد همّ بالإقامة بأنطاكية، وكره أهلها ذلك، فقال شيخٌ منهم وصدقه: يا أمير المؤمنين، ليست من بلادك، ولا بلاد مثلك، لأن الطيب الفاخر يتغير فيها حتّى لا ينتفع منه بكثير شيء، والسلاح يصدأ فيها ولو كان من قلعة الهند، ومن طبع اليمن، ومطرها ربما أقام شهرين ليس فيه سكون فلم يقم بها)[1].

ثم يقارن بين قصبة الأهواز وبين المدينة، فلا يجد تفسيراً مقنعاً في بعض الأحيان، أو أنه يموّه الإجابة لغايةٍ في نفسه، فيصف المدينة مقارناً بين البيئتين من حيث مناخ وأجواء كل واحدة، وأثر ذلك على أشيائها وموجوداتها (ثم ذكر المدينة وقال أن الجويريّة السوداء، لتجعل في رأسها شيئاً من بلح، وشيئاً من نضوح مما لا قيمة له، لهوانه على أهله، فتجد لذلك خمرةً طيبةً وطيب رائحةٍ لا يعدلها بيت عروسٍ من ذوي الأقدار. حتى أن النوى المنقّع، الذي يكون عند أهل العراق في غاية النتن، إذا طال إنقاعه يكون عندهم في غاية الطيب، والله سبحانه وتعالى أعلم)[2].

ثم نجده من خلال حديثه عن الذّر والنمل، ينتقل ليتحدث عن الزراعة والمنتجات الزراعية، وما الذي يؤثر على التربة، فما الذي يمنع من أن ينتج فيها لأنواع محددة من المنتجات والمحاصيل (ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شعيركم عجب، وأرزكم عجب، وسمككم عجب، وجداؤكم عجب، وبطكم عجب، ودجاجكم عجب، فلو كانت لكم أعناب! فقالوا: كل أرضٍ كثيرة النمل لا تصلح فيها الأعناب)[3].

ثم ينتقل بنا الجاحظ ليصبح طبيباً نفسياً، يحلّل لنا النفسيّات، ونجده في موضع آخر يشرح ويفسر أثر العامل النفسي في مقاومة الكثير من الأمراض، وإن معظم الأعباء الجسدية يمكن التغلب عليها بشجاعة، فإن لم نكن نعلم بطبيعة المرض سهل ذلك، ويبيّن الأثر السلبي الناتج عن التفكير بهذا المرض، فهو أكبر من المرض

---

(1) (الجاحظ،الحيوان ، ج3 ، ص143-144).

(2) (الجاحظ، الحيوان ، ج3 ، ص144).

(3) (الجاحظ، الحيوان، ج4 ، ص15).

نفسه؛ فيحكي عن أثر السّم في الجسم، وكيف أن رجلاً كان قد عضته حيّة في رأسه، ولم يدري ولم يأبه بذلك، إلا أنه بعد فترة عندما أخبر بالأمر فزع فصرخ صرخةً كانت فيها حياته، فقد كان الفزع والخوف الشديد سبباً في وفاته، ويعلّل ذلك الجاحظ (فالفزع إما أن يكون بوصول السّم إلى المقاتل، وإما أن يكون معيناً له، كتعاون الرجلين على نزع وتد .فهم يجزمون على أن الحية من القواتل البتة ،إلا أن تقتل إذا عضت النائم والمغشي عليه، والطفل الغرير والمجنون الذي لا يعقل، وحتى تجرب عليه الأدوية)[1].

ولما كان الجاحظ صاحب كلام حجاجيّ، نجده يبحث في هذه الموسوعة حجاجات كلامية، فقد خصص جزءاً غير قليل لهذه الحجاجات، فنجده يقول: قال صاحب الديك، وقال صاحب الكلب، وقال صاحب النعامة، ذاكراً محاسن كل حيوان ومساوءه، مفصّلاً فيها، وربما في أكثر المواضع لم يكن هناك اثنان متجادلان، وإنما هي شخصية الجاحظ التي من خلالها يتقمص شخصيات الآخرين، وربما كان من كلامه ليدل بذلك على قدرته الكلامية وسعة علمه، فهو في أحاديث يذم الديك ويمدح الكلب (والديك لا يألف منزله ولا ربعه ،ولا ينازع إلى دجاجته وطروقته، ولا يحن إلى ولده، وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوت لا يثبت وجه صاحبه،... والكلب على ما فيه يعرف وجه صاحبه) [2].

ثم نجده يقول على لسان صاحب الديك يذم الكلب (فهو السرّاق، وصاحب بياتٍ وهو نبّاشُ، وآكل لحوم الناس) [3].

ثم يوقف الجاحظ مركبه، الذي يطوف بنا عبر هذه الموسوعة، ليتوقف في ميدان السياسة، فيتحدث عن سياسة الأقوام، وكيف يمكن أن تساس العامّة، ثم يأتي بحديث مطوّل يبين فيه صفات القائد ليعزّز حديثه بكلامه على صفات القائد التركي، وربما كان ذلك كما ذهب بعض الدارسين إرضاءً للخليفة المعتصم، وتقرباً منه في

---

(1) (الجاحظ،الحيوان، ج 4 ، ص123).

(2) (الجاحظ،الحيوان ، ج 1 ، ص195-196).

(3) (الجاحظ ،الحيوان ،ج1 ، ص193).

أيام خلافته، فالجاحظ نفسه سياسيٌّ في تعامله مع مستجدات العصر، يتأقلم حيث يكون، وفي هذا المجال لا ننسى تلك المقولة- (ثاني اثنين إذ هما في التنور)-.

ويعدد الجاحظ صفات القائد (وقال أبو الحسن: قال نصر بن سيّارٍ الليثي: كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة: لا بد أن تكون فيه عشر خصالٍ من أخلاق الحيوان: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وصبر الكلب على الجراحة، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام)[1].

وقال أيضاً في السياسة: (وبعد فأي رئيسٍ كان خيره محضاً عدم الهيبة. ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحيا في موضع الإحياء، وأعفى في موضع العفو، وعاقب في موضع العقوبة، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالف الرب في تدبيره وظن أن رحمته فوق رحمة ربه.

وقد قالوا:- بعض القتل إحياء للجميع، وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، ولا خير فيمن كان خيره محضاً، وشرٌّ منه من كان شره صرفاً، ولكن اخلط الوعد بالوعيد،والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب)[2].

وقد استغل الجاحظ حديثه عن هذه الحيوانات، فجعله توظيفاً بعيداً عن الحيوان، وهكذا ديدنه في كل موضع من كتابه، فهو مثلاً عندما يتحدث عن الصرع عند الحيوان، يأخذه الحديث -أو قل -هو يأخذ الحديث لتبيان الصرع عند الإنسان، مما أضفى على كتابه وألصق به صفة التوسع والشمول.

ومن الناحية الأدبية يُعدُّ كتابُ الحيوان ديواناً جمع الصفوة المختارة من أشعار العرب والأعراب؛ فقد ضم كثيراً من الأشعار التي تحدثت عن الحيوانات وهو مؤمن بالشعر أشد الإيمان، مبيناً أن العجم كانت تعتمد في التخليد على البنيان أما العرب فعلى الشعر، حتى إنه ليقول (وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو

---

(1) (الجاحظ،الحيوان ، ج2، ص353-354).

(2) (الجاحظ،الحيوان ،ج2، ص87-88).

ديوانها.وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثرة ،على السيد المرغوب إليه والممدوح به وذهبت العجم على أن تقيد مآثرها بالبنيان فبنوا مثل كرد بيداد)[1]، وهو يعتقد أن كل ما ورد في كتب العلماء ورد في أشعار العرب فيقول (وقلّ معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء، والمتكلمين، إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا. ولولا أن يطول الكتاب لذكرت لك أجمع)[2].

ولعله كان متأثراً بما قاله ابن عباس (إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب)[3].

هذا وقد ضمن الجاحظ كتابه الحيوان شعر بشر بن المعتمر، وهي قصائد طوال في ذكر الحيوان وصفاته وخصائصه، وبشرٌ هذا هو أحد أعمدة المعتزلة، ثم إن الجاحظ قام بشرح قصيدة البهراني، إضافةً لمجموعة طرديات لأبي نواس، ثمّ إن الكتاب يحتوي على طائفةٍ من الأمثال العربية، كقوله (يقال: أجرأ من الليث، أجبن من الصفرد، وأصبر على الهوان من الكلب، وأحذر من عقرب، وأزهى من غراب، وأظلم من حية، وأغدر من ذئب، وأشد عداوة من عقعق، وأحمق من حباري، وأهدى من قطاة، وأكذب من فاختة، وألأم من كلب على جيفة، وأجمع من ذرة، وأضل من حمار أهلي، وأعق من ضب، وأبر من هرة، وأنفر من الظليم)[4].

وقد تكلم أبو عثمان أيضاً في النقد، فهو أول من قال باللفظ والمعنى، وتحدث في البيان العربي، فالجاحظ هو مؤسس بيان العربية بل هو أميره.

---

(1) (الجاحظ،**الحيوان** ، ج1 ، ص73).

(2) (الجاحظ،**الحيوان** ، ج3 ، ص268).

(3) (د.أحمد حماد الحسيني، **كتاب الحيوان للجاحظ** ،مجلة تراث الإنسانية، مجلد2 ، ص 221، تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر).

(4) (الجاحظ،**الحيوان** ،ج1 ، ص220– 221).

والجاحظ يعرض في حيوانه شيئاً من مجون عصره، وساد بين طبقات المفكرين، وقد تحدث عن مجتمع العصر العباسي، حيث نجده بين الحين والآخر يعرض طرفةً، أراد بها إخراج القارئ من جدية الدرس، وذلك حرصاً من الجاحظ على تسلية قارئه، أو كما ذكر هو لمعرفته بطبيعة قارئه في ذلك الحين.

ومما أورد الجاحظ في كتابه، وتحدث عنه ملياً على سبيل الشمولية والموسوعية، جملةً غير قليلة من معتقدات العرب وتصوراتهم، التي امتدت ووجدت في العصر العباسي، حيث كان يتناولها ويعرض لها حسب الموضوع الذي كان يدور حوله الكلام، فقد أورد معتقدات خاصة بالعرب، وأخرى خاصة بالأعراب، وبعضها لعامة الناس، كلٌ حسب فكره ومنطقه الذي يسير عليه. ومما ناقشه الجاحظ أمر النيران ومعتقداتهم فيها، حيث قام بذكر تلك النيران كنار التحالف، ونار المسافر، ونار الغول، ونار السعالي وغيرها، ولكل منها تجذراته الخاصة به، ومن تلك المعتقدات التي عرضها الجاحظ أنهم كانوا إذا أصاب إبلهم العُرّ (وهو داءٌ يشبه الجرب) كانوا يكوون السليم منها، معتقدين أنهم بذلك دفعوا عنها السقام، وهم بهذا الصنيع كانوا يسقمون السليم دون أن يبرئوا المصاب. وكانوا أيضاً إذا زادت إبلهم عن الألف كانوا يفقأون عين الفحل.

ومن مواطن شموليته أيضاً، حديثه عن تفاؤل العرب وتشاؤمهم، كتفاؤلهم بالخنفساء، والذباب الكبير. والجاحظ يعرض تلك المعتقدات، ثم يعلق عليها معطياً رأيه في ذلك باحثاً أحيانا في أصل ذلك المعتقد.

ومن جملة ما شمله كتاب الحيوان، حديث الجاحظ مطوّلاً عن المسخ، ذاكراً فيه آراء الفقهاء وبقية الفرق والنِحل، رافضاً هو فكرة المسخ لعدد من الحيوانات كان قد قال بها الآخرون، وقد جعل الجاحظ المسخ مقتصراً على الخنزير والقرد فقط.

ثم نجد الجاحظ يوقف مركبه قليلاً، فيعرج على الاجتماع، ليوضح أهمية البيان فيه، ويتحدث في بناء المجتمعات، ثم يعرض للأسرة، ويتحدث في تربية البنات، ويُعنى بشأن المرأة: بنتاً، وامرأةً، ومرضعةً، ويهتم بشأن الطفل الرضيع وله تنظيرات تربوية، فيحكي عن حاجة الناس بعضهم بعضاً ولا عجب فهو الواضع

الأول لأسس علم الاجتماع قبل ابن خلدون، وتحدث ملياً عما يشيع في هذا المجتمع من عادات وسلوكات سيئة خاطئة، ويعرض شرائح اجتماعية بعضها يصلح لأن يكون قدوة، وبعضها الآخر يعرضه الجاحظ ليبين رداءة الخلق عندهم وشذوذهم، بالرغم من تقدّمهم في طبقات المجتمع، ويفسّر ويعلل بعض الأمراض الاجتماعية كالحسد المتفشي بين الناس، وسبب تحاسدهم، ويبين علاج الحاسدين، كما أنه يبين عقوبته التي مناه الله بها، التي ساغها من خلال رأيه الشخصي وعلاجه الجاحظي، والجاحظ اجتماعيّ بطبعه فقد كان يحاور البحريين، والحوائين، والنجارين، ويصادق الخلفاء ويجالس الوزراء.

ويصف الجاحظ هذه المرسوعية في كتابه، وهذه الثقافة الغزيرة قائلاً: (فرأيت أن جملة الكتاب، وإن كثر عدد ورقه، أنّ ذلك مما ليس يملّ، ويُعتد فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتاباً واحداً، فإنه كُتب كثيرة، وكل مصحفٍ منه فهو أمّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث؛ فهو أبداً مستفيد مستطرف، وبعده يكون جماماً لبعض ولا يزال نشاطه زائداً. ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعله أن يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزاحٍ و فكاهةٍ، إلى سخفٍ وخرافة، ولست أراه سخفاً، إذ استعملت سيرة الحكماء، وآداب العلماء)[1].

وهكذا يمكننا القول في شمولية هذا الكتاب وموسوعيته، أن نَصفَهُ كما وصفه محققه عبد السلام محمد هارون بأنه (معلَمةً واسعة، وصورةً ظاهرةً لثقافة العصر العباسي، المتشعبة الأطراف. فقد حوى الكتاب طائفةً صالحةً من المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد، وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .كما تحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية، وفي خصائص كثير من البلدان، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر، كما

(1) (الجاحظ، الحيوان ،ج1، ص93-94).

تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها، وكما عرض لبعض قضايا التاريخ. وفيه كذلك حديث في الطب والأمراض: أمراض الحيوان والإنسان وبيان لكثير من المفردات الطبية، وتحدث عن العرب والأعراب، وأحوالهم، وعادهم، ومزاعمهم، كما أفاض القول في آي الكتاب العربي وحديث الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، كما فصل بعض مسائل الفقه والدين. والكتاب كذلك ديوان جمع الصفوة المختارة من حر الشعر العربي ونادره. وناهيك باختيار أبي عثمان، وإن أردت الأمثال فهو قد جمع لك منها القدر الكبير، أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر وجدت ما ترتاح إليه نفسك وتطمئن، أمّا فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثراً، وإنها لتطالعك بين الفينة والأخرى متمثلةً فيما يروى من نادرة أو يحكى من قصة) [1].

رابعاً: الواقعية

لقد عاش الجاحظ في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة والنصف الأول من القرن الثالث، فعاش في العصر العباسي تسعين عاماً على أقل تقدير، وعى فكر العصر وثقافته، واقتصاده، ومجتمعه، وعلمه، وعاش الدين فيه وشهد التفاعل الحضاري والتمازج الثقافي، وشهد التغيرات والانقلابات ومفاجئات ذلك العصر، فجاء إنتاجه خصباً غزيراً، وجاء كتاب الحيوان إنتاج سبعين عاماً خلال ذلك العصر؛ لذا تميز هذا الكتاب، وهذا الأدب الذي يحتضنه الحيوان، نتيجةً تمحيص وتحليل، وتعايش للجوانب الفكرية والإنسانية، التي انبثقت من الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، مما يعني أنه اهتم بدراسته ونقده، وقدم نتائج مبنيةً على أسس منطقية وعقلية، ونجده يستقرىء المظاهر المتنوعة في البيئة والمجتمع، ويحللها تحليلاً دقيقاً، ويربط بين جزئياتها؛ ليخرج بصورة واضحة عن الواقع المدروس، فيقدمه تقديماً فنياً جميلاً في قالب أدبي تنسجه لغةٌ جاحظية قادرةٌ بإيحاءاتها، وبريشة الجاحظ المبدعة على رسم الواقع بدقة متناهية بحيث تتكامل عنده الفكرة، وتعطي الصورة واضحة لذلك الواقع بكل ما فيه سلباً أو إيجاباً.

---

[1] (الجاحظ ، الحيوان ،ج 1 ، ص29 ، مقدمة المحقق، محمد عبد السلام هارون.).

لقد تحمّل الجاحظ ما تحمله من حسد الحاسدين، وانتقادات معاصريه، وربما كان أحد أهم الانتقادات التي عانى منها الجاحظ، هو مسلكه وطريقه الأدبي، حيث كان جريئاً في الأدب، رغم أنوف الكارهين والراضين، إذ راح يدخل الواقعية -كما سميت فيما بعد- من أوسع وأفسح أبوابها، ويكوّن صورةً جلية للعصر، ينقل الطبيعة كما هي، أو كما يظن أن ترى بما فيها من بشاعةٍ وابتذال.

لقد رأى الجاحظ من الصور التي خزنتها ذاكرته، وحفظها عقله، وقد سمع من الأقوال ما استهجن، وما أيد؛ فأحب أن ينقل لنا ولغيرنا ولأجيال متتابعة، ما استمتع به من مناظر وما استبشعه أيضا ليشرك قارئه بما استمتع، وبما تألم ثم إشراكه (بحالات تأثرت بها نفسه وهو بذلك ممن ربط ماضي الأمة بمستقبلها ودينها بدنياها، وتعمّد لفرط أمانته، أن يسمع الحسن والقبيح، وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصور أكثر من أن يصور لك ما يقع بصره عليه، فأدب الجاحظ يصور لك في حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه)[1].

ولأن كتاب الحيوان كان معبراً عن مدى التزام مؤلفه بمشكلات عصره، وأنه كان قد عالج موضوعات استقاها من صميم ذلك العصر، ولأنه قدم لقارئه صوراً واضحةً ومفصلة من جميع النواحي أدبية، فكرية، دينية، اجتماعية، علمية، خلقية، سياسية، شعبية؛ استهجن عليه علماء عصره صنيعه، فانتقدوه من أجل ذلك، واتهموه بأنه أزرى بالأدب وأنه حطّ من مكانته، وكأن الأدب خلق ليكون في معزل عن العصر والبيئة، لكن الجاحظ لم يستطع إلا أن يكون لسان عصره كما كان مرآته.

والجاحظ أحياناً يرسم لقارئه واقعاً من خلال روايةٍ تُرْوى له، أو نبأ يُنبأ به، فهو لا يورده كما سمعه بكلمات عابرة، بل أنه يُعمل فكره وعقله في إبرازه أمام القارئ، وترسمه ريشته المبدعة بكلماتٍ موحية، مما يجعلك تعيش الحدث أو الرواية حتى كأنك تتخيل المنظر أمامك، فتصاب بالإعجاب من شدة الخبر، ثم يعود لينسفه من أساسه، فيستخدم الدقة في التعبير والتفصيل؛ لتكون عبارته وسيلةً نقديةً في رد الكثير من الأخبار التي لا يصدقها عقله، فتأتي الواقعية في منهجه خدمةً لأمانته

---

[1] (محمد كرد علي ،**أمراء البيان** ،ج2 ، ص326).

العلمية وخدمةً لموضوعيته، فكما هو حريص على الصدق الفنّي كذلك كان صادقاً موضوعياً، فهو في إحدى الروايات يرسم لنا الحيّة كما خُبّر بذلك والتي تقف كالعود في الرمال في شدة الحر وتنتصب مطوّلاً لتخدع العصفور فيخالها عوداً فتبتلعه من فورها، وبعد هذا المشهد التصويري الذي أدخله مر أمام القارئ، وبكل دقة يعلق الجاحظ بعبارته الناقدة بقوله (وفي هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدي لمثل هذه الحيلة. وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود. وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذي عاد كالجمر، وصلح أن يكون ملةً وموضعاً للخبزة ،ثم أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار، والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب ما في الحيات)[1].

ونجده في أغلب الأحوال ملتزماً بمعطيات الواقع المحسوس، وراغباً عن الأمور الوهمية التي لا علاقة لها بالحقيقة، ولا عجب في ذلك فقد كان الجاحظ (ينطلق في تفكيره من العالم المادي، ولا يأخذ الخرافات والأساطير والغيبيات التي تنسجها المخيّلات المجنحة؛ بل يهاجمها وينتقد القائلين بها)[2].

لقد قرأ الجاحظ كل الأشياء من حوله ،قرأها بحواسه وعقله، يلاحظ ويحكي ويحصي الحركات والسكنات، ويتأمل الأشياء، والألوان، والأشكال، والأجزاء، لا يترك منها موضعاً ولا يُهمل ناحية، فهو دائماً يقظ متنبه لأدق التفاصيل عندما يصف ما يسمع، أو ما يقرأ، أو ما يروى له، لقد اتخذ الجاحظ الواقعية له منهجاً فنياً لكتاباته الأدبية، وتمثلها منهجاً في كتابه الحيوان خاصةً، فقد أخذ يرسم معاصريه، ويصف أخلاقهم وعاداتهم، مبيناً ما لدى الشخصية من نقائص وعيوب ذاتية، يعبر عنها من خلال تصويره لصاحب تلك الشخصية، في بعدها الجسمي وحركتها الخارجية، وأقوالها، فيجعل من هذه الحركات والسكنات التي يدقق في رصدها وسيلةً لسبر أغوار النفس الداخلية؛ فمقدرته على الوصف التفسيري الداخلي يتوصل لها عن طريق تصويره الخارجي ،محاولاً الربط بين الانفعالات الداخلية وانعكاساتها الخارجية، فهو يبرع في تحليل النفسيات، وما يختلج فيها من مشاعر، ونزعات،

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان** ،ج4 ، ص108).

(2) (علي بو ملحم، **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، ص304).

معتمداً الكلمة الموحية في نقله للواقع، فهو يمتلك مقدرةً فنيةً عالية، تتضح من كون هذه السمات والحركات الخارجية التي يصورها الجاحظ بتتبع دقيق مرآةً واضحةً لأطوار هذه النفس؛ فيكشف بذلك عن مدلولات خفية لأمور الحياة التي تتكرر كل يوم. وهذا ما عبر عنه (محمد غنيم هلال) بالصورة الأخلاقية (فالصورة الأخلاقية تختلف عن تصوير الشخصيات في القصص والمسرحيات، بأنها لا تعتمد على الإقناع في مجرى الحدث وتتصارع فيه الشخصيات مع شخصيات أخرى؛ بل تعتمد على حقائق الواقع ومدلولاته المباشرة في شكل لوحة يستدل من معالمها الخارجية على جوانبها النفسية، وفي واقعية تصويرية ذات صلة بالتحليل العلمي للعواطف، والانفعالات، والميول المألوفة)[1].

ومحمد غنيم هلال يشهد للجاحظ بأنه أول من أوجد هذه الصورة الأخلاقية في الأدب العربي، ونمّاها في نواحيها الفنية، فعماده الأول فيها هو تتبعُهُ للواقع الحر من حوله، مستقصياً جميع السمات المعبرة عن كامن النفس، معرضاً صفحاً عمّن ينتقده في هذا النهج الذي غدا سمةً بارزة لأدب الجاحظ.

إذا كان النقد الحديث قد حدّد أصول الواقعية في الأدب، وكان قد عرّفها بأنها الاتجاه بالأدب إلى تصوير الطبقات المختلفة في ضوء ما يحيط بكل طبقةٍ من ظروفٍ وأحوال، والحياد التام، حتى تظهر المشاعر على طبيعتها الأصلية، واتخاذ نظام الحياة وتصرف كل طبقة في المصائر، وإبراز ما في حياة الناس من خير وشر، وتحليل الطباع، والأهواء؛ للوصول إلى نتائج ثابتة خليقة بالقبول والإذعان، فهذا ما وجدناه في أدب الجاحظ قبل أن يضع العصر الحديث له تحديداً وماهيّةً، فالجاحظ هو المقعّد الأول لهذا النهج الأدبي الذي غدا فيما بعد مذهباً أدبياً.

لقد كان من أهم مظاهر واقعيّة الجاحظ الواقعيّة اللغويّة، وذلك لإحاطته بأسرار اللغة، وإدراكه ووعيه الدقيق لقيمة الألفاظ، ومعانيها، ومدلولاتها، حيث إنه لم يلجأ إلى الصور الخياليّة في تعبيراته، حينما يصف أو يصوّر أو إلى عناصر الإثارة عندما يكتب، وإنما كان يعتمد على الحسّ الواقعي ليعطي الحقيقة التي يريد

---

[1] (الشيخ كامل محمد عويضة، **الجاحظ الأديب الفيلسوف**، ص126 ، الطبعة الأولى، 1993م، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان).

إيصالها بألفاظٍ حقيقيةٍ مباشرة، تبرز المعنى واضحاً جلياً دون أن يكد عقله ويجهد نفسه في تلمّس تشبيهات واستعارات وكنايات؛ فهو يدّخر الجهد والكد إلى تحرّي الحقائق العلميّة، التي تتطلب الجهد للتثبّت من صحتها، أما في كتاباته الأدبية فهو حسّي، واقعي، دقيق، وهو في مجال الواقعية اللغوية، يرى أنه لزامٌ على الإنسان أن يتقن اللغة أو يتقن لغته الأم وأن يحسنها ويتقن ألفاظها ومعانيها.

ولأن الجاحظ أمير البيان العربي وزعيمه والمؤسس الأول له؛ يحثُّ على أن يتحدث الشخص لغته، وخاصةً إذا كانت اللغة هي اللغة العربية وكان الشخص عربياً مسلماً؛ فاللغة هي أهم دلائل وسمات الهوية الشخصية، فإذا تبرأ لهجها ضاعت وتاهت أهم دلائل لنته، ثم إن العربية لها خصوصيتها فإن أردت أن تُعد من العلماء، فلا بد أن تحيط بأسرار لغتك والتي هي أدق اللغات، ولعل الجاحظ والحال هكذا ينعى على أولئك الذين تنتعش قلوبهم فرحاً، وتنشرح صدورهم غبطةً، وتبتهج عيونهم، إن هم حفظوا أو جمعوا بعض المصطلحات للغةِ أجنبية، معتزين بأنفسهم مرددين تلك الكلمات، حتى وإن كان جُلُّ لفظها خطأً ولا سيّما إن كان المتحدثون من أهل التخصص، وأهل العلم في لغاتهم، ومن الذوات الذين يعدّون من حماة اللغة، وعندها يقع أولئك بين بين، فلا هم حافظوا على لغتهم وفهموها فهماً دقيقاً، ولا هم تعلموا ما عند الغير تعلماً صحيحاً.

والجاحظ يؤمن بالواقع الذي يقول: إن لكل فئة لغتها، ومعانيها، ومصطلحاتها الخاصة، بها والتي تفهمها فيما بينها الجماعة الواحدة؛ بل وتطرب لها فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي. كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل، والسخيف، والمليح، والحسن، والقبيح، والسمج، والثقيل، والخفيف، وكله عربي وبكلٍ قد تكلموا وبكلٍ قد تمادحوا وتعايبوا، ولذا أعجب الجاحظ بأعرابي جِلْفٍ تكلم على فطرته دون تصنّع أو تكلف، وأحب الصدق فيها واعتزّ بما يلهج به من حروف منسجماً مع نفسه وبيئته لا يدعي ما ليس عنده، أو ما لا يستطيعه، وهو ليس كمن لا يتعلق بالمدنية، إلا بمادية سخيفةٍ، ولا يلتصق من الحضارة إلا بقشورها.

وأبو عثمان يؤمن حقاً بأن لكل جماعة من الناس علماء كانوا أو غيرهم، ثقافة، وألفاظاً، وكلمات، ومعانٍ قريبة من قلوبهم، ملاصقة لواقع حياتهم، يتداولونها فيما بينهم، ولا يجدون اللذة اللفظية ولا يجدون المتعة إلا بها (ولكل قومٍ ألفاظٌ حظيت عندهم. وكذلك كل بليغٍ في الأرض وصاحب كلامٍ منثورٍ، وكل شاعرٍ في الأرض وصاحب كلامٍ موزونٍ؛ فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعينها ليديرها؛ في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ)[1].

فهو في هذا الشأن يتحلى بالواقعية التامة، التي هي برأيه إحدى أهم اللوازم الشخصية للإنسان (وأنا أقول: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما كان اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دخلت على هذا الأمر – الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه– حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته)[2].

ومن مظاهر واقعية الجاحظ في الحيوان، أنك وأنت تقرأ في الكتاب يخيّل إليك أنك تعيش العصر العباسي، وأنك تتجول في تلك البيوتات وتلك الأفنية، وتسمع أصوات الباعة والجزارين والحوائين، وتسامر الأمراء والخلفاء وترى وتستطيع –إن كنت حذقاً– أن ترسم صوراً لبعض الشخصيات التي أسهب الجاحظ وأبدع في تصويرها وإبرازها واضحةً، وهو من أهل الصراحة؛ فهو يريد أن يصف الحياة كما هي دون تغيير ولا تبديل ،فقد كان يُعنى أشد العناية بحكايات عصره ثم تمثيلها تمثيلاً دقيقاً؛ بحيث يُعد هذا العمل من أهم المراجع التي تكشف لنا حقائق ذلك العصر، دون أن يضفي عليها ما يزينها، فهو يعرض الحياة بكل ما فيها من طهر ووزر، ودين وزندقة، ومجون وجد ولهو، وأنت تقرأ الحيوان تجد كل الفئات قد تركت بصماتها وتركت صورها في صفحاتها، فترى المجانين، والمجّان، وأهل الغفلة، من النوك والموسوسين وترى فيها الغلمان والصعاليك، وترى اللصوص ثم

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج 3 ، ص366).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص282).

في الجانب الآخر منه ترى صوراً وتسمع أحاديث للخلفاء، والأمراء، والوزراء، والعلماء، وقوّاد الدولة، وكتابها، وفي كل ذلك نلمس حرصاً شديداً من الجاحظ على الصدق في التصوير والدقة في التعبير عن أحوال أهل عصره، وهكذا يبدو لك الجاحظ وكأنه (بوق عصره ومصره والآلة المحكمة التي أحسنت نقل أصوات أهل جيله، سجّل المفاخر والمعاير، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جملها بروح الحق وسحر الجمال)[1].

والممتع في هذه السمة التي ميّزت أدب الجاحظ، أنه لم يكن أديباً متشائماً، ينقل لك الواقع الكئيب ليلقي بقارئه في بئر سحيقة من اليأس، ويجعلك تعيش في سأمٍ تامٍ لإيجاد حل أو هروب من هذا الواقع المرير؛ فهو لا يسلط عدساته على الصور السوداوية في ذلك العصر فقط، ولم يكن همه أبداً كشف سلبيات ذلك المجتمع ونشر عيوبه والتشهير به على صفحات التاريخ، وما كان هدفه تتبع السقطات والهفوات المشينة، وإنما كان يتناول بيئته، وعصره، وحياته، وثقافته، وتجاربه، تناول الأديب الكامل الموهبة، المرهف الحس والذوق، وقد صاغ من كل ذلك أوصاف الأشخاص، والبيئات، والزمان، والمكان، صوره تصويراً مطابقاً للواقع المشاهد مع البراعة في رسم الحقائق وتناول الأحداث مع العناية باللفظة، والصيغة، والصورة، وكان في ذلك كلّه يضفي على كتابه واقعية، أدبيةً ،مرحةً، متفائلةً، طموحةً، متطلعةً إلى الحياة، فهو يستمد أدبه من حياة أفراد هذا المجتمع بكل ما فيه، فعقله الذكي، وخياله الخصيب، و يراعه البليغ، هي أهم أدواته في تصويره، فالواقعية عنده تلتقط كل ما يسقط عليها من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وصور الحياة.

وفرق بين التفاؤل والصدق في نقل الحقيقة، فالجاحظ واعٍ غير مجامل ولا يداجي أو يحابي الدولة أو غيرها على حساب صدقه الأدبي، والفني، والموضوعي، فيقول في تغير الأحوال وتبدل الكراسي والسلطات (وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان)[2]، مشيراً إلى ما كان من صراع وتدبير بين الأمويين والعباسيين، واصفاً صنيع العباسيين فيما تبقى من آثار بني أمية.

---

(1) (محمد كرد علي، أمراء البيان، مجلد 2 ، ص326).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص73).

ونجده يعرض صورة القُصّاص في المساجد فيرسم جلساتهم ولبسهم والهيبة الكاذبة التي يزعمونها لأنفسهم، الموهمة بأن لديهم علماً جماً، وذلك لجذب المستمعين لهم، عارضاً حيلهم وتفانيهم في ذلك من الصور لأولئك القُصّاص صورة أبي كعب القاص الذي كان يقص في مسجد عُتّاب في البصرة في كل أربعاء[1].

كما استعان الجاحظ بالسمة الواقعية على تحقيق الأمانة العلمية، أو أنه اتخذ هذه السمة لتحقيق الأمانة، نجده أيضاً يمضي في هذا التصوير وهذه الدقة ،ليعرض عليك مواقف ومشاهد تنم عن إعجابه وولعه بأهلها وصنيعهم؛ فهو يعرض صورة إسحاق بن سليمان العباسي والي البصرة قال (لقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السمّاطين والرجال مثولاً كأن على رؤوسهم الطير، ورأيت فرشته وبزته، ثم دخلت عليه وهو معزولٌ، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرفوق، والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل، ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة)[2].

(وهكذا كان أبو عثمان يسير مع الحياة في كل خطاها وكل اتجاهاتها في جميع مجالاتها، وميادين النشاط الإنساني، لأنه أحب الحياة ثم تذوقها ثم عرفها ثم خبرها وجربها، ففهمها ثم وقف منها موقف المصور حيناً، والناقد حيناً والموجه حيناً آخر، فكان بذلك أبلغ الكتاب الواقعيين في العصر القديم)[3].

والجاحظ كان أبداً ضد شطحات الخيال وضد الأوهام التي لا يكون لها أصلاً من الحقيقة والتي لا تعود على أصحابها إلا بالوهم وهم يزخرفون تلك الأوهام فيحلقون بها في إيراد الأخبار، ولا عجب فالجاحظ في كتاب الحيوان عالم أولاً ثم أديب فكيف للعلم أن يتبع الخيال والأوهام في بناء الحقائق العلمية وإيراد الروايات وهو الحريص دوماً على التثبت من صحة المعلومة، والمرشد دوماً لعلماء عصره بأن لا يتبعوا خيالاتهم وأن لا يبنوا على الظن، وهو داعيهم دوماً إلى الاعتماد على

---

(1) (انظر الجاحظ، **الحيوان** ،ج3 ،ص25).

(2) (الجاحظ ، **الحيوان**، ج 1، ص 61-62).

(3) (محمد عبد المنعم الخفاجي، **أبو عثمان الجاحظ** ،ص217).

الحس الواقعي وصياغة المعاني والحقائق بألفاظ حقيقية لا سيما في الجانب العلمي، ومن الصور الواقعية التي اتضحت فيها هذه السمة التي أبدع فيها الجاحظ أيما إبداع يرصد الحركات والسكنات؛ ليرسم من خلالها ومن خلال وصفه الحركات الخارجية ما يدور في خلد النفس وما يختلجها وما يسير داخلها كصورة قاضي البصرة (عبد الله بن سوار) والتي أوردها أكثر من كاتب إعجاباً بقدرة الجاحظ هذا العالم الأديب الفيلسوف فقد ظهرت تلك القوى الجاحظية في التصوير والوصف المحيطة بدقائق الحركات والهيئات حتى لكأننا نرى (عبد الله بن سوار) وهو في هذه المعركة الحامية مع الذباب، ولم يعمل الجاحظ شيئاً إلا أنه صور القاضي كما رآه في أسلوب بديع.

وقد ظهرت واقعية الجاحظ أيضاً في نقل الصراعات التي دارت حول تسمية الأشياء بأسمائها وبصدق دون حرجٍ واستحياء؛ لأنه يعتبر أن ما وجد في الطبيعة وما وضع له اسم في اللغة، إلا ليكون دليلاً عليه فلا مبرر لإغفاله أو الخجل منه، لذا راح الجاحظ يهاجم وينتقد أولئك، مبيناً رأيه في أن الورع لا يكون بعدم ذكر الأشياء بأسمائها، فراح يعبر بحريةٍ تامة، متجاوزاً في وصفه بعض الخطوط، وقد سار على نهجه من بعده رهط غير قليل حتى غدا ذلك منهجاً متبعاً.

والجاحظ ينتقد من لا يسلك منهج الواقعية، ويسخر منهم زاعماً أن هذا ورعٌ متكلف متصنع، ويراه من النوع الذي يبغضه الله سبحانه، لأنه من أمارات النفاق، وهكذا فهم أبو عثمان رسالة الأدب التي تنتظره، وعرف كيف يكون أديباً ملتزماً بقضايا مجتمعه وأمته وعصره بشمولية تامة وبواقعية صادقة؛ فهو لم يكذب على الحقيقة يوماً ولا على واقع الحياة، فقد ترجم كيف يكون للأدب غايةً بالإضافة إلى الناحية الجمالية الأدبية، فالأدب إصلاح للنفوس وإصلاح لأمر العامة والخاصة على حد سواء، لذا نجده في كتابه قد خاطب جميع فئات الشعب وكتب لجميع هذه الفئات كما كتب عنها، وكان واقعياً بكل ما كتب، واقعية المتفائل الطموح، لقد دانت له اللغة

فأخذ يقلّبها حيثما شاء وكيفما شاء (وقد غدت العربية معه نبضاً للحياة، تنطق بكل علم وتعبير عن كل فن)[1].

ولآراء الجاحظ في دراسة الشخصيات من خلال عالم الحيوان القيمة العليا، والحضور في عالم الأدب، فقد كان يستمدها من كل مصدر، ويأخذها من كل خبير متخصص، إضافةً إلى تجاربه الخاصة، ومع هذا فكتاب الحيوان يعد (مدرسةً وقدوةً في تعلم الأسلوب الأدبي، العالي، وارتقاءً بالفطرة السليمة إلى درجة التذوق الطبيعي لحلاوة الأدب، وطلاوة الأسلوب، ورونق العبارة، وبهاء الصورة الواقعية المبهرة بلاغتها وجلالها، كما أن الكتاب يؤصل منهج البحث والكتابة العلمية، متمثلاً في أمانة الجاحظ نسبة الآراء إلى قائليها، ومناقشتها لإيراد الأدلة وسوق البراهين من التجربة، أو من الواقع حيناً ،ومن العقل أو النقل أحيانا أخرى)[2].

وهكذا سار الجاحظ في منهجه العلمي في البحث والتأليف وفق خطةٍ علميةٍ مجديةٍ دقيقة، فقد كان رائداً في شكه المنهجي، وهو الشك الذي أراد به إثبات الحقائق، ولم يسرف فيه إلى حد أنه وضع له حالات ومواضع، وهناك كثيرٌ من المواقف والأوضاع التي لا يرقى لها الشك، لم يخضعها الجاحظ لشكه، فالشك عنده أبداً كان علماً يُتعلم وصولاً بالقارئ والعالم معاً إلى بر اليقين، ثم أنه وبإجماع عدد كبير من العلماء والمؤلفين أول عالم تجريبي جرّب على الحيوان، والإنسان، والنبات، فقد استعمل مواد كيميائية، وبعج بطون الحيوانات، وتجرأ فتذوق بعضها، وابتكر في ذلك، وجاء بكل جديد، فأسقى بعضها خمراً ليرى أثره عليها، وبدّل وغيّر في ظروف التجربة، واعتمد تجارب أساتذته، وسابقيه، وملاحظته، وتجاربه الشخصية، ثم راح يكتب كتاب الحيوان بشمولية، ليغطي معظم وجوه الحياة واتجاهاتها، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وأدبياً ودينياً، يكتب بواقعية مجردة من الوهم والخيال، يفيض بلغته الجاحظية العالم الخارجي، ليلج عبره إلى مكونات

---

(1) (محمد رضا الخضري، **الواقعية في أدب الجاحظ وأسلوبه** ، ص360، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب ، 2004 ، بإشراف الدكتور عبد اللطيف عمران، جامعة دمشق، كلية الآداب).

(2) (ابن منظور، **تهذيب حيوان الجاحظ**، ص114).

النفس وخوالجها، وهو في كتابه كلمَا تطرق لأمــرٍ وشأنٍ من شؤون الحيوان، ذكّره ذلك بما يشبهه لدى الإنسان، فساقه الحديث للتفصيل في ذلك، فهو عندما تحدث عن التعـــاون بين الحيوان، لعلّه أراد أن يقتدي به عالم الإنسان، فالجاحظ دوماً (يلاحظ ويراقب، ويحصي الحركات والسكنات، ويتأمل الألوان والأشياء والأشكال والأجزاء لا يترك فيها موضوعاً ولا يغفل ناحية، وإننا لندهش بدقة إحساسه ويقظته وتنبهه لأتفه التفاصيل، عندما يصف ما يسمع وما يرى من جمـــادٍ أو حيوانٍ أو إنســـانٍ، حتى كأنه آلةٌ فوتوغرافيةٌ، تقـــدم لنا صورةً طـــبق الأصل عن الأشياء)[1].

وهكذا فكل باب في كتابه يفضي إلى باب أوسع منه وأعمـــق، وهذا ما جعل بعض النقاد يأخذ على الجاحظ أن أسلوبـــه استطرادي، حتى أن بعضهم يقول إن الاستطراد في الحيوان قد قلل من قيمته، بل أفقد الكتاب قيمته، حيث كان يخرج الجاحظ من موضوع البحث الرئيسي (الحيوان) إلى موضوعات أُخرى ربما كانت بعيدة عنه، وكذلك هو لا يحافظ أو أُخذ عليه بأنه لا يحافظ على وحدة الموضوع، بل يقحم فيه موضوعات جانبية وغريبة؛ ليغدو كتابه معرضاً متنوع المنتجات مختلف الألوان، كما قد عابوا عليه التكرار في غير ما موضع من كتابه، إلا أن القارئ لكتاب الحيوان إذا ما علم أن الجاحظ كان قد ألف كتابه في السبعينيات من العمر، وهذا التقدم العمري ربما كان سلاحاً ذا حدين، فهو قد يحسب في صالح الكتاب أو قد يحسب عليه، فقد يعني ذلك أن هذا الكتاب جاء زبدة وخلاصة تجارب الرجل، واختمار عقله، وعظم مشاهداته، وغزارة ثقافته، ثم إن هذا العمر قد يحسب على الكتاب، فربما أثر في ترتيبه وتبويبه بعض الشيء، لا سيّما وأن هذا الامتداد الزمني كانت قد صاحبته علل وأمراض الفالج، والنقرس، وانحباس في البيت، فمعاناة في التأليف، لأن الجاحظ رغم ألمه ومرضه الشديد لم يترك الدرس والمطالعة والتأليف، وقد وصف معاناته وكده في تشييد هذا البناء العلمي لعله كان بحسه المرهف وتوقعاته القويّة النافذة يعلم أنه سيكون هناك حاسدون، كما كان مريدون. وأن هناك نقّاد بناء، ونقّاد هدم، فأخذ يعتذر، أي أنه كان يعلم مواطن الضعف قبل أن ينتقد

---

[1] (علي بو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 305).

عليها، وأن ثمة علل ومصاعب منعته من بلوغ الهوى والإرادة في تأليفه؛ ولعل هذا جميعه يغفر لأبي عثمان بعض ما انتقد عليه من تكرار وتشتت في بعض المواضع.

ثم أن الرجل يخفي في هذه الذاكرة العظيمة ثقافة، ودرساً، وعلماً، وأحاديث، وشخصيّات، قرنين من الزمان فلا بد من أن تتفلّت تلك المعلومات، وينساب ذلك المعين، لا بد من تفلت وجريان لذلك النهر الفيّاض (فغزارة هذه المعارف التي خزنتها حافظة أبي عثمان بحيث غدت عبئاً عليها، أراد التخلص منها بنقلها وإفراغها كيفما اتفق، دون فصلٍ بينها ودون تبويب أو تنظيم)[1].

ولأن الجاحظ أشار مليّا إلى معرفته بطبيعة القارئ المتابع لكتابه، أحب أن يجعل في الكتاب فسحةً ذهنيةً، واستراحةً عقليةً، فيه يخرج القارئ بها من ملله وسأمه ويخرجه من جدية وجمود الموضوع العلمي إلى طرفةٍ غريبةٍ وفكاهةٍ مضحكة، لعلّه فيها يلتقط أنفاسه فيستعيد نشاطه وقوته؛ ليعود للقراءة والدرس عالي الهمة، مستعداً لمواجهة هذا التكثيف الغريب، وهذا الحشد الوفير، وعلى أية حال فقد أثرى كتاب الحيوان المكتبة العربية علماً، وأدباً، بما أعقبه من فائض الدراسات يحمله منهج علمي قويم.

1. 4 الطب عند الجاحظ

لقد حظي الطب باهتمام واسع بين المسلمين، فرفعوا من شأنه حتى إنهم عدوه كالفقه، فضرورته وتعلمه جاء كونه ضرورةً مطلقةً البشر، وتعلمه قد يكون فرضاً؛ ففيه حث شديد انطلاقاً من ضرورة الاهتمام بصحة البدن والحفاظ على هذا الجسم الذي أودعه الله سبحانه وتعالى الإنسان لضرورة الحفاظ عليه سليماً، قوياً، معافى حتى يكون الإنسان قادراً على أداء واجباته الموكلة إليه، وعلى القيام بعباداته على أتم وجه، وقد كان صلى الله عليه وسلم يحث على دعوة الأطباء ونقاشهم في تخصصهم، وله –صلى الله عليه وسلم– أحاديث تدل على المعالجة، حيث كان شعاره (ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء) وقوله صلى الله عليه وسلم (أنزل الداء الذي أنزل الدواء) وقد كان –صلى الله عليه وسلم– يصل الأطباء من

---

(1) (علي بو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص303).

معاصريه كالحارث بن كلدة الثقفي، إضافةً إلى آرائه الشريفة في الطب التي كونت فيما بعد ما يسمى بالطب النبوي.

ومع ذلك فإنه من الصعب أن نقول إن الطب قد شاع، أو أنه كان متقدماً إلى درجة كبيرة بالمفهوم العلمي في القرن الأول الهجري، أما حين جاء العصر العباسي حيث اتسعت الفتوحات منذ أيام الأمويين ورأينا كيف شجع الخلفاء العباسيون الانفتاح على العالم آنذاك، مما أدى إلى تغلغل المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة؛ نتيجةً للاتصال المثمر بين الثقافة العربية وثقافات الأمم الأخرى كاليونانية، والهندية، والفارسية؛ مما حدا بالأمة العربية الإسلامية إلى أن تخطو خطى جديدة في حياتها العلمية والعملية، فقد ساهمت عوامل كثيرة أدت إلى أن يصبح الطب في تقدم مستمر وتطور متزايد، حيث كان هناك (عوامل شخصية أثرت في سير العلم ولو لم تحدث لأخرت سيره بعض الزمن كالذي كان من أبى جعفر المنصور، فضعف معدته جعله يهتم بالطب، ويستدعي الأطباء على خلاف مللهم ونحلهم ويصغي إليهم، ويوجههم على البحث في الطب والتأليف فيه، فكان هذا نواة للعلوم العقلية ومثل ذلك اعتقاده في التنجيم أي أن هناك ارتباطاً بين حركة النجوم وأحداث الأرض فاهتم بذلك وبنى عليه بعض أعماله كتخطيط مدينة بغداد واختياره الوقت الملائم لذلك)[1].

وقد أقبل بنو العباس –خلافاً لبني أمية– يتقربون من العجم، فإن عصبيتهم لم تكن عربية خالصة، فقد استعانوا كما نعلم على قيام دولتهم بهؤلاء الأعاجم، مما أدى إلى إشراكهم في السلطة، فكان منهم الوزراء والكتاب وهذا أدى بالعباسيين إلى التشبه بهم في بعض سمات الحكم، فأخذوا بعض عاداتهم في الحكم، وبعض السلوكات الاجتماعية وقام الخلفاء باستقدام الأطباء الأعاجم من (جند ياسبور) في بلاد فارس واتخذوا أطباء بلاط، فقد كان في دار الخلافة أطباؤها الخاصون كأطباء (آل بختيشوع)، وقد تم استقدامهم والاستعانة بهم في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، ومنهم (جورجيس بن بختيشوع) الذي كان رئيس الأطباء في (جند

---

(1) (أحمد أمين، ضحى الإسلام، جـ2 ، ص15 ، بحث في نشأة العلوم في العصر العباسي الأول، الطبعة العاشرة، 1991 ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان).

ياسبور) حيث استقدمه (أبو جعفر المنصور) سنة 148هـ، وأيضا (بختيشوع بن جورجيس) وقد خلف أباه في الطب، وكان قد استقدم في خلافة المهدي ثم الرشيد وبقي حتى وفاته، ثم (جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس) وقد استقدم في خلافة الرشيد لخدمة جعفر بن يحيى البرمكي فأصبح طبيباً خاصاً للرشيد وجماعة من الخلفاء كالأمين والمأمون.

وقد كان لبيت الحكمة الذي أسسه المأمون في بغداد سنة 215 هـ، وما ألحق به من مكتبة عظيمة ومرصد فلكي دورٌ عظيمٌ في جمع الكتب اليونانية المستجلبة من أماكن مختلفة والتي تخص الطب. وقد كان المأمون يرسل في سبيل ذلك البعثات العلمية من العلماء لاستجلاب الكتب الطبية، ونجم عن ذلك حركة ترجمة نشطة، لا سيما في القرن الثالث الهجري، أما في بيت الحكمة فقد كان المترجمون يعنون بعلوم شتى، ولكن عنايتهم بالطب كانت على أشدها، مما أدى إلى أن يستقيم الطب في القرن الثالث الهجري علماً مكتمل العناصر واضح الملامح، مما أدى فيما بعد إلى أن توضع المؤلفات الكبيرة الضخمة في الطب، كمؤلفات (يوحنا بن ماسرجويه) و(علي بن ربن الطبري) و (حنين بن اسحق)، والناظر في تلك المؤلفات يلاحظ ما كان للعلماء اليونانيين (أبقراط وجالينوس) من أثر واضح بين في تلك المؤلفات.

ولا يخفى أيضاً الأثر الهندي في تقدم الطب، إذ استقدم الرشيد أطباء هنوداً مثل الطبيب (منكه الهندي) إلى بغداد لمعالجته – الذي نقل كتاباً من الهندية إلى العربية– وكذلك الطبيب (صالح بن بهلة).

ولما كان الطب العربي قد استقام في النصف الثاني من القرن الثالث، هذه الفترة الناضجة من تاريخ الأمة العلمي، فإن الجاحظ – بما عرف عنه من شمولية وموسوعية في البحث – قد دخل الساحة العلمية من أوسع أبوابها، فكان له من كل فرع من فروع العلم والمعرفة نصيب، كما كان له في كل فرع إسهام واضح جلي، فكانت له آراؤه الطبية، وانتقاداته، ونقاشه مع الأطباء معروف على الصعيد الشعبي والرسمي، فناقش الأطباء في كثيرٍ من الأدواء، وانتقدهم في الكثير من المواقف، وكتب في ذلك كتاباً سمّاه (نقض الطب)، فالعداء الذي كان بينه وبين الأطباء –كما

يزعم – أدى بهم إلى تلفيق قصة في سبب الفالج الذي أصابه، وبالتالي أدى إلى وفاته، كان الهدف منها هو إثبات جهل الجاحظ بالطب، وعدم سماعه وإذعانه لأطباء زمانه، وذلك كما يَروي حيث التقى (يوحنا بن ماسويه) على مائدة، فكان عناداً منه أن جمع بين السمك واللبن وكان يوحنا قد نصحه بغير ذلك فلما أكل فلج فكانت وفاته. وتلك الرواية كانت نقلاً عن أدباء وكتاب في القرن السابع، ونص الرواية كما يلي: (ونقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه قد قال: اجتمعا بغالب الظن على مائدة إسماعيل بن بلبلة الوزير وكان في جملة ما قدم مضيرة بعد سمك فامتنع يوحنا عن الجمع بينهما، وقال: أبو عثمان: أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أننا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا، فقال يوحنا: والله مالي خبرة بالكلام ولكن كل يا أبا عثمان وانظر ما يكون في الغد، وأكل أبو عثمان لدعواه ففلج في ليلته فقال: هذه والله نتيجة للقياس المحال والذي ضلل أبا عثمان اعتقاده أن السمك من طبع اللبن)[1].

وقد تكررت هذه الرواية فيما جاء من مؤلفات العصور التالية، مع التبديل في أسماء الأطباء مثل إسماعيل بن بلبلة، ولا يعرف مدى صحة هذه الرواية، وربما كانت هذه القصة من صنع الأطباء الذين أعلن الجاحظ الخصومة عليهم في كتاب خاص ألفه فيهم (نقض الطب)، كما ألف في الكتّاب وفي الجواري، وفي الغلمان، وفي القيان وغيرها من الموضوعات التي أثراها أدب الجاحظ. وبالرغم من أن هذا الكتاب لم يصل إلينا إلا أن موقف الجاحظ من الأطباء، أو قل من بعض الأطباء يتضح من خلال ما كان يورده في عدة مواضع من كتاب الحيوان و في ذلك يقول: وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين (المأمون) أنه قال: قال لي بختيشوع بن جبرائيل، و سلمويه، وابن ماسويه: ((أن الذباب إذا دلك به موضع لسعة الزنبور سكن)) فلسعتني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن إلا في قدر

---

(1) موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يوسف السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة ، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ،ص253، شرح وتحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت.

الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج. فلم يبقَ في يدي منهم إلا أن يقولوا: كان هذا الزنبور حتفاً قاضياً و لولا هذا العلاج لقتلك. وكذلك هم إذا سقوا دواء فضر، أو قطعوا عرقا فضر، قالوا: أنت مع هذا العلاج الصواب تجد ما تجد! فلولا ذلك العلاج الصواب كنت الساعة في نار جهنم)[1].

إذن كان الجاحظ سيئ الظن بالأطباء وجاهرَ بهذا الرأي كعادته، لا يداهن في مواضع إيراد العلم في كتاباته، ربما أن الأطباء ضاقوا بهذا الرأي ذرعاً؛ فتناولوه بالرد، وممن رد على الجاحظ (أبو بكر بن زكريا الرازي، وأبو علي أحمد بن محمد بن مندوية وكأن هذه الرواية التي تروى عن (ابن بطلان الطبيب) كانت من آثار رد الخصوم على الجاحظ، وربما صنعت انتقاماً للأطباء من الجاحظ الذي كان يحاججهم بالمنطق والمقايسة فأذاعوا هذه القصة ليروا الناس مقدار غنى المنطق والمقايسة)[2].

ولما كان الشعر العربي هو أحد أهم مصادر الجاحظ في حيوانه- وذلك لإيمانه الشديد بموسوعية الشعر العربي وأهميته، فقد أورد الجاحظ في الحيوان كثيراً من الأشعار التي إما أن تصف مرضاً معيناً، أو علاجاً ما، أو تتحدث عن أعراض بعض الأمراض، وقد انتشر بين الناس بعض المبادئ الطبية التي أورد الجاحظ بعضها خلال قصيدة لـــ (الحكم بن عبدل) الذي عاش في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني، فأورد الجاحظ في الحيوان له قصيدتين في هجاء والي الخراج على الكوفة (محمد بن حسان بن سعد) في أيام والي البصرة (عبد الملك بن بشر بن مروان) سنة 102هـــ، ومما يهمنا في هاتين القصيدتين ما أورده ابن عبدل من ذكر (أهرن القس) فقد قال شعراً:

لا تدنين فاك من الأمير ونحه   حتى يداوي ما بأنفك أهرن

وفي هذا الرجوع إلى الطبيب أهرن دلالة على ما نقل وترجم من كتب الطب، وما كان من اهتمام وتطور وحرص على ذلك، فقد تُرجم كتاب (الكنّاش في

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج 5 ، ص 364-365).

(2) طه الحاجري ،الجاحظ حياته وأثاره ، ص 447، 1962، القاهرة.

الطب) وقام بنقله إلى العربية (ابن ماسرجويه) من السريانية، وهو كتاب باليونانية ألفه طبيب اسكندراني كان قد عاش في عهد الرسول- صلى الله عليه و سلم – هو (أهرن القس) وكان (ماسرجويه) قد نقله أثناء حكم (مروان بن الحسن) وهو في ثلاثين مقالة قد أضاف لها المترجم مقالتين، ونقله لنا الجاحظ المتتبع لتطور العلوم العقلية والحاث على التسابق والتسارع في ميادين العلم، وكذلك دلنا ما أورده الجاحظ من شعر وهو هجاء ذلك الشاعر لمحمد بن حسان بنتن الفم، ونصحه بوصفة طبية ناجعة لهذا النتن مركبة من عقاقير طبية كالكراث، والثوم وغير ذلك من المركبات، وهذا يدل على ظهور مفهوم الوصفة الطبية حسب المقاييس والأدوية الطبية في ذلك الزمان.

لقد فصّل الجاحظ فيما أورده من وصفات طبية، وميز بين طب الإنسان، وطب الحيوان، بل أنه تحدث عن طب النساء، وطب الأطفال، والطب النفسي، ونجده أحياناً طبيباً باطنياً، وحيناً نجده يتحدث في الطب الوقائي والذي نادى به الطب الحديث، وقد كان الإسلام قد حث عليه وسبق بذلك الطب الحديث في هذا الأمر، والجاحظ يعرض لنا في حيوانه ما يدل عليه فهو يرى مثلاً أن التربية الجسمية قائمة على التوسط والاعتدال فيقول: (اعمل وأنت مشفق ودع العمل وأنت تحبه).

ويهدف من وراء ذلك إلى الاعتدال والتوسط، وليس إلى المغالاة في الاعتناء بالجسم أو المادة على حساب النفس والروح، إضافةً إلى أن دعوته هذه ما خرجت عما جاء به الدين الحنيف، الذي يحث دائماً في آي القرآن الكريم وحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم- على العناية بالجسم فالمعدة بيت الداء والحمية بيت الدواء؛ لذا كان الحث على أن يقسم المرء معدته إلى ثلاثة أقسام حتى يضمن الاعتدال للقيام بما أوكل إليه من أعمال وطاعات. وهذا هو الطب الوقائي الذي جاء في أدب الجاحظ فقد حث عليه وبين أن للمائدة آداباً فلم ينس الجاحظ تلك الآداب (والجاحظ رجل تربية ومشاهدات فمن خلال تجاربه ومشاهداته رأى ما يؤكد صحة قوله فإن الصحة

والقوة والنشاط والحيوية ليست في كثرة التأكل والمشرب، بل هي على حد قوله إلى قلة الرزء من الطعام، وخفة الزاد والتبلغ باليسير في آداب المائدة)[1].

والجاحظ يدعو إلى التوسط والاعتدال لتحقيق الوقاية، ثم أن له في ذلك غايةً جماليةً يراها الجاحظ فيما يحث عليه أو يعرضه من آداب المائدة، فكما ذكرنا أنه يستغل ويوظف كل ما يشاهده عند عالم الحيوان ويعجب به ليكون عبرة لبني الإنسان (ومتى رأى إنسانٌ عطشانٌ الديك والدجاجة يشربان من الماء، ورأى ذئباً وكلباً يلطعان الماء لطعاً، ذهب عطشه من قبح حسو الديك نغبةً نغبة، ومن لطع الكلب. وإنه ليرى الجمام وهو يشرب الماء وهو ريان، فيشتهي أن يكرع في ذلك الماء معه)[2].

لقد تحدث الجاحظ مطولاً عن طب الحيوان ثم بعدها قاده السياق إلى الحديث عن طب الإنسان، لكن الملاحظ في حديثه عن فائدة بعض الحيوانات، والنباتات في عملية المعالجة الطبية، سيجد أنها لم تأخذ من الجاحظ في أكثر الأحيان جانب الموافقة والتأييد؛ بل هو في كثيرٍ من الوصفات التي يعرضها كان هازئاً، مستنكراً لعرضها، إلا أنه كان دائماً الباحث الأمين في نقله، حريصاً على إيراد ما هو قائم في مجتمعه.

وهو أيضاً لا يتحرج في نقل ذلك الواقع، جريئاً على الألفاظ، فنجده يعرض الوصفة الطبية التي كان البعض يؤمن بجدواها، مرةً يعرضها ساخراً، وأخرى يعرضها متقززاً، وتارة يعرضها ضاحكاً وهكذا....

أما عن حديثه عن علاج الإنسان، فقد بحث في فائدة النباتات لعلاج الكثير من الأمراض، فهو يتحدث عن علاج التين، ويبين كيف أنها شجرة مباركة وتناول التين يُعد من المواد المسهلة بالنسبة للإنسان (فإن كنت إنما تقف من ذكر التين على مقدار طعم يابسه ورطبه، وعلى الافتتان بورقه وأغصانه، والوقود بعيدانه، وأنه نافع لصاحب السل، وهو غذاء قوي ويصلح في مواضع من الدواء، وفي الأضمدة،

---

(1) (محمد سعد القزاز، **الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، ص 153،الطبعة الأولى، 1995، دار الفكر العربي، مصر).

(2) (الجاحظ ، **الحيوان**، جـ 3، ص 148).

وأنه ليس شيء حلو إلا وهو ضار بالأسنان غيره، وإنه عند أهل الكتاب الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام، وبورقها ستر السوءة عند نزول العقوبة، وأن صاحب البواسير يأكله ليزلق عنه الثقل، ويسهل عليه مخرج الزبل)[1].

ونحن إذ نذكر الوصفات الطبية التي يوردها الجاحظ في حيوانه سواء ما كان منها مؤيداً له أو منتقداً، يجب أن لا نتوقع أن كل تلك الوصفات تحتوي مواد كيميائيةً ذات صيغ وتراكيب خاصة، بشكل أقراص أو حقن كما هو الحال اليوم في الطب الحديث، بل إن وصفاته في معظمها مواد معتمدة على المواد الطبيعية وتبين الطب الشعبي والوصفات الشعبية التي تتركب من مواد وأعشاب بسيطة تواكب بداية الطب في بواكير ذلك العلم، إلا أن هذه المواد على بساطتها فإنها إن لم تكن ذات فائدة للمريض، فإنها لن تسبب لجسمه التسمم إن هو تناولها بكميات كبيرة. إضافةً إلى أنه لا يوجد لها أعراض ومضاعفات جانبية، ثم أنها لا تحتاج إلى تدابير خاصة لحفظها حتى لا يعروها التلف والفساد، فهي مواد طبيعية بسيطة تبقى لمدة طويلة محافظة على طبيعتها كالتين، والزيتون، والكمأة وغيرها من المواد الطبيعية.

لقد تحدث الجاحظ في بعض أنواع الطب، ولم يقتصر على نوع معين وذلك لشمولية الكتاب، فنجده مرة طبيباً للعيون، يصف دواء من شأنه أن يقوي شدة البصر، وتارة طبيباً نسائياً يتحدث عن ولادة البكر، وأسباب العقم عند النساء، ويعنى بشأن الأم ورضيعها.

إن الجاحظ نقل لنا في حيوانه، كثيراً من الوصفات والمواقف الطبية التي شاعت في عصره وتناقلها الناس عن طريق بعض القوابل، ومن خلال وصف تلك القوابل للحالات التي تواجهها، فمرةً نجده يتحدث وكأنه يؤيد ما ينقله ويثق به، وتارةً أخرى ينقل هذا الحديث الذي يسمعه مستهجنا له كعادته، ولعل الجاحظ بما تميز به أدبه من واقعية وأمانة أراد أن ينقل كل ما يسمع، أو يروى أمامه، أو يقرأه ويترك للقارئ الحكم في بعض الأحيان، أو عله يريد إعطاء الصورة الحقيقية عن ذلك العصر بما فيه من تقدم وتطور، وكيف كانت تشيع فيه الأخطاء والعقم الفكري بقدر

---

[1] (الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص 208).

ما فيه من نمو وانتشار ثقافي، فهو يتحدث مثلا عن سبب العقم لدى النساء فيصفه من خلال حديث القوابل أن العفن، والقذر، وعدم الاهتمام بنظافة الجسم يسبب كثرة الأولاد، ويقول في الطب النسائي من خلال ما يسميه بعلة كثرة الولد (ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما تكون من العفن واللخن، وعلى قدر كثرة الماء وقلته. فذهبوا إلى أن أرحام الروميات والنصرانيات أكثر لخناً ورطوبةً؛ لأن غسل الفروج بالماء البارد مراراً في اليوم، مما يطيب الأرحام، وينفي اللخن والعفن. ويزعمون أن المرأة إذا كان فرجها نظيفاً وكانت معطرة قوية المنة قل حملها، فإن أفرطت في السمن عادت عاقراً. وسمان الرجال لا يكاد يعتريهم ذلك. وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم: والنخل إذا قويت النخلة وكانت شابةً، وسمن جمارها، صارت عاقراً لا تحمل، فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها)[1].

ثم يتعمق في حديثه زيادةً في التخصص فيتحدث من خلال رواية عن صعوبة الولادة بالنسبة للمرأة البكر معللاً أسباب الصعوبة، وهو من خلال حديثه عن الحيوان يذكر ما يناسبه عند الإنسان، أو ما يخص الإنسان، وكذلك يبين وجوه التشابه بينهما، يقول في رواية عن (أوس بن حجر) تحت عنوان ولادة البكر (وإنما ذكر أوس بن حجر دون غيره، لأن الولاد على البكر أشد، وخروج الولد أعسر، والمخرج أكز وأضيق. ولولا أن البكر أكثر ما تلد أصغر جثةً وألطف جسمًا إلى أن تتسع الرحم بتمطي الأولاد فيها لكان أعسر وأشق)[2].

والجاحظ على هذا يورد عن بعض علماء عصره أنهم يثقون برواية القوابل؛ بحيث أنهن يروين عن علم من قدماء الأطباء، فهذا الطب الشعبي الذي ترويه القوابل، ربما كان له أساس واتصال في الطب القديم، ويدعو إلى عدم التهاون بشأن هذا الطب (وكان محمد بن الجهم يقول لا تتهاونوا في كثير مما تروون من علاج القوابل والعجائز، فإن كثيراً من ذلك إنما وقع إليهن من قدماء الأطباء)[3].

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، جـ 4 ، ص 172).

(2) (الجاحظ ، الحيوان، جـ 5 ، ص 583).

(3) (الجاحظ ، الحيوان، جـ 3 ، ص 322).

ولما كان الجاحظ طبيباً في حيوانه، حريصاً على أن يعرض كل فائدة فقد أظهر ما اعتقده سبباً أو ما سمعه سبباً للعقم، ثم تحدث عن الولادة وصعوبتها. ولإقامة مجتمع سليم، فهو يتحدث عن صحة الأم ورضيعها، وكيف أن الرضيع يتأثر بكل ما تتأثر به الأم، فالجاحظ يبعث رسائله بطرق ذكية، تبتعد عن أسلوب الخطاب والإملاء، فيعرض صوراً، ويسدي حكماً، لعله يريد من قارئه أن يتأسى بما يصلح للتأسي، ويبتعد عن مجال الفساد ويبين الجاحظ كيف يجب أن يكون الحرص في إرضاع الأولاد لما لذلك من أثر عميق على الأطفال، فنجد التنبيهات تكتب على وصفات الأدوية، والتحذيرات بعدم تناول الأم المرضع لأنواع من العلاجات والتي قد تؤثر على أجهزة جسم الطفل، يقول (والمرأة المرضع تشرب النبيذ فيسكر عن لبنها الرضيع، وتشرب دواء المشي فيعتري الرضيع الخلفة. فلذلك يختار الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدواء: في عقلها وفي بدنها)[1].

وهنا يبين حرص العرب على سلامة وصحة أبنائهم، وكيف أنهم كانوا يفكرون ملياً، ويجهدون أنفسهم، ويعانون في سبيل البحث عن امرأة، حكيمة، عاقلة، ذكية لإرضاع أبنائهم؛ لما لذلك من أثر على مستقبل الأبناء فيسقى الطفل الحكمة والقوة ليكون نموه صحيحاً، وجسمه ذا بنية قوية، ومناعة عالية.

ثم ينتقل بنا الجاحظ أو بقارئه إلى ما عنده أو إلى ما جمع العصر العباسي من طب للعيون، فبعد أن يتحدث عن الطب النسائي، نجده يلتفت ليعرض لنا ما قد خزنته ذاكرته الخصبة من وصفات طبية في مجال تقوية البصر، فينقل عن الأطباء المشهورين في عصره كـ (يوحنا و ماسويه و بختيشوع) أن تناول بعض البقول أو المزروعات لها فائدة عظيمة على تقوية البصر، وكذلك دوام النظر إلى الخضرة؛ فهي تقلل من نسبة الإصابة بأمراض العيون فسكان هذه المناطق الخضراء يتمتعون بعيون صحيحة خالية من الأمراض؛ بسبب ملازمتهم لهذه المناطق (وقلت له مرة: قيل لماسارجويه: ما بال الأكرة وسكان البساتين، مع أكلهم الكراث والتمر، وشربهم

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 5 ، ص366).

ماء السواقي على المالح أقل الناس خُتْشاناً وعمياناً وعُمْشاناً وعوراً؟ قال: إني فكرت في ذلك فلم أجد له علة إلا طول وقوع أبصارهم على الخضرة)[1].

ثم يعود بعد أن ينقل عن الأطباء، ليستعين مرةً أخرى بما تقوله القوابل، ويأتي بوصفة أخرى يقول (وكان محمد بن الجهم يقول: لا تتهاونوا في كثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز، فإن كثيراً من ذلك إنما وقع إليهن من قدماء الأطباء؛ كالذبان يلقى في الإثمد ويسحق معه، فيزيد ذلك في نور البصر، ونفاذ النظر، وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافة الجفون)[2].

والجاحظ لم يتردد في مقارعة الأطباء، ونقاشهم، وجدالهم، حتى في أدق أمور تخصصهم، بل نجدهم في كثير من الأحيان يذعنون إلى رأيه. فقد يكون جالساً في جملة من الأطباء يستمع إلى ما يقولون، ثم يعرض رأيه وفكرته حول المقال.

ويتحدث الجاحظ عن الطب وعن الحجامة، ولما لهذه الوسيلة العلاجية من فوائد جمة على الجسم، فهي من الطب النبوي عظيم الفائدة، وللحجامة أوقاتها، وشروطها، والمواضع التي تجب فيها الحجامة؛ فلها وقت محدد من الشهر فهي علاج ناجع لمرضى الضغط، ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يستخدمون الحجامة إذا ما لسع أحدهم عقرب أو غيرها من الحشرات السامة، وكيف أن الحجامة كانت طباً دارجاً عندهم، فبعض الحجّامين كانوا يستغلون الناس لحاجتهم الملحة لهم، فيطلبون منهم لقاء ذلك الشيء الكثير، والجاحظ يصف تلك العملية بدقة وتفصيل (وكانوا إذا شعروا بها – أي لسعة العقرب– دعوا حجّاماً، يحجم ذلك الموضع ويمصه، قبل أن يتفشى فيه السم، ويدخل ذلك المداخل. فكان الحجّام لا يجيئهم حتى يقبض دنانير كثيرة. وإنما كانوا يجودون له بذلك؛ لما كان لصاحبهم في ذلك من الفرج، وما على الحجّام في ذلك من الضرر. وذلك أن وجهه ربما اسمر وأربد، ربما عطلت مقاديم أسنانه، وتوجعت عليه فيلقى من ذلك الجهد، وذلك لما كان يتصل إلى فيه من بخار الدم، ومن ذلك السم المخالط لذلك الدم. ثم إنهم بعد ذلك حشوا أذناب المحاجم بالقطن، فصار القطن لا يمنع قوة المص والجذب، ولم يدعه يصل إلى فم

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 3 ، ص 323).

(2) (الجاحظ، الحيوان، جـ 3 ، ص322).

الحجّام. ثم انهم بعد مدة سنيّات أصابوا نبتة في بعض الشعب، فإذا عالجوا الملسوع بها حسنت حاله)[1].

والجاحظ كما نعلم في أي شأن، دائم الاعتماد على تجاربه الشخصية، إضافةً إلى ما يقرأه، وهو دائم النقل عن أهل عصره ممن يثق بهم، وأية ملاحظة يشعر أنها جديرة بالاهتمام يمكن أن تضيف للقارئ معلومة جديدة وتزيد في ثقافته، يعرضها له بكل أمانة، فقد أخذ على عاتقه أن يزود قارءه بكل ما من شأنه أن يرقى به، وهو متعهد ضمنياً لقارئه بإعطائه زبدة تجاربه، لا يبخل في مجال المعرفة، فينقل أحد المواقف في الحجامة عن (ثمامة بن أشرس) كان قد أخبره به يقول (وحدثني ثمامة قال:-مررت في غِبِ مطر والأرضِ ندية والسماء متغيّمة، والريح شمال، وإذا شيخ أصفر كأنه جرادة، وقد جلس على قارعة الطريق، وحجّام زنجي يحجمه وقد وضع على كاهله وأخدعيه كل محجمة كأنها قعب وقد مص دمه حتى كاد أن يستفرغه، قال فوقفت عليه وقلت يا شيخ: لِمَ تحتجم في هذا البرد قال: لمكان هذا الصفار الذي بي)[2].

وبعد أن يتحدث الجاحظ ملياً عما يخص الإنسان من أمراض بطريقة مباشرة، وبعد أن يصف العديد من الأمراض، ويبين كيفية علاجها بخبراته الشخصية وتجارب الثقات من علماء عصره، يولي وجهه شطر موضوعه الأساسي في كتابه، فيعرض لفوائد الحيوانات وما الضرر الذي ينتج من خلالها على الإنسان، وما الأمراض التي يمكن أن يصاب بها الإنسان نتيجة العديد من الحيوانات ذات الخطر العظيم، فيتعرض لتلك الأمراض عارضاً علاجها ثم مناقشات الأطباء حولها ومحاوراته معهم، فهو مثلاً يتحدث عن سم الأفاعي والعقارب إذا ما عضت إنساناً فيشرح مفصلاً عن كيفية عمل السم في جسم الإنسان، ومدى تحمل الأجسام لذلك السم، ويبين أنواع السموم وفعاليتها، ويذكر الأدوية الشافية من تلك السموم، ويتحدث عن الترياق، ومن أين يؤخذ الترياق، ومتى وكيف يستعمل، ثم يحدد المقدار الواجب

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 4 ، ص220).

(2) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 3 ، ص32).

استعماله، يقول (وبالحية يتداوى لسم الحية ولدغ الأفاعي يؤخذ بالترياق الذي لا يوجد إلا بمتون الأفاعي)[1].

ثم يتحدث الجاحظ في هذا المجال عن علة قتل السم وما الذي يمكن أن يجري داخل الجسم، وكيف يتفاعل السم مع مكونات جسم الملدوغ، فيعود إلى الطب القديم ليعرض رأي اليونان والطب الهندي، ويعرض رأي مجموعة عادية يطلق عليها (ناس)، ويعود به النقاش إلى علماء عصره من أطباء ومفكرين، فيعالج القضية من كافة أطرافها بشمولية تامة، وبعد أن يعرض رأي جميع الأطراف التي يعقد بينها محاورة تظهر شخصية أبي عثمان من خلال نقده وتعليقه الخاص، وفي علة قتل السم يرى الجاحظ أسبابها (والسم يقتل بالكم والكيف والجنس والكم المقدار والكيف الحد والجنس عين الجوهر وذاته، تزعم الهند أن السم إنما يقتل بالغرابة، وإن كل شيء غريب خالط جوف حيوان قتله وقد أبى ذلك ناس فقالوا وما باله يكون غريباً إذ لاقى العصب واللحم، وربما كان عاملاً فيهما جميعاً بل ليس يقتل إلا بالجنس وليس تحس النفس إلا بالجنس، ولو كان الذي يميت جسهما إنما يميته لأنه غريب جاز أيضاً أن يكون الحسّاس، إنما حس لأنه غريب ولو كان هذا جائز لقيل في كل شيء، وقال ابن الجهم لولا أن الذهب المائع والفضة المائعة يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان وإذا جمدا لم يجاوزا مكانهما لكانا من القواتل بالغرابة، وهذا القول دعوة بالنفس والنفس تضيق به، وما قرأت للقدماء في النفس الأجلاد الكثيرة وإنما يستدل ببقاء تلك الكتب على وجهة الدهر إلى يومنا هذا ونسخ الرجال لها أمة بعد أمة، وعمراً بعد عمر، على جهل أكثر الناس بالكلام، والمتكلمين يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك)[2].

ويجلس أبو عثمان بين الأطباء يناقشهم، وكله ثقة بما يدلي به وما يجد في نفسه حرجاً مما يقول فيذعن الأطباء له معترفين بأنه ندّ لهم حتى في أدق أمور تخصصهم، ويكون الجدل على أشده بين الفريقين (وكنت يوما عند أبي عبد الله أحمد بن أبي دوؤاد، وكان عنده سلمويه وابن ماسرجويه وبختوشع بن جبرائيل، قال: هل

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج 4 ، ص249).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج 4 ، ص320).

ينفع الترياق من نهشة أفعى؟ فقال بعضهم: إذا عضت الأفعى فادارِكت قبل أن تتقلب نفع الترياق وإن لم تدرك لم ينفع الترياق لأنهم إذا قللوا من الترياق قتله السم وإذا أكثروا منه قتله الفاضل عن مقدار الحاجة، قلت: فإن ابن العجوز خبرني بأنها ليست تتقلب لمج السم وإفراغه، ولكن الأفعى في نابها عصل وإذا عضت استفرغت إدخال الناب كله وهو أحجن أعصل ففيه مشابه من الشص، فإذا انقلبت كان أسهل لنزعه وسله فأما لصب السم وإفراغه فلا، قال: والله لعله ما قلت، قلت: ما أسرع ما شككت! ثم قلت له: فكأنما وضعوا الترياق، واجتلبوا الأفاعي وظنوا وعزموا على أنه لا ينفع إلا بدرك الأفعى قبل أن تتقلب وكيف صار بعد الانقلاب الترياق لا يكون إلا في إحدى منزلتين إما أن يقتل بكثرته، وإما أن ينفع بقلته، وكأن الترياق لا يكون نفعه إلا بالمنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة، وأقول لك: كيف يكون نفعه إذا كان الترياق جيداً قوياً وعجلاً فسقي المقدار الأوسط قبل أن يبلغ الصميم فيغوص في العمق)[1].

إن الحوار السابق فضلاً عن القيمة العلمية والطبية التي احتواها، فإنه ذو دلالات كبيرة، فذلك الحوار يضم النخبة والفئة من أهل العصر، وهو يفصح عن طبيعة تلك المجالس التي كانت تقام بين يدي القضاة والوزراء والخلفاء، فتضم الأطباء المفكرين، ويفصح عن قيمة تلك المجالس وطبيعة الموضوعات التي تكون مدار الحوار وعن الثقافة الواسعة التي يمتلكها أبو عثمان مما يجعل الأطباء خاضعين لرأيه، فكما كان قادراً على الحجاج والجدال والكلام، فكذلك هو في مصاف العلماء الموسوعيين، كما أن الحوار السابق يدلنا على مدى الحرية التي كان يتمتع بها العصر العباسي وعلماؤه، وعلى الثقافة العالية التي يتمتع بها ذلك العصر، مما يجعل الخاصة والذوات من الولاة والوزراء يولون اهتماماً كبيراً بشأن الطب وغيره من العلوم العقلية التي تعتبر في ذلك الزمان في طور التأسيس والبناء.

إن أبا عثمان كلما جاء للحديث عن أي حيوان من المجموعات الكبيرة التي عالجها من جميع النواحي، فإنه يعرّج على ما قد تحدثه تلك الحيوانات من أمراض

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 4 ،ص223-224).

فيصاب بها الإنسان مبيناً كما هو دائما أعراض المرض، وحال المصاب أثناء الإصابة، وكيفية علاجه وكأنك أمام طبيب دارس لكل تلك الأمور، فداء الكَلَب مثلاً هو أحد الأمراض التي تنتقل إلى الإنسان السليم عند مخالطته للكلاب، أو تعرضه لعضة كلب مصاب بذلك المرض، فينتج بذلك تغيرات لدى الشخص المصاب تخرجه عن طوره وطبيعته، فلا بد من فورية وسرعة علاجه قبل تفاقم المرض والإصابة، والجاحظ يتحدث عن أعراض ذلك المرض (وقال محمد بن أبي حفص وهو أبو عبيد الله بن محمد بن عائشة:- عض رجلاً من بلعنبر كلب كلِّب فأصابه داء الكَلَب، فبال علقاً في صورة الكلاب)[1].

وقال أيضاً (وحدثني أبو الصهباء عن رجال من بني سعد، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عض (سنجير) الكلب الكلِب، فكان يعطش ويطلب الماء بأشد الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد! وهكذا يصيب صاحب تلك العضة)[2].

إذاً ينقل الجاحظ عمن روى أن أعراض داء الكلب والإصابة به هي العطش الشديد مع عدم المقدرة على تناول الماء وشربه إن حضر، ثم أن يبول المصاب علقاً في صورة جراء، إلا أن أبا عثمان لا يقنع بالرواية الواحدة أو الروايتين لا سيما وإن كان من يرويها غير ثقة لديه لتعميم حقيقة معينة، بل إنه يستجمع كل ما من شأنه أن يرد الرواية إلى حقيقة الأمر الذي هو بصدد البحث فيه، يجمع المعلومات من كل مصدر توفر لديه، ومن كل مشاهداته وتجاربه، فهاهو في رد ما سمعه من أعراض الكلب تعود به الذاكرة وهو في السبعينيات من العمر إلى أيام الطفولة وأيام الصبا، حيث الكُتّاب وكان كلب كلِب قد عرض لأحد زملائه في الكتّاب فعضه، إلا أنه لم ير فيه تلك الأعراض والتي تحدث عنها الرواة، والجاحظ يذكر اسم الصبي ومن أي شريحة اجتماعية كان، ويروي قائلاً (وأنا، حفظك الله تعالى، رأيت كلباً مرةً في الحي ونحن في الكتّاب، فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى،

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ، ج 2 ، ص12).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ، ج 2 ، ص13).

فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده، فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه؟ وترك مقلته صحيحة؛ وخرج منه من الدم ما ظننت أن لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب، ثم خيط ذلك الموضع؛ ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتّاب، وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيط، فلم ينبح إلى أن برئ، ولا هرّ، ولا دعا بماء، حتى إذا رآه صاح: ردوه !و لا بال جرواً ولا علقاً، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير. ولم أجد أحداً من تلك المشايخ؛ يشك أنهم لم يروا كلباً قط أكلب ولا أفسد طبعاً منه. فهذا الذي عاينت. وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي كتبته لك)[1].

في هذه القصة العتيقة ينفي الجاحظ جميع ما روي له من رواة عصره، وهنا كان قد حدد المكان والزمان الذي حدثت فيه القصة مع إشارته الدقيقة لموضع عضة الكلب والجرح الذي أصاب الصبي، مشيراً إلى كمية الدم التي كانت قد انهمرت من الصبي، راسماً على وجه قارئه المتابع لدقة الأحداث علامات العجب والذهول والاستغراب والاستفهام، باعثاً الشفقة والتعاطف مع ذلك الصبي، فيعود بطريقته الذكية وأسلوبه الواقعي لينتشل قارئه وبما توحي كلماته، وترصد لغته من حركات وسكنات، ليعلن شفاء الصبي وعودته معافى دون أدنى عرض من تلك الأعراض، فلم تثنه تلك الأعوام الطوال وتلك العلل التي تكالبت على جسده على أن يبقى الباحث الأمين المتحري للحقيقة، وهو بذكائه أيضاً يضع أمامك الحقائق فاختر أنت أيها القارئ مع أيها ستكون وبأيها ستأخذ.

والجاحظ لا يترك قارئه أبداً مبتور المعرفة، فيبقى يدور في فلك موضوعه الذي نذر نفسه للبحث فيه (داء الكلب) فيقوم بمعالجته من جميع نواحيه وأطرافه، فيحكي كيف كانوا يهتمون بدواء المرض ويبحثون بجدية وعزم عن ذلك الدواء منذ القدم (وذكر مسلمة بن محارب، وعلي بن محمد عن رجاله، أن زياداً كتب دواء الكلب، وعلقه على باب المسجد الأعظم، ليعرفه جميع الناس)[2].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، جـ 2 ، ص14).

(2) (الجاحظ، الحيوان ، جـ 2 ، ص13).

ويبدو أن هذا الداء كان منتشراً إلى درجة كبيرة، حتى أن القوم قد أعيوا به وبحثوا جادين عن أدوائه، وسارعوا في نشرها على هيئة إعلانات ليتسنى لجميع الناس الاطلاع عليها.

ويعود الجاحظ إلى مخزونه من التراث العربي، حيث أن كتاب الحيوان وإن كان قد أنتج في العصر العباسي، فهو كفيل بالغوص مع قارئه إلى عهود سحيقة ومتجذرة في أعماق التاريخ، مما ينم عن ثقافة بعيدة الغور لصاحب هذه الموسوعة، فيطوف الجاحظ بقارئه عبر أزمنة ليصوب ما كان قد شاع وتناقله الناس على أنه حقائق ومسلمات فانتشرت وشاعت وتفشت بين صفوف العامة على حد تعبير الجاحظ، فثقته بهذه الطبقة من المجتمع (العامة) جد ضعيفة، فنجده يسفههم في غير موضع من كتابه بأنهم كانوا يقبلون على التصديق أو التكذيب دون حالة وسط بينهما، والجاحظ في حال عوده إلى التراث يصوب ما كان قد تناقله الناس من أن دماء الملوك مثلاً والأشراف تشفي من داء الكلب، ناسجين على زعمهم و مقولتهم شعراً، مفتخرين بهذه المقولة، ويبين أن ذلك الزعم كان قد فسر في العصر العباسي، على غير ذلك وأن المقصود بالدم الكريم هو الثأر، لا سيما وأن الثأر من أهم ما كان يؤمن به القوم ويحرصون أشد الحرص على تنفيذه والقيام به، وإن كلفهم ذلك حروباً طويلة وتاريخ الأمة حافل بالبطولات الثأرية التي كلفتهم جماجم وأجساداً، وجعلت بطاحهم تسيل دماءً، فالدم يقصد به كما فسره الجاحظ هو ذلك الدم المطارد فإذا كلب العربي كان كلبه هو غيظه للمطالبة بثأره، فإذا ما شمر عن ساعديه وعد عدته وأدرك ثأره، كان ذلك هو الشفاء الحقيقي له وهو حرص الشريف الكريم على الأخذ بثأره لروح المقتول العطشى الصادئة والتي تتمثل لهم وتتجسد بطير كان يحوم حول الربع، ليذكرهم بما قد تناسوه قليلاً، وهذا الاعتقاد كانت تفيض به الأشعار العربية أو أشعار العرب والأعراب، فلا تهدأ تلك الروح، ولا يقنع صاحبها إلا إذا تناشد قومه، وتناخوا لغسل ثأرهم، وكانوا قد قلبوا الثياب، وارتدوا إحدى فردتي الحذاء دليلاً على أنهم أصحاب ثأر لا بد يوماً من أخذه، وليس هناك دم في الحقيقة يشرب ولا كلب في الواقع يصيبهم.

ويختم الجاحظ حديثه عن هذا المرض، بأن يروي ويعوده للتراث أيضاً حرص أسر عربية بأسرها على المهنة، والمحافظة على أن تبقى داخل الأسرة تتوارثها الأجيال المتعاقبة، كل يسلم راية المهنة لمن سيأتي بعده كسمة مميزة لتلك الأسرة، فأسرة عربية تتوارث دواء الكلب، وتجّد في علاجه لتكون تلك مهنة الأسرة، وربما عرفت الأسرة باسمها على مر العصور.

يتناول الجاحظ في معرض حديثه الطبي -الذي يزخر به الحيوان- يتناول الحيوانات ومنافعها وحتى ما نظنه خالياً من الفوائد، وعظيم الضرر على حياة الإنسان، يجد له أبو عثمان بعلمه نفعاً ويقنع القارئ بعظم فائدة ذلك الحيوان، فهو دائم السعي لأن يضع أمامنا حقيقة حتمية وهي أن الله لم يخلق ذلك الحيوان أو المخلوق لضرر الإنسان، بل هو يفهمنا في أدنى مستوى من الفهم للحكمة الإلهية من ايجاد المخلوقات والتي نظن فيها الضرر الخالص وذلك يتحمل الإنسان أذاها وضررها، فينال لقاء ذلك الأجر العظيم مع دعوة الجاحظ بأن لا يحقر الإنسان شيئاً من هذه المخلوقات وإن صغر حجمها، فإن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة، ويكرر حديثه وقوله بنفع تلك الحيوانات وذلك باتخاذها وسائل علاجية للإنسان، فتجد في العديد من المواضع وتحت عناوين متعددة كقوله نفع العقرب، نفع الحيات، نفع الذباب، وغيرها، ويتحدث عن نفع العقرب السامة، ونحن نتخيل أن العقرب السامة لا نفع لها، ولكن أبا عثمان ينقل عن الأطباء وعن حنين بن إسحاق، أن رماد العقرب علاج نافذ لتفتيت الحصى، ثم أنه لا يترك أعراضاً جانبية، فهو يشفي العضو المصاب دون التأثير على باقي الأعضاء السليمة (والعقرب تجعل في جوف فخار مشدود الرأس مطين الجوانب، ثم يوضع الفخار في تنور، فإذا صارت العقرب رماداً سقي من ذلك الرماد من به الحصاة مقدار نصف دانق. وقال حنين: وقد يسقى منها الدانق وأكثر، فيفتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الأعضاء والأخلاط. وخير الدواء ما قصد إلى العضو السقيم، وسلمت عليه الأعضاء الصحيحة)[1]، ولعل

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 5 ، ص354).

شي العقرب في التنور وفي الفخارة يجعل المادة السامة فيها تتطاير مما يجعلها صالحة لتفتيت الحصى.

وللعقرب نفع آخر، وذلك أن توضع العقرب في الدهن، ثم إذا ما اجتذب الدهن قواه باتت صالحة لإزالة الكثير من الأورام الجسام (وتلقى العقرب في الدهن وتترك فيه، حتى يأخذ الدهن منها ويمتص ويجتذب قواه كلها بعد الموت، فيكون ذلك الدهن يفرق الأورام الغلاظ. وقد عرف ذلك حنين) [1].

ثم يشير إلى فائدة أخرى للعقارب، إضافة إلى أنها تقوم بلسع الحيات فتميتها وتقوم أنواع منها بلسع عقارب أخرى فتقضي بذلك على كميات من السموم الناتجة عبرها (فهي من هذا الوجه تكفي الناس مؤونة عظيمة) [2].

وربما أصيب الإنسان ببعض الأمراض والتي توصف لعظمها وشدة ألمها ولصعوبة علاجها كحيوانات ضخمة عظيمة، كالورم الذي يصيب قدم الإنسان (وقد يعرض بقدم الإنسان ورم جاسٍ حتى تعظم له قدمه وساقه، وصاحبه لا يبرأ منه، ويسمى ذلك الورم داء الفيل)[3].

ويجد الجاحظ خلال تجواله في عالم الطب والأطباء ما هو ممكن أن يصلح لعلاج ألم المعدة، وعلاج بعض الأمراض كالصرع في الكثير من الحيوانات، فسنُّ فرس الماء يصلح لأن تداوى به آلام المعدة، ويقول (قالوا: وإذا أصابوا من هذه الخيل فلواً صغيراً ربوه مع نسائهم وصبيانهم في البيوت، ولم يزد على هذا الكلام شيئاً. قال: وفي سن من أسنانه شفاء من وجع المعدة) [4].

كما أن سن هذه الفرس كما أورد الجاحظ يكون علاجاً لما قد يصيب من التهابات معوية نتيجة تناول أغذية فاسدة أو غير مطهوة، كما روي له عن الناس من أهل النوبة والحبشة (قال: والنوبة وناس من الحبشة يأكلون الحيتان نيةً بغير نار،

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 5 ، ص354).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 5 ، ص354).

(3) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 7 ، ص82).

(4) (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 7 ، ص251)

ويشربون الماء العكر فيمرضون، فإذا علقوا سن هذه الفرس أفاقوا، قال: وأعفاج هذا الفرس تبرئ من الجنون والصرع الذي يعتري مع الأهلة)[1].

ويستفاد من العصافير لعلاج الفالج، لكن الجاحظ يروي هذا الخبر لعله غير مقتنع به فهو يرويه مع عدم تأكيده له، فلو كان موقناً بنفعه لكان قد اخذ به وتعالج، لا سيما أنه كان قد أصيب بالفالج في طور إعداده لهذا الكتاب، فلو كان قد جربه بنفسه لأشار إلى ذلك كعادته عندما يعزز قوله بتجاربه الشخصية، هذا مع وجود رواية تدل على انه كان شديد البحث عن علاج لمرض الفالج والنقرس، اللذين كانا قد اجتمعا عليه، وما يزيد قناعتنا بأن الجاحظ كان راغباً عن هذا الدواء قليل الميل إليه هو وجود كلمة العامة في تلك الوصفة، لكن أمانة الجاحظ العلمية وبعده في النقل عن هواه، يجعله ينقل لنا ما يسمع أو ما يقرأ، وإذا ما أراد أن يعلق أشعر قارئه بحدة ذكائه، ومن خلال إشارات توحي بسخف ما يروى أو بقلة قيمته العلمية، كما أنه كان الكاتب الصريح الذي ينقل لنا الحياة بوجهيها: وجهها الراقي الذي يضم مجالس الخلفاء العلمية واهتمامهم الثقافي، ثم وجهها الباهت الذي ينصت للخرافة بل ويشنف آذانه لسخف القول يقول: (وللعصافير طباهجات وقلايا تدعى العصافيرية، ولها حشاوى يطعمها العوام المفلوج. وهي مخوفة على المعدة والأمعاء)[2].

ويروى عن العوام أيضاً ومن أعاجيب ما يتناقلون، أن عقرباً لسعت أفعى، إلا أنها عندما لسعت امرأةً حاملاً ماتت العقرب، كما تروي العوام أن رجلاً مفلوجاً كانت قد لسعته عقرب فكانت له شفاء، فما بال أبي عثمان يغفل عن عقارب البصرة في حين أنه في أمس الحاجة للسعتها؟!

وكما تحدث الجاحظ عن بعض الأمراض التي تصيب الإنسان فحكى أمراضاً تصيب الإنسان لأسباب متباينة، كأن تكون سبب الإصابة بتلك الأمراض عبر مجموعة من الحيوانات، وقد جدّ الجاحظ في إيجاد ما توفر في بيئته من وصفات طبية وأدوية، ومما قرأه أو سمع به أو ناقش به الأطباء، فكما رأينا كانت نقاشات

---

[1] (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 7 ، ص251).

[2] (الجاحظ ، الحيوان ، جـ 5 ، ص222).

تدور بين الجاحظ وبين مجموعة من الأطباء المعروفين آنذاك، فقد كانت ثمة مسائل وجدل وحوارات طويلة تضمها مجالس الخلفاء والوزراء.

ويتحدث الجاحظ عن بعض الأمراض التي تصيب الحيوان التي يجتهد أبو عثمان أيضاً في وصف الأدواء لها، فهو حريص على معالجة الحيوان وتوفير البيئة السليمة الصحية المريحة والأجواء المناسبة والأطعمة المفيدة، فهو منذ القدم كان من دعاة الرفق بالحيوان، ويتحدث عن علاج الكلب في بعض الحالات المرضية التي كانت تعتريه، فأهمية الكلب كبيرة، لا سيما في كتاب الحيوان، وهي لا تخفى على قارئه، فهو أحد أهم المحاور الأساسية التي بنى الجاحظ عليها كتابه في حجاجه مبيناً أهمية الكلب وما يقابلها لدى الديك، مخصصاً الجزء الأول والثاني من الكتاب للحديث عن خصائص هذين الحيوانين بشمولية تامة.

وقد فسر الكثير من النقاد والدارسين ذلك الاهتمام، وبأن الكلب كان بما فيه من صفات يمثُّل العرب، بينما مثّل الديك الفرس، والكلب كما يقول أبو عثمان يعرف وجه صاحبه أما الديك فلا. وفي حديثه عن علاج الكلب يعرض وصفة طبية يعالج بها الكلاب إذا أصابها ألم البطن، أو كان بها شيء من الديدان، فيصف لها بعض الأدوية، إضافةً إلى ما كان من حقن تعطى للكلاب لتساعدها على الشفاء من الحفا – وهو مرض يحدث في قدمي الكلب – (ومن خير شيءٍ يداوى به الكلب من وجع البطن والديدان، أن يطعم قطعة إلية وصوف شاةٍ معجون بسمن البقر، فإنه يلقي كل دودٍ وقذرٍ في بطنه. وخير ما يعالج به الحفا يمسح على يديه ورجليه القطران. وذكر عن خزيمة بن طرخان الأسدي، من أهل همذان، أنه قال: ليس من علاج الكلب خير من أن يحقن)[1].

ويبين الجاحظ كيف أن الكلاب في الكثير من الأحيان تقوم بمعالجة نفسها، فتعرف ما يضرها من الأطعمة والأعشاب وما ينفعها، بل وتسارع للبحث عن علاجها بنفسها وهذه الرواية كان الجاحظ قد نقلها عن أرسطو، وهو من ينعته بصاحب المنطق فقد كان نقله عنه نقل واعٍ ناضج، وكان في الكثير من المواضيع

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، جـ 2 ، ص49)

يحاججه في موضع الحجاج وينتقده في موضع النقد، ويصحح له في الكثير من المواضع ومراراً عديدة نجده يعتذر عنه واضعاً بالحسبان تلك الأعوام الطوال بينه وبين أرسطو، فلا بد أن الزمن كان له تبعاته، ولا بد أن المترجمين كان لهم دور في نقل بعض الأخطاء التي ربما لم تفت أو لم يقع بها رجل كصاحب المنطق (وزعم صاحب المنطق أن الكلاب إذا كان في أجوافها دود أكلت سنبل القمح فتبرأ، وزعم أن الكلاب تمرض فتأتي حشيشةً تعرفها بعينها، فتأكل منها فتبرأ)[1].

وللحمام أهمية كبيرة في زمن الجاحظ، فإن له قيمة اقتصادية عالية، فقد كان القوم يتاجرون به، وتدر عليه الأموال الطائلة، لا سيما إن كان ذلك الحمام من حمام واسط فإن الباعة كانوا يتعززون ويتدللون في بيعه، طالبين لقاءه الأموال الكثيرة، وربما كان لحمام واسط ميزة تجعله يحظى بهذه المكانة، ويتفوق على سائر حمام العراق، إضافةً إلى ما كان يشكله الحمام من وسيلة رفاه وتسلية تحمل قيمة اجتماعية، والحمام يعد من المخلوقات الرقيقة التي تحتاج إلى عناية فائقة، فهي توصف بالرقة سواء في تركيبها الجسمي أو في طريقة تعاملها مع بعضها البعض، أي تعامل أسر الحمام مع بعضها، وكثيراً ما عرض الجاحظ أمثلة من عالم الحمام كان قصده الأول منها إصلاح ذات البين بين الأزواج الذين قست قلوبهم وفارقت الألفة وحسن العشرة بيوتهم.

وكثيراً ما عرض الجاحظ من عالم الحمام كيف أن الرجل يبدأ بتعهد بيته منذ أن يعرف أن زوجته ستصبح أماً، فيبدأ بتهيئة البيت المناسب والعش النظيف الهانئ، ثم أن الجاحظ يعدد الكثير من الأمراض التي يمكن أن تهاجم ذلك الطائر الرقيق واصفاً عدداً من الأدواء، التي تحتاج إلى عناية فائقة في علاجها، فقد يصاب الحمام بعدد من الأمراض كمرض الخنان والسّل، كما أن الحرارة الزائدة عن الحد المطلوب قد تؤثر عليه، وكذلك البرودة الزائدة وكذلك السل والعطاش، وقد يهاجمه القمل إذا ما اعتني بمكان إقامته وبيته ونظفت أعشاشه، وللحمام حبوب معينة يحبذ أن تكون طعاماً خاصاً له، فهو يحتاج إلى مكان نظيف بارد نسبياً كما يحتاج إلى

---

[1] (الجاحظ، الحيوان، جـ 2 ، ص50)

الحبوب الباردة كالشعير المنخول والعدس، كذلك يوصف له القرطم لما له من مزية فهو بمنزلة اللحم للإنسان؛ لما فيه من قوة الدسم.

أما بالنسبة لعلاج كل مرض (فمما يعالج به الكباد: الزعفران وسكر الطبرزذ، وماء الهندبا، يجعل في سكرّجة، ثم يوجر ذلك أو يمج في حلقه مجاً، وهو على الريق. ومما يعالج به الخنان أن يلين لسانه يوماً أو يومين بدهن البنفسج، ثم بالرماد والملح، يدلك بها حتى تنسلخ الجلدة العليا التي غشيت لسانه. ثم يطلى بعسلٍ ودهن ورد، حتى يبرأ. ومما يعالج به السل أن يطعم الماش المقشور، ويمج في حلقه من اللبن الحليب، ويقطع من وظيفيه عرقان ظاهران في أسفل ذلك، مما يلي المفصل من باطن. ومما يعالج به القمل أن يطلى أصول ريشه بالزيبق المحلل بدهن البنفسج، يفعل به ذلك مرات حتى يسقط قمله؛ ويكنس مكانه الذي يكون فيه كنساً نظيفاً)[1].

ومن الحيوانات التي حرص الجاحظ على أن يخصها بأهمية كبيرة، حيوان ضخم الجسم، عالي القوة، تنافس الأمراء والخلفاء في اقتنائه، فقد كان أمير المؤمنين المنصور أكثر خلفاء المسلمين اقتناء له وهو الفيل، حيث كان لديه أربعون فيلاً (قالوا: ولم يجتمع لأحدٍ من ملوك المسلمين من الفيلة ما اجتمع عند أمير المؤمنين المنصور، اجتمع عنده أربعون فيلاً، فيها عشرون فحلاً)[2].

وذلك أنهم كانوا يعدون الفيل من أشرف مراكب الملوك وأكثرها تصرفاً، وربما أورث الملك المزيد من العزة والهيبة، ونحن نعرف في سالف تراثنا أن الخيل هي التي تكون عنوان الهيبة والرفعة والرفاه المادي والثراء، ويقاس بها المدى الذي وصل له الخليفة أو الأمير من النفوذ والرفاه، أما الفيلة فهي نتيجة مؤكدة لاختلاط العرب المسلمين بغيرهم من الأمم كالأمة الهندية، وما حصل من تمازج ثقافي وتقارب في العادات والتقاليد، فعدت مركب الخليفة من الفيلة بالرغم من وجود إشارات إلى الفيلة في تاريخنا الإسلامي، وهي موجودة منذ عهد أبرهة الأشرم، وهي إشارات تحمل العداء، والهدم والتخريب، فأبى الله إلا أن يبطل فعلها، ويبين

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 3 ، ص273-274).

(2) (الجاحظ، الحيوان ، ج 7، ص182).

الجاحظ كيفية علاجها إذا ما تعرضت للتعب والإجهاد (قال: وربما ابتلعت منه الحجارة. قال: وإذا أصابها استطلاق سُقيت الماء الحار وعلفت الحشيش المعسول. وإذا أتعبوها اعتراها السهر، فتعالج عند ذلك بأن تدلك أكتافها بزيتٍ وماءٍ حار. قال: وبعضها يشرب الزيت شرباً ذريعاً)[1].

وللجاحظ حديث مطول مع الأطباء وجلسات ومناقشات وجدل، حتى أن ذلك وصل إلى حد العداء بين الفريقين، ومما وجد في كتاب الحيوان أن الجاحظ يعرض في مواضع كثيرة مجموعة من الأدواء والعلاجات التي تعتمد على فضلات الحيوانات، التي هي بالطبع ضارة وغير طاهرة، ولا أعرف هل أن أبا عثمان يعرض هذه المواد بقصد التشهير بالأطباء، والاستهزاء بهم؟ أم أن فيها نفعاً وعلاجاً للمرض على سبيل الحقيقة؟ أم أنه أراد من وراء عرضها وتفصيلها عرض شريحة اجتماعية كانت موغلة في الخرافات والسذاجة إلى حد بعيد، أو شريحة من الناس يتعاطون القاذورات من المواد لأن فيها شفاؤهم، ونحن نقرأ كتاب الحيوان ونطلع على ما يعرض أبو عثمان من هذه المواد لوجدنا من يساعد في تحليل تلك المواد، والتعرف على مكوناتها، لاستطعنا الحصول على نتائج جادة في هذا المجال وإذا كان الجاحظ عرضها رغبة منه في أن يكون نقله سليماً فهل يوجد فعلاً من يعتمد على مثل هذه المواد التي يقذفها الجسم تخلصا من سمومها التي قد تهدم الجسم، يقول الجاحظ في مثل ذلك (ومن أكرم سمادهم الأبعار كلها والأخثاء إذا جفت. وعلى أنهم يعالجون بالعذرة وبُخرء الكلب، من الذبحة والخانوق وفي أقصى مواضع النقزز وهو أقصى الحلق، ومواضع اللهاة، ويضعونها على مواضع الشوكة، ويعالجون بها عيون الدواب)[2].

وقد توضع مثل هذه المواد في أماكن حساسة من الجسم ربما أثرت عليها سلباً وسببت التلف في كافة أجهزة الجسم، فأي شيء في الجسم أشد حساسية من العين؟ (ويقول الأطباء: أن خرء الضب صالح للبياض الذي يصير في العين)[3].

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج 7 ، ص227).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**، جـ 1 ، ص245).

(3) (الجاحظ، **الحيوان**، جـ 6، ص147).

والأعراب ربما تداووا به من وجع الظهر، ومن غريب ما ورد في الحيوان أيضاً في دواء آخر لمرض الحمى والذبحة، ويقول نقلاً عن الأطباء أيضاً (وزعم الأطباء أن من أجود أدوية الذبحة والخانوق أن ينفح في حلق من كان ذلك به، ما جفّ من رجيع الكلاب. وأجود ذلك أن يكون يتغرغر به وربما طلوه على جلد المحموم الحديد الحمّى)[1].

والفأرة سامة ونحن نعرف أن من عضته فأرة، فلا بد له من أخذ الحقن والمضادات الحيوية لمنع انتشار السم أو إبطال فعله، فكيف يذهب أطباء الجاحظ إلى شرب خرء الفأرة لعلاج الحصر أو الأسر.

(وزعمت الأطباء أن خرء الفأر يسقاه صاحب الأسر فيطلق عن بوله، والأسر هو حصر البول ولكن لا يسمى بذلك. ويصيب الصبي الحصر فيحتمل من خرء الفأر فيطلق عنه. فقد تهيأ في خرء الفأر دواءان لداءين قاتلين مجهزين)[2].

ثم يعود الجاحظ ليصف للنساء علاجاً، إلا أن الوصفة هذه المرة أيضاً ستكون ضمن هذه المواد، والدواء هنا يستخدمه كأحد موانع الحمل (قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد أن يخلط به شيء من عسل فإنها لا تحبل أبداً. قالوا: ومما يؤكد ذلك أنك لو علقت على شجرة من نجوه شيئاً، أن تلك الشجرة لا تحمل في تلك السنة)[3].

ثم يلخص الجاحظ في صفحة أو لائحة، مجموعة من الأدوية التي تحتوي على التركيبة ذاتها، يقول تحت عنوان ضروب من الدواء (وليس هذا بعجيب؛ لأنهم يزعمون أن صاحب الحصاة إذا أخذ روث الحمار حين يروثه حاراً فعصره وشرب ماءه أنه كثيراً ما يبول تلك الحصاة. وفي ماء روث الحمار أيضاً دواء للضرس المأكول)[4].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، جـ 2 ، ص205).

(2) (الجاحظ، الحيوان، جـ 5 ، ص250-251).

(3) (الجاحظ، الحيوان، جـ 7، ص87-88).

(4) (الجاحظ، الحيوان، جـ 7، ص88).

ثم أنهم يصرفون أدوية لعمل ما يسمى بالرجيم وذلك لتخفيف السمنة ومنع الشهية، (وقال الأصمعي: سألت بعض الأكلة ممن كان يقدم على ميسرة النّرّاس: كيف تصنع إذا جهدتك الكظة؟ والعرب تقول: إذا كنت بطيناً فعدّل نفسك زمنا. قال: آخذ روث حمار حاراً فأعصره وأشرب ماءه فأختلف عنه مراراً، فلا أُثبت أن يلحق بطني بصلبي، فأشتهي الطعام والمرأة من نسائنا اليوم إذا استحيضت استفت مثقالاً من الإثمد؛ لأنها عندهن إذا فعلت ذلك لم تلد. وأنا رأيت امرأة قد فعلت ذلك ثم ولدت. وخرء الكلب إذا كان الجعر أبيض اللون، وكان غذاء الكلب العظام دون اللحم، فهو عجيب لصاحب الذبحة، وكذلك رجيع الإنسان. وخرء الفأر يكون شيافاً للصبيان، يحملونه إذا استوكى بطن أحدهم وإن كان من خرء الجرذان وكان عظيماً كان الواحد منه هو الشياف. ويصلح أيضاً خرء الفار لداء الثعلب، وهو القرع الذي يعرض لشعر الرأس. وخرء الحمام الأحمر يصلح،من المبولات للرمل والحصى، يقمح منه وزن درهم مع مثله من الدارصيني)[1].

فالجاحظ يلخص جميع ما ذكره في مواقع مختلفة من كتابه الحيوان، فهو كلما تحدث عن حيوان ذكر ما يمكن الاستفادة منه على حد تعبير من ينقل عنه، فإذا تحدث عن الكلب ذكر فائدة خرئه، ورجيعه، وكذلك الحمار والفأر والحمام وغيرها من الحيوانات، لكننا نجده في الجزء السابع والأخير يلخص ما ذكره في قائمة طبية أو ما يمكن تسميته بنشرة تحتوي عدة أدوية، وهذا التكرار من الجاحظ يدل علىً فائدة هذه المواد في العلاج، فهل كان هذا التكرار والتأكيد لمعرفة الجاحظ بجدية وصدق هذه الأدواء وفاعليتها؟ أم أنه يعرض ذلك استهانة واستهجاناً بالأطباء الذين يصفون مثل هذه المواد؟ والذين دار بينه وبينهم عداء امتد على مستوى تأليف الكتب وتلفيق الحكايات والروايات؟ فكل فريق راح ينصر رأيه، و يبقى السؤال المطروح هنا يتمحور حول أسباب ذلك العداء، الذي تحدث عنه معظم من كتب وتكلم عنه الجاحظ فهل كان سببه انتقاد الجاحظ لما شاع بين الناس وبين الأطباء من خرافة طبية تغلغلت في روح الشعب والمجتمع، وكان الجاحظ خائفاً من انتشارها في

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، جـ 7 ، ص88-89).

عصره؟ وهو المفكر المحارب دوماً لتلك الخرافات كقونه في اعتقاد وخرافة كانت تدور في ذلك العصر، فهو يقول في معرض حديثه عن الضب (وناس يزعمون أن أكل لحمان الحيوان المذكور بطول العمر. فصدق بذلك ابن الخاركي وقال: هذا كما يزعمون أن أكل الكلية جيد للكلية، وكذلك الكبد، والطحال، والرئة، واللحم ينبت اللحم، والشحم ينبت الشحم. فغبر سنةً وليس يأكل إلا قديد لحوم الحمر الوحشية، وإلا الورشان والضباب، وكل شيء قدر عليه مما يقضى له بطول العمر، فانتقص بدنه، وكاد يموت، فعاد بعد إلى غذائه الأول)[1].

أم أن سبب ذلك العداء هو شيوع الأخطاء الطبية التي عمّت في عصره وحتى في أكثر عصور التقدم والتطور وحتى في أيامنا هذه، والذي ينجم عنه زهق أرواح ونفوس كوصفهم لمن لدغ أن يسقى اللبن فكانت معه حشاشة روحه. أم كان سبب ذلك العداء أن معظم الأطباء كانوا من الأعاجم كـ (ابن سلمويه) و(بختوشع بن جبرائيل) و(ماسويه) وغيرهم من الأعاجم الذين جاؤوا بهذا الطب أو بهذا العلم؟ و قاموا بترجمة كتب عن الطب اليوناني القديم والطب الهندي؟ ولكنني أرى أن هذا السبب مستبعد بعض الشيء؛ لأن الجاحظ لم ير في اتخاذ ثقافة الآخرين عيباً، وقد رجع إلى أرسطو في كتابه الحيوان في بعض المواقع وإن كان الرجوع قليلاً نسبة لحجم هذه الموسوعة العلمية الضخمة التي شيدها عقل أبي عثمان العلمي وموضوعيته مما يجعلنا نستبعد انتقاد الأطباء بسبب عرقهم وأصلهم.

ونعلم أن أولئك الأطباء الذين جاؤوا بالعلوم العقلية التي أضافت الكثير للعصر العباسي، وكان لهم الحظوة والمكانة عند الخلفاء والأمراء والوزراء ورجالات الدولة فكانت مجالسهم لا تخلو من وجود الأطباء، فقد كانوا عنصراً رئيساً في تلك المجالس، ولا ننسى جهد الخلفاء العباسيين في استقدام الأطباء وتشجيعهم ومنحهم الأعطيات الجزلة، فيكفي أن نعرف أنه كان لكل خليفة طبيب خاص به، ولعل مصدر ذلك العداء من باب غيرة العلماء وتنافسهم في ميدان العلم والتقرب من الخلفاء، لا سيما وقد أشيعت بعض الروايات التي تحدثت عن أمنية الجاحظ في

---

[1] (االجاحظ ، الحيوان ، جـ 6 ، ص147).

الخلافة والسؤدد، والجاحظ نفسه كان قد تحدث عن الحسد: وذكر أن من أهم أسبابه هو المهنة أو الصنعة الواحدة، فالجاحظ وأطباء عصره وسائر العلماء كانوا يدورون في فلك واحد، يتنافسون في تقديم الإنجاز العلمي تلو الإنجاز للنهوض بأمتهم، فربما كان الحسد أو قل الغبطة أو شيئاً من التحسس، ثم بعدها تفاقم إلى أن بلغ حد العداء، فراح الأطباء يلفقون الرواية في سبب موت أبي عثمان التي جعلت عامة المثقفين يقولون بها، وهي جمع الجاحظ بين السمك واللبن، ثم كان الجاحظ بعد ذلك قد ألف كتاباً يذم فيه الأطباء وينقض فيه الكثير من طبهم، وحتى لو لم يصلنا ذلك الكتاب، فإن كتاب الحيوان كفيل بأن يعطينا صورة واضحة عن موقف الجاحظ من علماء عصره بشكل عام ومن الأطباء على وجه الخصوص، وهذا لا يعني أن الجاحظ كان رافضاً لأقوال الأطباء مستهزئاً بهم ناقداً إياهم على إطلاق القول، بل أنه كان مؤيداً لكثير من الأدوية التي توصف من قبل الأطباء، ويجهد نفسه في جمعها وكتابتها وشرحها وعرضها على قرائه ناصحاً لهم بالأخذ بها، وتناولها ضد الكثير من الأمراض، فهو كان يرفض ما يشك في جدواه أو استبعد نفعه من تجارب مرت به، أما الثقات منهم فهو يروي لهم أخباراً وأحاديث حتى ولو لم تكن تلك الأمور خاصة بالطب كمثل قوله (وزعم لي بعض الأطباء ممن أصدق خبره، أن الشفنين إذا هلكت أنثاه لم يتزوج وإن طال عليه التعزب)[1].

1. 5 الجاحظ عالم نفس

يعد أبو عثمان من أهم الأعلام، الذين تركوا في الفكر العربي آثاراً حيةً في الأدب، وفي تصوير منازع النفس، ورسم خلجات الروح، وتصوير ثقافة ذلك العصر، فقد عاش الجاحظ وترعرع في خضم الأحداث؛ فما ترك ظاهرةً إلا ورسمها، بل ونفذ إلى أعماقها بأسلوب تميز بالدقة، والسهولة، لقد رصد سلوك الحيوان، وغاص في نفس الإنسان؛ فهو طبيب نفساني، يحلل ويفسر تصرفات الأشخاص، ويعلل شطحات النفس، ويرصد ما يجري في داخلها؛ فتجده طبيباً يصرف لها علاجها الشافي؛ ثم يجلس طويلاً يراقب تصرفاتها، وطرق معيشتها؛

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص516).

ليخرج بعلمٍ أتعب العلماء حتى رأى نور الشمس في العصر الحديث (وهو علم سلوك الحيوان، وعلم نفس الحيوان).

وقد كان أبو عثمان كعادته في مجمل العلوم، والفنون، سباقاً في ميادينه؛ باحثاً فيه ليضع النواة لهذا العلم، الذي عُرف من زمن ليس ببعيد، لقد كان الجاحظ مبدعاً في تحليل جبلة الإنسان، وخصائصه؛ ففهم النفسيات، ودرس كيف تفكر كل شخصية، بناءً على ما كان يلاحظه من أقوال تلك الشخصيات! ويراقب حركاتها بعين المطالع الحاذق، الذي يطبق نظرياته النفسية على تلك الشخصيات؛ حتى ينتهي بخلاصة تحدد الحالة المرضية لتلك النفس، ثم ما يلبث أن يحدد العلاج المناسب، وهو العلاج الجاحظي، الذي كان وصفه، نتيجة لخبرة العسر المتقدم، والعقل الحكيم، والقلب الغيور على أبناء الأمة والمجتمع، فنجده يحلل نفسيات عدة في مجتمعه: سيحلل نفسية الحاسد مثلاً تحليلاً عميقاً، ويشرح ماهية الحسد، ويبين أسبابه، واصفاً علاجه، يقول: (والحسد -أبقاك الله- داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذر... منه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرقة بين القرناء، وملقح الشر بين الخلطاء، يكمن في الصدور كمون النار في الحجر)[1].

إن الأمر الذي كان يذهل الجاحظ، ويجعله مندفعاً للتحدث عن هذا المرض الاجتماعي، وما جعله مسرعاً للكتابة فيه، ومصوراً لنفسيات هؤلاء الحاسدين؛ ذلك أن الحسد كان أكثر ما يدب في النفوس التي يعتقد الناس فيها الصلاح والإصلاح، وينتشر بين الأقارب، ويعم بين العلماء، بينما تقل تلك الأمراض في الجهلة والفاسدين، وهذا ما كان يثير أبا عثمان، ويجعله مندفعاً مطلقاً قلمه ولسانه، مسهباً في التحدث عن الحسد، يصور تلك النفسيات المعتلة، التي هي في حالة غير سوية؛ فهو عالم نفس يسبر تلك النفوس المريضة؛ ليبين خلجاتها، ويكشف أسرارها،

---

(1) الجاحظ، **رسائل الجاحظ**، ص115-116، قدم لها وبوبها وشرحها الدكتور علي بو ملحم، الطبعة الثانية، 1991 ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت.

وشرورها النائمة، التي تثيرها موجات الحسد، والحقد المنبثق عنه (ما لقيت حاسدا قط، إلا تبيّن مكنونه بتغيّر لونه، وتغوّص عينه، وإخفاء سلامه، وإقباله على غيرك، والإعراض عنك، واستثقال لحديثك، والخلاف لرأيك)[1].

ومع أن الجاحظ يجتهد في علاج تلك الفئة الحاسدة، ويكشف أسرارها أمام الناس، علّها تقلل من حسدها، وسمومها؛ التي تبَث بينهم؛ فتسبب كمدَهم، وإرهاقهم، ونجد أبا عثمان في الكثير من الحالات، يصاب بشيء من اليأس في إصلاح تلك النفوس، ويصاب بالقنوط من وجود الخير عند الحاسدين، (متى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً، وإن كنت مصيباً، أو يرشدك إلى الصواب، وإن كنت مخطئاً، أو نصح لك في غيبته عنك، أو قصر من غيبته لك؟ فهو الكلب الكلب،...)[2].

ويكشف الجاحظ عن هذه النفس، والتي كان الحسد يسيطر عليها، ويعميها؛ فتسرف في أذاها، وفي معظم الأحيان يكون إسرافها وتماديها في أذى الآخرين، دون علم منها، فيتغلب الجانب الشرير في تلك النفس على الجانب خير، أو قل يتغلب الجانب المظلم في تلك النفس؛ فتتمرد على صاحبها، معلنةً بث سمومها القاتلة، التي تسري في أجواء المجتمع؛ لتضعف أواصر المحبة والخير فيه، ولتبذر العداء، والنزاع والشقاق، فعين الحاسد أبداً لا تقر، ولا يهدأ قلبه، إلا إذا زالت نعمة من يقع تحت قبضته من المحسودين.

ولما كان الحسد آفةً شنيعة تحرق قلب صاحبها، وتورثه الهم والغم الدائمين بذلك الحسد والمرض، الذي ما ابتلي به إلا صاحبه، كان كفيلاً بتوريثه النكد، ثم حرمانه السعادة طيلة حياته؛ لأنه دائم النظر إلى ما عند غيره، مستكثراً لنعمهم، زاهداً بما أعطاه الله، مستنقصاً له؛ فهذه العلة كفيلة بإيراثه القلق والأرق طيلة حياته. ويرى له الجاحظ عقوبةً ملائمةً ناجعةً، ولا يرى أن هناك عقوبة ممكن أن تكون أقدر على إيلامه، بأكثر ما عاقبه الله، وذلك بإلزامه الهموم قلبه، وتسليطها عليه.

تلك هي العقوبة التي فرضها الجاحظ على الحاسد، وهي أن يعيش حياته في ضرام هذا الداء، تأكل نيرانه المشتعلة حنايا صدره، فتمر أيامه في كمد، وحزن،

---

(1) الجاحظ، **رسائل الجاحظ** ، ص 118.

(2) الجاحظ، **رسائل الجاحظ** ، ص 122.

واصفرار وجه، تلك الوجوه التي يزداد هزالها، واصفرارها، كلما تألق نجم من أولئك الذين يقعون تحت قبضة الحساد، فكلما (علا مقامهم، وبعد صيتهم، وشعّ فيض أدبهم وعلمهم)[1].

والجاحظ لم يكن بعيداً عن داء الحسد، فهو يتحدث من قلب مكلوم، كوته نيران الحُسَّاد، وتذوق بالتجربة مرارة تلك الآفة، التي كانت في عصره على أوجها، وهو من خرقت سهام الحسد قلبه؛ لا سيما من أبناء صنعته، وهم أدباء ذلك الزمان، وكُتّابه. والجاحظ إذ يصف تلك الموجات، وتلكم السموم، إنما يشرح الوضع السائد بين طبقات الأدباء في مجتمعه، منوهاً إلى العداوات التي كانت على أشدها بينهم؛ فلعله استهجن ذلك المرض، وذهل بالقوة المصاحبة له، فوجد في ذلك حافزاً على المضي في الدراسة والبحث فيه، وجرى قلمه يعالج النفوس، ويجلي القلوب، وذلك بكشف النقاب عن تلك الآفة؛ فيعرّي الحاسد أمام أفراد المجتمع؛ حتى يكون الناس في مأمن من شره.

إن أبا عثمان كان بما أتاح الله له من عمر مديد، قد التقى، وصادف، وعايش عدداً كبيراً من الناس، والشخصيات ذات الأطباع المختلفة، والأمزجة المتباينة، فهو لم ينظر إلى الناس نظرة شخص عادي، بل أتاح له عقله الواعي، وقلبه النيّر، وثقافته الواسعة المتنوعة، أن يقرأ ما وراء النصوص، وأن يحلل النص، ويفهم لغة العيون والشفاه والقلوب، فيكشف عن سمات وخصائص لا تخطر لأحد ببال، فتعود به الثقافة والحافظة التي بقيت متقدةً إلى العصر الأموي؛ ليروي قصةً طريفةً عن شخصية، كانت معالمها المميزة لها، وسماتها قد ثبتت في الذاكرة العربية، وخزنها الضمير العام، وهي المعروفة بجبروتها، وصلفها، وقسوتها، تلكم هي شخصية (الحجاج بن يوسف الثقفي)، ذلكم الوالي الأموي، الذي قد أشفق التاريخ حين سجل فترة ولايته! فهو-كما روي-كان نموذجاً للظلم، والقتل، والاستخفاف بالروح الإنسانية، هكذا صورته لنا بعض كتب التاريخ، وقد كان الخلفاء الأمويون إذا ضاقوا بالناس ضرعاً في مصر من الأمصار التي تقع تحت سيطرتهم، أرسلوا به وذلك

---

(1) (سامي الكيالي ، **النفس الإنسانية عند الجاحظ** ،ص 26).

لضمان إخضاع ذلك الجزء والركن المعاند في الدولة الإسلامية؛ إيماناً من الخلفاء بقوة شخصيته، وحدة سيفه، وقوة قلبه، وقدرته على البطش، وعلى البت في القضايا المستعجلة، دون أن يركن للعاطفة، أو يدع للرحمة والشفقة نصيباً في حكمه، وما تعارف عليه الناس، وخبروه عن شخصية الحجاج من الشدة والصلابة، إلا أن أبا عثمان (وهو الذي ربما وفي الكثير من كتاباته، لم يحفل بالإنسان في شؤونه المألوفة، وأحواله المبتذلة الرتيبة، بقدر ما اتجهت عنايته إلى نواحي العجب والغرابة فيه)[1]، فقد جاء أبو عثمان، برواية تكشف عن الخوف الدفين في شخصية الحجاج، وقد كان يحاول جاهداً إخفاءه بصولاته وجولاته، وما كشفه الجاحظ كانت صفة غير معروفة للجميع؛ فنجده يقف ضعيفاً أمام القدر، الذي لا ينفذ من جبروته أحد (وهو الموت)، حكم الله العادل على كل إنسان، نهاية الأجل، لذلك سارع الحجاج إلى أحد المنجمين؛ ليعرض عليه مجموعة من التساؤلات بذكاء؛ مخفياً وراء ذلك ضعفه؛ وخوفه من الموت؛ الذي كان يسقيه أفراد الرعية؛ إذا ما جاء أحدهم بسلوك لا يرضاه. والجاحظ–عالِم النفس– يروي تلك الحكاية بموضوعية تامة؛ ليشعر قارئه بالحياد الكامل– كما عوده في ميدان العلم– فالهدف من تلك الرواية، هو الكشف عن ذلك الجانب، وتلك الصفة التي حاول الحجاج إخفائها؛ ودفنها خلف أقنعة الجبروت، والصلف، والقسوة، والتزمّت (وقال: ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد ولي قبل ذلك ما ولي، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجم: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم ولست به، أرى ملكا يموت اسمه كليب، وأنت اسمك الحجاج، قال: فأنا والله كليبٌ، أمّي سمّتني به وأنا صبيّ، فمات، و(كان) استخلف على الخراج يزيد بن أبي مسلم، وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة)[2].

وفي معرض خوض الجاحظ في نفسية الشخصيات التي صورها، وكشف سماتها، كان قد وصل إلى ما لم تصل إليه إلا يد الفنان، وعيون الحاذق، ولا يصل إليه إلا العقل المجرب، ولا غرو في ذلك، فقد كان الجاحظ في مجتمعه، بائعاً للخبز والسمك، متجولاً بين طبقات الشعب، أديباً وكاتباً، يسبر غور النفوس التي لها من

(1) خولة شخاترة ، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ** ، ص83

(2) (الجاحظ، **الحيوان**،ج1، ص 324)

الخصائص السلبية والسيئة، والتي تحاول بكل ما أوتيت من قدرة وذكاء، إخفائها على عامة الناس، لكنّ (عمرو بن بحر) استطاع أن يزيل اللثام عن الكثير من تلك الخصائص، فإذا بها واضحةً جليةً أمام القارئ، وإذا بالصورة ناصعةً؛ فهو من خلال ذلك يعبر عن كرهه، ومقته الشديد لتلك الصفات المستترة، أو التي يحاول أصحابها إسدال ستائر الهيبة والعظمة عليها، لكنّ أبا عثمان يخلع الأستار، ويلج النفوس، وهو في إحدى القصص التي يرويها في الحيوان يكشف عن صفة متأصلة لدى مجموعة من الناس، الذين ربما عاش الجاحظ بينهم، وعاش شحناءهم، فقد عبر عن تلك الشريحة في تصويره لشخصية كان لها اليد الطولى في إشعال العداء لأبي عثمان، ربما كان عداء الصناعة ضمن دائرة الكتّاب. وربما قرب المنزلة والحظوة لدى الخلفاء والأمراء، وربما التفوق العرقي، وأن تلك الشخصية والتي عبر الجاحظ من خلالها عن شريحة كاملة، وهي شخصية (سهل بن هارون)، وهو الذي ترددت أصداء مقولته في المصادر والمراجع، (إن ثبت الجاحظ في ديوان الرسائل أفل نجم الكتاب)، فأخذ الجاحظ يثأر من (سهل بن هارون)، فيصف نفسه التي تأصلت فيها صفة البخل، من خلال إلحاحه على غلامه حينما قدم عليه ضيف، فأكرمه بديك هرم، أخذ يفتش عن رأس الديك، مكرراً السؤال على الغلام، وما هذا الإلحاح إلا نتيجةً لما اتسمت به نفسه من البخل، الذي اتصف به مجموعة من الناس في مجتمع الجاحظ، مما حفّز أبا عثمان لأن يؤلف كتاباً كاملاً ينكر فيه تلك الصفة، التي يبغضها الله، (وهي صفة البخل) مورداً بعض قصص البخلاء، التي لا تكاد أن تصدق لشدة ما امتاز به هؤلاء القوم من تقتير، وحب شديد للمال، ثم وضع أبو عثمان مقابل تلك الصفة البغيضة صفة الكرم العربي، وهي إحدى الشيم، التي تُعد من مفاخر الأمّة، وشيمها الأصيلة.

لقد كتب (سهل بن هارون) رسالةً يرد على الجاحظ، ويروي الجاحظ في حيوانه الحادثة، التي أراد أن يبين من ورائها شدة بخل(سهل بن هارون)، فانظر له كيف يحرص على أدق التفاصيل، يقول: (قال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرح، حتّى كدنا نموت من الجوع، فلما اضطررناه قال: يا غلام، ويلك غدنا! قال: فأتينا بقصعةٍ فيها مرقّ فيه لحم ديك (عاس هرم) ليس قبلها ولا بعدها

غيرها لا تحزُّ فيه السكين، ولا تؤثّر فيه الأضراس، فاطّلع في القصعة وقلّب بصره فيها، ثم أخذ قطعة خبزٍ يابس فقلّب جميع ما في القصعة حتى فقد الرأس من الدّيك وحده، فبقي مطرقاً ساعةً ثمّ رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ فقال: رميت به. قال: ولمَ رميت به؟ قال: لم أظنّك تأكله! قال: ولأيّ شيءٍ ظننتَ أنّي لا آكله؟ فوالله إنّي لأمقت من يرمي برجليه فكيف من يرمي برأسه؟! ثم قال له: لو لم أكره ما صنعتَ إلا للطِّيَرة والفأل، لكرهتُه! الرأس رئيسٌ وفيه الحواس، ومنه يصدح الديك، ولولا صوتُه ما أريدَ؛ وفيه فرقُه الذي يُتبرّك به، وعينه التي يضرب بها المثل، يقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أرَ عظم قطُّ أهشّ تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلا إذ ظننتَ أنّي لا آكله، ظننت أنّ العيال يأكلونه؟! وإن كان بلغ من نبلك أنّك لا تأكله، فإنّ عندنا من يأكله. أوَ ما علمت أنّه خيرٌ من طرف الجناح، ومن الساقِ والعنق! انظر أين هو؟ قال: والله ما أدري أين رميت به؟ قال: ولكنّي أدري أنّك رميت به في بطنك، والله حسيبك!)[1].

لقد أورد الجاحظ هذه القصةَ على طولها، وأجده مضطراً إلى إيرادها؛ لإثبات صفة البخل الملتصقة بنفسية سهل، والمعروف بهذه الصفة، وكيف أنه أراد أن يغطي ذلك العيب عن عيون الناس، وكيف أنه كان يحاول أن يوهم الجمع بحكمته، ومعرفته بالطب، وثقافته الواسعة، فيفصّل الخطاب؛ ليشيد خطبةً طويلةً، والضيوف يستمعون له؛ فبخله الشديد، والمتأصل في نفسه، لم يمكّنه من مساءلة الغلام بعد أن يغادره ضيوفه! فقد تحرك اللاشعور الذي كان يتحدث نيابةً عنه، وقد غلب الوعي فيه؛ فأخذ يسدي الحكم مفصلاً فيه: عظم الديك، وأسنانه، والمتوارث حوله، لكن اللاوعي فيه لا بد أن يظهر، ويوقظ الحقيقة، من خلال فلتات اللسان (لا بد انك أكلته فحسيبك الله).

لقد تفرد أبو عثمان دون سابقيه، أن تمثل في تلك الزاوية التي ينظر منها إلى الإنسان، وهو البحث عن كل غريبٍ عجيبٍ، وما هو شاذٌ خارقٌ لخصائص النفس البشرية، وبما قد يعد مادةً من مواد علم النفس التحليلي؛ لاتصاله بتلك المنطقة

---

(1) الجاحظ ، الحيوان ،ج2 ،ص 374 .

المعتمة المظلمة من النفس، أي جانب اللاوعي واللاشعور، فما العمر المتقدم، والخبرات العظيمة، في ميدان العلماء ومخالطة الناس، إلا شهادة حق لأبي عثمان على مهارة الغوص، ودقة الاستخراج. وقد لفت الجاحظ في خضمّ العصر العباسي ظاهرةٌ كان الناس ينظرون لها بحكم المسلّم، ولا غرابة في ذلك وهي تشمل فئةً من أبناء ذلك المجتمع، الذي غدا خليطاً من أجناس بشريةٍ متباينةٍ، فتلك الفئة (فئة الخصيان) التي كان الناس ينظرون لها على أنها إحدى شرائح الخدم، والحشم في ذلك المجتمع، يخدمون لدى السادة دون أدنى مراعاة لمشاعرهم، أو احتياجاتهم، وأبو عثمان كان دائم الشعور بهذه الفئة، فقد تحدث عنهم، وعن هذه الظاهرة، والعادة السيئة، وهذا التسلّط الذي كان يمارس على مثل هؤلاء، وقد كره القائمين عليها، فعزا أصل هذه العادة والظاهرة السيئة إلى الروم، ومن هنا انبثق حقد هذه الفئة على العنصر الرومي (وكل خصاءٍ في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدّعون من الرأفة والرحمة، ورقّة القلب والكبد، ما لا يدّعيه أحد من جميع الأصناف)[1]، وكم تحدث عن خسة ذلك الفعل، الذي يسلب الإنسان السوي كرامته، وشعوره بالإنسانية، ويعتدي على أخص حقوقه، وقد أفرد الجاحظ لذلك باباً بين فيه رأي الدين، وحرمة ذلك الفعل، وكم نقم على الأصل الذي انبثقت عنه تلك العوائد؛ فقد صرّح في أكثر من موضع بأنه كان عادةً روميةً، فالروم كانوا أول من خصى العبيد؛ لذلك نقموا عليهم، فكان ذلك سبب شقائهم، واستهزاء الناس بهم، والاستخفاف بعقولهم، فما كان من هذه الفئة إلا أن هزئوا بمن لا مال له، ولا جاه، ولا سلطان.

لقد كانت عادة الخصاء منتشرةً في المجتمع العباسي، وتلحق بالعبيد الذين يخدمون بالبيوت، فهذا سهّل على الجاحظ أن يدرسَ تلك النفوس، ويجري عليها تجاربه، فيتحدث عن الحالة الفسيولوجية لهؤلاء الناس قبل الخصاء، وبعده، فيدرس الحالة الفسيولوجية، والسيكولوجية، دراسةً علميةً جراء ذلك التسلّط من قبل السادة، ويخرج بنتائجَ علميةٍ لم يتنبه لها غيره، فيبين التغيرات التي تطرأ على تصرفاتهم،

---

(1) (الجاحظ، الحيوان ، ج1، ص124)

ونفسياتهم. (وتعرض للخصيان أيضا طول أقدامٍ، واعوجاج في أصابع اليد، والتواءٌ في أصابع الرِّجل، وذلك من أول طعنهم في السنِّ. وتعرض لهم سرعة التغير والتبدل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد، وصفاء اللون ورقّته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود.....)[1]، ولم يكن الجاحظ راضياً بأنه وجد فئةً للدرس يطبِّق عليها فرضياته ليخرج بالنتائج، بل أنه كان مستنكراً لها، يمقت تلك العادة، ويرى أن الدين لا يقبل بها ويحرمها.

ومما يظهر من ردود فعل لهؤلاء المرضى- إن جاز التعبير- وتلك الفئة المضطهَدة الممتَهنة، فقد كانت ردودهم قاسيةً تثير في نفوسهم الكرهَ والبغض لجميع الرجال الأسوياء.

وربما عرض الجاحظ في حيوانه بعض شخصياتهم، وحاول أن يناقش ما قد أصيبت به من أمراض نفسية، متعاطفاً معها، آملاً في علاجها، مشفقاً عليها، فنجده مراراً كثيرةً يعرض بعض النماذج الغريبة في تصرفاتها وأحاسيسها؛ هازئاً بها، منتقداً إياها، على سخفها، وجهلها في أحايينَ أخر. فالجاحظ يؤمن بأن يعيش الإنسان واقعه، وأن لا يكلف نفسه فوق طاقتها، وأن لا يضع نفسه في مواقعَ لا تليق به، وأن يختار من الحياة ما يناسبه من الوظائف والأعمال، وأن يتبنى ما يتفق وقدراته من جوانب الفكر، وأن يبتعد ما استطاع عن التقليد الأعمى، فلا يكون إمّعةً في حياته، وفي جميع أموره، فعليه أن يمثل نفسه أولاً وَفق قناعاته الشخصية دون رياء أو مِراء، فالجاحظ ينتقد أولئك الذين يتمذهبون بمذاهبَ ربما ما عرفوا إلا القشور منها، وانساقوا وراء أحزاب وجماعات دون علم ومعرفة، لا يجدون علةً صريحةً مقنعةً لحبهم أو كرههم، فلا هم أصحاب فكر قويم يدافعون عنه، ولا هم يعدون أنفسهم ضمن عامة الناس، ويعرض الجاحظ من تلك الفئةَ في كتابه هازئاً بهم، ضاحكاً منهم، فهم يصلحون للتعبير عن تلك الفئة البشرية في كل زمان، وفي كل مجتمع من المجتمعات التي تفترض في نفسها التطور والرقي. والجاحظ إذ يعرض لنا هذه النماذج، فهو دائماً يعبر عن شرائحَ فكريةٍ سادت في عصره من فرق،

---

[1] (الجاحظ، الحيوان ،ج1 ، ص106)

واتجاهات، وشيع، وأحزاب، كالإباضية مثلاً، والشيعة، والخوارج، ثم أهل السنة، والدهرية، وإلى غير ذلك من تقسيمات إضافةً إلى أهل الملل والديانات غير المسلمة، كالنصرانية، واليهودية، وما شاع في عصره من معتقدات، كالمجوسية، والزندقة. ويقول الجاحظ روايةً عن أحد من ينتحلون قول الإباضية: (ودخلت على ختن أبي بكر بن بريرة، وكان شيخاً ينتحل قول الإباضيّة، فسمعته يقول: العجب ممن يأخذه النوم وهو لا يزعم أن الاستطاعة مع الفعل! قلت:ما الدليل على ذلك؟ قال: الأشعار الصحيحة. قلت: مثل ماذا؟، قال: مثل قوله:

ما إن يقعن الأرض إلا وَفْقَا

ومثل قوله:

يهوين شتى ويقعن وَفْقَا

ومثل قولهم في المثل: وقعا كعِكمَي عَير؟؟

وكقوله أيضاً:

مكرّ مفرّ مقبــلٍ مدبرٍ معاً   كجلمود صخر حطّه السّيل من علِ

... ثم أقبل عليّ فقال: أما في هذا مقنع؟ قلت: بلى وفي دون هذا!) [1].

والجاحظ يهزأ من هذا الذي أراد أن يحتجَّ لمذهبه في مقابل ما عند الآخرين، فقد أراد أن يحتج للإباضية، وينقد ما عند المعتزلة، إلا أن حججه -كما عبر عن ذلك الجاحظ- لا يوجد فيها مقنع لسامع، إلا أن المتحدث يخال أنه قد أدى أمانته نحو أبناء الفكر الذي يتبناه، وأنه أقنع محاوره بحججه، حيث توهم، أو أوهم نفسه، بأنه أبلى بلاءً حسناً في مقام الحِجاج والجدل؛ نصرةً لفكره. ونجده يكشف عما يعتري هذه الشخصية من زيف وسخف، وهو في نظر الكثيرين ممن يمثلهم، شيخ جليل مهاب، لكن الجاحظ بأسلوبه الذكي الخلاّب يكشف عما أُظلم من جوانب تلك النفس التي ظُن بها العلم والمعرفة، كاشفاً عن ذلك العمق المزعوم في التفكير، مُظهراً سطحية الفكر، وجريان العادة وسيطرتها على الكثير من السلوكيات الخاطئة، وهيمنة التعقيد على الكثير من الشخصيات. ويعرضه في صورة أخرى معبراً عن

(1) الجاحظ ،الحيوان، ج 3 ، ص9-10

كرهه للشيعة، والسامع ربما قال، له الحرية في أن يحب، ويشنأ، ويعبر عن مشاعره، شريطةَ إقناع سامعيه، أو أن يكون لديه الأسس التي على ضوئها يصنف مشاعره. وفي ذلك يقول: (قال الشيخ الإباضي وقد ذهب عني اسمه وكنيته وهو ختن أبي بكر ابن بريرة- وجرى يوماً شيءٌ من ذكر التشيّع والشيعة، فأنكر ذلك واشتد غضبه عليهم، فتوهمتُ أنّ ذلك إنما اعتراه للإباضيّه التي فيه، وقلت: وما علّي إن سألته؟ فإنه يقال: إنّ السائل لا يعدمه أن يسمع في الجواب حجةً أو حيلةً أو ملحةً -فقلت: وما أنكرت من التشيع ومن ذكر الشيعة؟ قال: أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة؛ لأني لم أجد الشين في أول كلمة قطّ إلا وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشر، وشيطان، وشغب، وشح، وشمال، وشجن، وشيب، وشين، وشراسة، وشنج، وشك، وشوكة، وشبث، وشرك، وشارب، وشطير، وشطور، وشعرة وشاني، وشتم، وشتيم، وشيطرج، وشنعه، وشناعه، وشأمه، وشوصه، وشتر، وشجوب، وشجّة، وشطون، وشاطن، وشنّ، وشلل، وشيص، وشاطر، وشاطرة، وشاحب)[1].

لقد أورد أبو عثمان أدلةً على لسان ذلك الشيخ؛ لتبين سذاجة الشخصية، مثيراً المزيد من السخرية والضحك، وذلك (أنها تحاول أن تظهر بمظهر العالم، الذي يقدم الحجة على ما يؤمن به، ولكن ما تقدمه من إجابات غريبة، وغير منطقية يكشف عن جهلها، وعجزها) [2].

ويعرض الجاحظ حالةً نفسيةً أخرى حين يتحدث عن المختنق، فيفسر الحالة التي تعتريه، ويبين الأمور التي تدور في خلده، والمهيئات التي تسوّل له الأمور كأن الشخص المختنق -وهو ما يسمى بالممرور- يصاب بانفصام في الشخصية؛ فتصدر عنه تصرفات غير محسوبة، وغير مبررة رغماً عنه، ذاكراً كيف كانت تتم معالجته بطريقة ربما انتقدها أبو عثمان.

ويتحدث أبو عثمان مفسراً تصرفات النفس الخائفة، كيف أنها ولشدة خوفها تبحث عن مصدر خوفها، وهلاكها فتؤول إليه ظانةً أن في ذلك سيكون خلاصها. والجاحظ في هذه الحالة النفسية الخائفة المرتبكة، لا يرى فرقاً بين ما يصيب

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 3 ، ص 22-23)

(2) خوله شخاترة ، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، ص85 .

الإنسان والحيوان يقول في ذلك: (وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسن من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها؛ فإنه ربما استقى واستخرج وقد تغير عقله. وأصحاب الركايا يرون أن دواءه أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً، وأن يزمّل تزميلاً وإن كان في تموز وآب ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر فإنه إن لم يُحل بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر، أتاها سعياً في أول ما يفتح عينه ويرجع إليه اليسير من عقله، حتى يُكفي نفسه فيها من ذات نفسه، في الموضع الذي قد لقي منه ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أن القوم لو تركوه طرفة عين لهلك. هكذا كان عنده أيام صحة عقله، فلما فسد أراه الفساد أن الرأي في العود إلى ذلك الموضع)[1]. ثم يقول واصفاً تلك الحالة: (ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد؛ ليحضر ببدنه، يظن اجتهاده أنجى له، وأنه إذا كان على ظهر الفرس أقل كدّاً، وأن ذلك أقرب إلى الهلاك. ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم، وأنهما إنما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به، فإن إصابته شقيقة، أو لسعة عقرب، أو اشتكى خاصرته، أو أصابه حصر، أو أسر، شرب الدواء من يد أجهل الخليقة، أو جمع بين دواءين متضادين)[2].

والحديث عن النفس الإنسانية في كتاب الحيوان، وسلوكياتها، وأطوارها الغريبة جد طويل، فالجاحظ يعد نفسه من الأدباء، والكتّاب، والنقاد الذين يتمتعون بصحة نفسية عالية، فهو يراقب أصحاب العلل أو النفسيات المتموجة، ويجري معها حوارات ومسائلات عديدة، لعلها تجد تفسيراً مقنعاً لما يقوم به أصحابها من أفعال، فبعضها يخرج عن جادة السلوك إلى حيث الشذوذ؛ فتهبط به نفسه من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان لقاء نهمه، وشراهته، وإطلاقه العنان لأهوائه، وشهواته، دون تنظيم منه، ودون أن يحكّم الدين، والخُلق في ذلك، كالذي شاب مجتمع الجاحظ، وصدر بعضه من فئة تعد من علية القوم وأكابر المجتمع.

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج2 ، ص311-312)

(2) (الجاحظ ، الحيوان ، ج 6 ، ص376-377)

ونجد الجاحظ على حدة مزاجه صبوراً في حوار بعض الشخصيات التي تبدو ساذجةً تعيش على هامش الحياة، فهو يجالسها ويحاورها ويفصّل في الحديث معها؛ وذلك لاستخراج مواطن الغرابة والغموض في تلك النفوس، وكأنه الطبيب النفسي الذي يكشف عن هذه الأمراض متعمقاً في دواخل النفس، ليبين كيف أن هذا الإنسان عجيب غريب محير في أحيان كثيرة وكيف أن هذا الكائن المكلف بأعباء الحياة وإعمار الأرض يقوم على عالم من المتناقضات مختلف الأهواء والأمزجة، متباين الطموح، فمن الناس من يعرف طريقه في الحياة فيسير عليه وفق خطة مدروسة، يعرف هدفه ومراده، وآخرون تجدهم يهيمون على وجوههم إما تقليداً للآخرين، وإما سذجاً لا يعرفون للرشد طريقاً فيحاور أبو عثمان بعض أولئك ويتحدث مع أحد الحراس الأعاجم -وقد كان ذا لكنة- يسأله الجاحظ عن سبب كنيته وقد تكنى بأبي خزيمة، وهي كنية عربية صميمة وليس يدري لماذا، وقد اختار الجاحظ لحواره بعض العبارات الساذجة تناسب حاله، يقول في ذلك: (وكان عندنا حارسٌ يكنى أبا خزيمة، فقلت يوماً -وقد خطر على بالي:-كيف اكتنى هذا العلج الألكنُ بأبي خزيمة؟ ثم رأيته فقلت له: خبرني عنك، أكان أبوك يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فكان لك مولىً يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فكان في قريتك رجل صالح أو فقيهاً يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فلم اكتنيت بأبي خزيمة، وأنت علج ألكن، وأنت فقير، وأنت حارس؟ قال: هكذا اشتهيت. قلت فلأي شيء اشتهيت هذه الكنية من بين جميع الكنى؟ قال: ما يدريني قلت: فتبيعها الساعة بدينار، وتكتني بأي كنية شئت؟ قال: لا والله، ولا بالدنيا وما فيها!) [1].

يعلق الجاحظ على تلك التصرفات الغريبة التي نشاهدها نحن في حياتنا ونحتار كما احتار أبو عثمان في شأنها، ونحكم على أصحابها بأنهم أشخاص ذوو نفسيات قلقة غير مستقرة متوترة، تجدها كل يوم في شأن جديد تتخذ قراراتٍ غير مسؤولة في أمور تكون غاية في التحسس، وربما كانت قرارات مصيرية فما تلبث أن تسير فيما كانت قد اتخذته لنفسها، حتى ينتابها الندم على ما صنعت دون وعي

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 3 ، ص 28)

منها ودون هدف منشود، وربما فوضت غيرها باتخاذ قراراتها في حياتها، فيعرض الجاحظ لنا بعض أفراد المجتمع وكان قد بدل مكان سكنه وكان يسكن في بيت وموقع مريح ممتع، لكنه ارتحل إلى موقع أقل راحة ومتعة، ثم لمّا استهجن الناس، والجاحظ منهم ذلك التصرف أخذ يحاور الرجل كعادته إلا أنه لم يجد عنده قولاً مقنعاً، ولم يكن يعرف إجابةً غير أنه سكن في ذلك المكان فقط. والجاحظ إذ يعرض لنا مثل تلك الشخوص في كتاب علمي قيّم ما عرضها عبثاً ولم تأتِ تلك المعلومات حشواً في الكتاب، وإنما أراد منها الفائدة للقارئ، ويتحدث عن أصحاب تلك النفسيات التي تعاني المرض والهوج في حياتها.

ولم يتوقف الجاحظ في إيراد الغرابة والشذوذ عن الطبع المألوف في كتابه، بل عرض أشخاصاً ذوي أذواق عجيبة وأمزجة في أكلها وشربها وشمها، وحتى في سمعها، أو قل في كيفية استخدامها لحواسها فيعرض قصة لصديقين كانا شغوفين بشم رائحة التيوس على شدة نتن وقذارة تلك الرائحة، التي تنفر منها النفس السويّة المعتدلة في ذوقها وإحساسها (وإنّا لندخل السكّة وفي أقصاها تيّاس، فنجد نتنها من أدناها، حتى لا يكاد أحدنا يقطع تلك السكة إلا وهو مخمّر الأنف. إلا ما كان مما طبع الله عز وجل عليه البَلَويّ وعلياً الأسواري، فإن بعضهما صادق بعضاً على استطابة ريح التيوس. وكان ربما جلسا على باب التيّاس، ليستنشقا تلك الرائحة، فإذا مر بهما من يعرفهما وأنكر مكانهما، ادّعيا أنهما ينتظران بعض من يخرج إليهما من بعض تلك الدُور)[1].

وقد عرض الجاحظ عدداً كبيراً من الأفراد الذين يتصفون بشذوذ في أذواقهم وطرق تفكيرهم، ونجده يعرض الشّواذ في الجنس والذين انحطت نفوسهم وانحدرت إلى الدرجة البهائمية، جرياً وراء شهواتهم، وقد عرض أبو عثمان لهؤلاء الناس قاصداً عرض المشاكل النفسية التي يعانون منها، حيث أرّق الجاحظ مثل هذه الفئات الشاذة في حياتها؛ حتى أنه يوليهم جلّ اهتمامه وقد كتب في ذلك رسالةً أسماها (مفاخرة الجواري والغلمان).

---

[1] (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج5 ، ص466-467) .

لقد أورد الجاحظ كل ما اعتقد فيه عجب وغرابة، وما أورده من ملاحظات في دقائق السلوك يظهر قدرةً فائقةً منه على التغلغل في أعماق النفس البشرية وسبر تلك الأغوار؛ لإزالة الستر التي قد عانى أصحابها في إنشائها؛ لتغطية ما قد يفضح ويكشف النقاب عن أمراضهم المتأصلة وذلك لأنه (يعتبر رائداً في القصص النفساني العربي رائداً يتمثل فضله بمجرد السبق وبالتكرار وإنما يصح القول في أنه قفز بالقصص إلى المستوى الإنساني والفني في الأدب العربي القديم بحيث لا يدانيه في ذلك إلا أبو حيان التوحيدي تلميذه المتشبع بأدبه)[1].

1. 6 علم نفس الحيوان

لقد تنبه الجاحظ في درسه النفساني، وعن طريق اللمح غير المباشر وبذكائه الحاد إلى ما في نفس الإنسان من غموض وتعقيد، تختلف وفقاً له أحوال المرء لما في نفسه من تضارب وتناقض حتى يصبح لغزاً مثيراً عصيّاً على الفهم والتحليل. كما بين الجاحظ أصنافاً من الناس يمتازون بالغرابة المفرطة والعجب التام والشذوذ الخارق الذي يبلغ حد الحالة المرضية، وعلى النقيض من ذلك عرض الجاحظ نفسيات غايةً في السذاجة والبدائية والبساطة، ومن هذا الباب والمفهوم نجد الجاحظ يلج إلى عالم الحيوان؛ ليدرس سلوكياته، ويراقب حركاته، ويفصح عن عالم عجيب في تصرفاته ليكون لأبي عثمان أيضاً السبق في علم النفس الحيواني ودراسة سلوك الحيوان رغم أنه علم حديث العهد، غير أن أبا عثمان سبق وألف في القرن التاسع الميلادي كتاباً مليئاً بالملاحظات النفسية عن الحيوان يمكن اعتبارها بذوراً لذلك العلم.

لقد أقام الجاحظ نوعاً من التفرقة بين الإنسان والحيوان على أساس الفصاحة والعجمة وليس على أساس النطق والصمت، فالجميع ناطق، وقد بنى أفعال الحيوان على الغريزة، وبنى أفعال الإنسان على الذكاء والتدبر والتفكر، ونجده يبحث في ملاحظاته عن عالم الحيوان والنفس التي غدت اليوم علماً قائماً بذاته، ومن تلك البذور التي غرستها يد الجاحظ العالم العربي على بساطة أدواته ووسائله في

---

(1) البشير المجدوب، **القصص النفساني عند الجاحظ** ،حوليات الجامعة التونسية، ص108، عدد (12) ، 197، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

البحث، قد أقر مبدأ أساسياً، وهو أن الغريزة هي التي تسيطر على سلوك الحيوان في الدرجة الأولى وتسيره، وهي طبع فطرة الله سبحانه عليها تعمل بدقة تامة، وربما قامت منه مقام العقل الذكي لدى الإنسان.

وكما رصد الجاحظ في عالم الإنسان أشخاصاً تباينت طباعهم وتراوحت بين الخير والشر، وكذلك وجد تلك الخصائص في عالم الحيوان، فمن الحيوان مَن طبعه الشر الدائم، ومنهم المسالم، وبعضها يعرف بالمكر والحيلة والروغان، وبالفطنة والخديعة والرفق والتكسب والعلم بما فيه سلامتها والحذر مما فيه خطر عليها.

وعلى الرغم من أن الغريزة الحيوانية تسير الحيوان في معظم أموره، إلا أن هناك نوعاً من الحيوان لديه قابلية للتعلم والتدريب، شأنه في ذلك شان الإنسان كالحمام مثلاً الذي يمتاز بمقدرة على الاستدلال والحفظ والألفة للأوطان، ويستخدم في البريد دلالة على أنه ربما استدل بالعقل.

ومن خلال دراسة الجاحظ لأصناف الحيوان، ومراقبته له بعين الباحث اليقظ المتتبع، يرى أن الحيوانات تمتلك قدراً من الذكاء إلى جانب الغريزة والفطرة، وهذا القدر من الذكاء يتفاوت من حيوان إلى آخر، ويلاحظ الجاحظ الذكاء الحاد عند بعض الحيوانات في اصطيادها لفريستها، ويضرب لها مثلاً حية بَلعنبر التي كانت تنتصب كالعود في هاجرة النهار، وسط الرمال لتشعر فريستها وصيدها بأنها عود منتصب حتى يخيل للطيور أن الاستلقاء أو الوقوف على هذا العود المنتصب خير من حر الرمال، فتبقى تلك الحية ثابتةً ساكنةً لا تتحرك حتى إذا ما جاء الطير للوقوف على ذلك العود قامت الحية بابتلاعه من فورها، وتكون بذلك قد ضمنت قوت يومها بما دبرته من حيلة وما نفذته من خطة محكمة.

ويعجب الجاحظ مما وجده بتآزر وتعاون الحيوانات فيما بينها، وكيف أن لديها إحساساً بالحاجة لبعضها، فيصور تلك المواقف التعاونية بإعجاب، أو ربما عرضها لتكون أسوة لبني البشر الذين يسمون بأنفسهم عن هذا العالم في معظم الصفات، إلا أن بعضهم عند الجاحظ يسقط في حضيض التفاهات من الأمور مهلكاً نفسه نهماً وشرهاً وانسياقاً وراء الشهوات والرذائل، فالجاحظ يضرب أمثلةً رائعةً في التعاون لدى عالم الحيوان، فهو يراقب النملة تلكم المخلوق الصغير في حجمه،

الجاد في حياته سعياً وراء رزقه فهو لا ينتظر من يأتيه بقوت يومه، فتجد النملةُ الجرادةَ التي لا تستطيع حملها وحدها، فما تلبث أن تذهب طالبةً العون من أخواتها اللائي يسارعن للمساعدة فيأتي سرب النمل ليحمل الجرادة بكل جد وإخلاص في العمل.

ثم يأتي بقصص تبين عمق التلاحم والوئام والتآزر بين أبناء الجنس الواحد من الحيوان، فيسرد قصصاً تبين العطف والحنان ورقة الشعور بين الحمام في أشد ظروفه قسوة وصعوبة، ويقول في ذلك: (قال بابويه: كان عندي زوج حمام مقصوص، وزوج حمام طيار، وفرخان من فراخ الزوج الطيار. قال: وكان في الغرفة ثقب في أعلاها وقد كنت جعلت قدام الكوّة رفاً ليكون مسقطاً لما يدخل ويخرج من الحمام، فتقدمت في ذلك مخافة أن يعرض لي عارضٌ فلا يكون للطيار منفذ للتكسب ولورود الماء. فبينا أنا كذلك إذ جاءني رسول السلطان، فوضعني في الحبس، فنسيت قدر الزوج الطيار والفرخين، وما لهما من الثمن، وما فيهما من الكرم، ومُتُّ من رحمة الزوج المقصوص، وشغلني الاهتمام بهما عن كثير ممّا أنا فيه، فقلت: أما الزوج الطيار فإنهما يخرجان ويرجعان ويزُقّان، ولعلّهما أن يذهبا وقد كنت ربيّتهما حتى تحصّنا وورّدا – فإذا شب الفرخان ونهضا مع أبويهما، وسقطا على المعلاة، فإما أن يثبتا وإما أن يذهبا ولكن كيف يكون حال المقصوصين ومن أسوأ حالاً منهما؟! فخلّى سبيلي بعد شهر، فلم يكن لي هم إلا النظر إلى ما خلّفت خلفي من الحمام، وإذا الفرخان قد ثبتا وإذا الزوجان قد ثبتا، وإذا الزوجان الطياران ثبتا على حالهما، إلا أني رأيتهما زاقّين، إذ علامة ذلك في موضع الغبب، وفي القرمطتين. وفي أصول المناقير، وفي عيونهما، فقلت: فكيف يكونان زاقّين مع استغناء فرخيهما عنهما؟! ولا أشك في موت المقصوصين. ثم دخلت الغرفة فإذا هما على أفضل حال، فاشتد تعجبي من ذلك، فلم ألبث أن دنوَا إلى أفواه الزّوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرخ في طلب الزّقّ، رأيتهما حين زقّاهما، فإذا هما لما اشتد جوعهما، وكانا يريانهما يزقّان الفرخين ويريان الفرخين كيف يستطعمان ويستزقّان، حملهما الجوع وحب العيش، وتلهُّب العطش، وما في طبعهما من الهداية، على أن

طلبا ما يطلب الفرخ، فزقّاهما ثم صار الزّقّ عادة في الطيار، والاستطعام عادة في المقصوص)[1].

والجاحظ لشدة ولعه وإعجابه بهذا المشهد الرائع بين الحيوان، ينثر الكثير من تلك المشاهدات في كتابه، فيعرض حكاية عن شدة عاطفة الأبوة بين عصفور وفرخه، وكيف أن أطفالاً أرادوا اللعب، فوضعوا الفرخ داخل القفص إلا أن أباه حاول مراراً إنقاذه منهم فانتظر إلى أن يبلغ الفرخ أشده فطارا معا.

يتحدث الجاحظ كيف أن بين الحيوانات لغة تفاهم مشتركة يقول (ولها منطق تتفاهم بها حاجات بعضها إلى بعض. ولا حاجة بها إلى أن يكون لها في منطقها فضلٌ لا تحتاج إلى استعماله. وكذلك معانيها في مقدار حاجتها)[2]. ولعل الجاحظ أراد القول بهذه العبارة المألوفة وهي أن الحيوان ينجز أكثر من الإنسان، وأنه يعرف المقدار الذي هو بحاجته فلا يسرف حتى في منطقه، وكأن الحيوان صاحب تدبير وتفكير صائب، فهو لا يزيد في حديثه أو منطقه عن المقدار الذي يفيده، هذا وقد أورد النص القرآني وعلى لسان النبي (سليمان)-عليه السلام- كيف أن الحيوان له منطق خاص به يفهمه، وذلك حين أمرت النملة صويحبياتها بالدخول إلى مساكنهم كي لا يحطمنهم سليمان وجنوده ويقول في ذلك: (وقرأ أبو اسحق قوله عز وجل: ((وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطير فهم يوزعون* حتى إذا أتوا على واد النَمل)) فقال: كان ذلك الوادي معروفا بوادي النمل فكأنه كان حمى. وكيف ننكر أن يكون حمى؟! والنمل ربما أجلَت أمة من الأمم عن بلادهم... ثم قرأ ((قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم)) فجعل تلك الجَحَرة مساكن. والعرب تسميها كذلك. ثم قال: ((لا يَحطِمَنّكم سليمان وجنوده)) فجمعت من اسمه وعينه، وعرفت الجند من قائد الجند، ثم قالت: ((وهم لا يشعرون)) فكانوا معذورين وكنتم ملومين، وكان أشدَّ عليكم. فلذلك قال: ((فتبسم ضاحكا من قولها)) لِما رأى من بُعد غورها وتسديدها، ومعرفتها. فعند ذلك قال: ((رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي

(1) الجاحظ ، **الحيوان** ، ج 2 ، ص156

(2) الجاحظ ، **الحيوان** ، ج7 ، ص56

أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)) [1].

والجاحظ يعرض لنا مثلا على ذلك لجماعة السنانير التي تمتلك مجموعةً من الأصوات فكل صوت تخصصه لحاجة معينة..

ولم يقتصر حديث الجاحظ عن عالم الإنسان منفرداً في علاقاته النفسية، كذلك لم يقتصر الحديث عنده على العلاقة الحيوانية وحدها، بل جمع بين الإنسان والحيوان في علاقة حميمة مشتركة بين هذا الكائن الذي كرمه الله تعالى وأودع فيه العقل موطن التكليف والكرامة، إلا أن المبادرة في العاطفة والتعاون والحب كانت كما لاحظها الجاحظ صادرةً عن الحيوانات نحو الإنسان التي ألفت أصحابها وبادلتهم حبا بحب فلم تهن عليها صحبة الدرب، وبقيت تحمل الجميل فلا تخون عهد الصداقة مع الإنسان، وهو يمثل لذلك بكلب كان قد أنقذ صاحبه من الهلاك في حين كان السبب في هلاكه إخوانه من بني البشر فكانوا قد حفروا له حفرةً وألقوه داخلها، وقد رموه بركام التراب حتى غطوا رأسه تاركينه للموت المحتم، لكن كلبه شعر به فسمت نفسه وارتقت فأرشده الله بغريزته وفطرته حتى كان السبب في إنقاذه.

وتصدفنا قصة أخرى هي في غاية الغرابة، تحكي كيف أن كلبةً كانت قد هديت إلى إرضاع طفل صغير كان لبنها سبباً في إبقائه.

ويدرك الجاحظ كيف أن الحيوانات لديها قدرة على القيام بما يطلب منها إن أخضعت للتمرين والتدريب، فقد استخدم الفرس هذا التدريب الحيواني مع الفيل فقاموا بتعليمه السجود للملوك، فالفيلة كانت تفهم لغة الفيَّالين.

ثم يوضح الجاحظ كيف أن الحيوانات تحس وتشعر بأمور لم نكن نتوقعها، كإحساس الديك بالزمن، وقد تظهر هذه السمة بشكل مرهف عند بعض الحيوانات، فنحن نسمع الديك يطلق صيحاته في أوقات معينة من الليل يراعي فيها الدقة، وكأنه ساعة دقيقة يحسب الليل ثم يقوم بتقسيمه إلى فترات فيطلق تلك الصيحات مراعياً أوقات الليل بدقة، بحيث يعلمنا في تلك الصيحات كم مضى من الليل وكم بقي منه

---

[1] (الجاحظ ،الحيوان ، ج 4، ص 15-16)

والديك في العادة يقسم صيحاته على ساعات الليل سواء طال الليل أو قصر، حتى أن الجاحظ يشبه الديك لدقته بالإسطرلاب (ثم معرفة الديك بالليل وساعاته، وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته: يعرف آناء الليل وعدد الساعات، ومقادير الأوقات، ثم يقسّط أصواته على ذلك تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا. ثم قد علمنا أن الليل إذا كان خمس عشرة ساعة أنه يقسّط أصواته المعروفة بالعدد عليها، كما يقسطها والليل تسع ساعات، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء الحصص على حساب ذلك. فليعلم الحكماء أنه فوق الإسطرلاب، وفوق مقدار الجزر والمدّ على منازل القمر، وحتى كأن طبعه فلكٌ على حدة. فجمع المعرفة العجيبة والرعاية العجيبة)[1].

ويعلق علي بو ملحم على ملاحظات الجاحظ تلك بقوله:(والطرافة من ملاحظات الجاحظ لهذه الظاهرة تساؤله عن علّتها هل يصيح الديك لأنه ينكر شيئاً يقترب منه كما يفعل الكلب أو أنه يصيح لأنه سمع صوتاً شأن الكلب أيضاً والجواب لأنه يصيح في شئ في طبعه إذا قابل ذلك الوقت في الليل هيّجه فعدد أصواته في الوقت الذي يظن أنه تتجاوب فيه الديكة كعدد أصواته في القرية وليس في القرية ديك غيره)[2].

ومن صور التعاون ومن أصدق مشاهدات الجاحظ ودقة ملاحظته، وبلاغة أسلوبه ومدى قفزاته العلمية، وحرصه الشديد على إيراد كل ما يلاحظه ويعتقد بنفعه حتى لو كان حديثاً ذاتياً بين الجاحظ وذاته، فهو لا يبخل بتجربة عمره كله على قارئه، ومن ذلك ما صوره من عالم الحمام في أثناء تزاوجه ورعاية فراخه وبناء عشه، فما أن تبدأ حياته حتى نرى زوج الحمام معاً الذكر والأنثى يجدّان في بناء بيتهما وإذا ما شعر الذكر بأن أنثاه تهيأت لتصبح أماً فإنه يقوم بمعاونتها على بناء بيت هانئ دافئ مناسب لإقامة أسرة حيوانية مُهَيّأً لها ما تحتاجه من لوازم الحياة.

لقد سبق الجاحظ علماء الفسيولوجيا وأجرى تجارب على الكلب، وأجريت أمامه تجربةً على أحد الكلاب استخلص منها نتائج جاء العلم الحديث بعد الجاحظ بقرونٍ طوال ليؤكدها، فتعاد تجربة الجاحظ مع تغيير في بعض المصطلحات وبعض

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 2 ، ص241)

(2) (علي بو ملحم ، النواحي الفلسفية عند الجاحظ ، ص87)

الظروف، فلم يكن ثمّة فرق بين تجربة الجاحظ وتجربة القرن التاسع عشر الميلادي والقرن العشرين، ويعرض الباحث تلك التجربة بنصها حتى يكون القارئ على بينة من فحوى تلك التجارب. التجربة العربية والتجربة السوفيتية، وقد أوردت كتب علم النفس المعاصرة تجربة إيفان بافلوف ناسبةً الفضل للعالم الأجنبي ومن جاء بعده من أمريكان وغيرهم من العلماء الأفذاذ في هذا المجال، وتقول الكتب يرجع الفضل في نشأة نظرية الإشراط الكلاسيكي للتعلم إلى أبحاث العالم الروسي ايفان بافلوف من 1848 إلى 1936، فقد أجرى بافلوف تجارب على الجهاز الهضمي للكلاب، فلاحظ أن الكلاب في مختبره تبدأ بإفراز لعابها بمجرد سماعها صوت أقدام العامل الذي يتولى تقديم الطعام لها بصفة منتظمة، واستنتج بافلوف أن صوت أقدام العامل وهو مثير جديد ليس له صفة المثير الأصلي وهو الطعام، فقد أصبح يقوم مقام الطعام في استدرار لعاب الكلاب، وقد أرجع بافلوف ذلك إلى اقتران صوت أقدام العامل مع رائحة الطعام لفترة من الزمان وقد غيَّر بافلوف في ظروف التجربة فاستعاض فيما بعد عن صوت الأقدام بمثيرات تعتمد على الرؤية والسمع والشم، ويمكن التحكم فيها تدريجياً كقرع الجرس ورؤية الضوء، وقد أطلق بافلوف على المثير الأصلي (الطبيعي) وهو الطعام في هذه الحالة المثير غير المشروط؛ لأنه يؤدي إلى الاستجابة (اللعاب) في هذه الحالة دون شروط كما أطلق على المثير المحايد أو الاصطناعي المثير المشروط، وذلك لأنه يشترط لكي يؤدي إلى الاستجابة (إفراز اللعاب) أن يقترن لفترة مع المثير غير المشروط (المثير الطبيعي) وخلاصة تجربته هي كالتالي:

في البداية مثير غير مشروط (طعام طبيعي) يعطي استجابةً غير مشروطة (طبيعية وهي إفراز اللعاب)، ثم مثير اصطناعي (غير محايد صوت الجرس يعطي عدم سيلان اللعاب ثم المزاوجة والاقتران مثير غير مشروط طبيعي ومثير مشروط صوت الجرس يعطي استجابة غير مشروطة، ثم تكرار الخطوات أكثر من ثلاث مرات وهي اقتران المثيرين معاً الطبيعي والمحايد يصبح المثير المحايد مثيراً شرطياً، يؤدي إلى استجابة شرطية دون وجود المثير الطبيعي. ثم إحضار المثير

الشرطي دون مثير طبيعي لمرات متعددة تكون النتيجة النهائية انطفاء السلوك نهائياً.

أما تجربة الجاحظ فهي (وقد خبَّرني صديقٌ لي أنه حبس كلباً له ببيتٍ وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طبّاخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحدَّ سكينا بسكين، فنبح الكلب وقلق، ورام فتح الباب، لتوهمه أنَّ الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة، وهو يحد السكين ليقطع اللّحم!! قال: فلما كان العشيُّ صنعنا به مثل ذلك، لنتعرَّف حاله في معرفة الوقت فلم يتحرّك!!

قال: وصنعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق إلا قلقاً يسيراً، فلم يلبث أن رجع الطباخ فصنع بالسكين مثل صنيعي، فقلق حتى رام فتح الباب!! قال فقلت: والله لئن كان عرف الوقت بالرَّصد فتحرّك له، فلما لم يشمَّ ريح اللحم عرف أنَّه ليس بشيء، ثم لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب، وقد جيء باللحم فشمَّ ريح اللحم من المطبخ وهو في البيت أو عرف فصل ما بين إحدادى السكين، وإحداد الطباخ إنَّ هذا أيضاً لعجب. وإنَّ اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث والأذرع، فما أجد ريحه إلا بعد أن أدنيَه من أنفي وكل ذلك عجب)[1].

لقد تنبه الجاحظ للظاهرة التي بنى عليها إيفان فيما بعد تجربته ونظريته وهي التي تقول بإحساس الحيوان الدقيق بالزمن، وكما نلاحظ من قراءة التجربتين والنظر فيهما أن التشابه يكاد يكون تاماً، فقبل أن نبسط القول في أوجه التشابه والاختلاف بين التجربتين التجربة العربية والتجربة السوفيتية، لما لا يكون هناك افتراض أن العالم الروسي قد اطّلع على كتاب الحيوان للجاحظ وأخذ عنه هذه التجربة التي طبقها العالمان على الحيوان نفسه؟! ونحن كنا قد درسنا في الأدب المقارن تأثير حادثة الإسراء والمعراج الشريفين في الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي (دانتي)، وقد أثبت البحث التشابه الكبير بين ما ورد في السيرة النبوية الشريفة وما ورد بعدها عند دانتي في الكوميديا، مع تغييرات دانتي في ملحمته وفق أهوائه ومراده، فقد كان يضع في قعر الجحيم من أراد من السلف الصالح بعد أن

---

(1) (الجاحظ،**الحيوان** ، ج2 ، ص 120-121)

قرر أن يضع في الفردوس الأعلى من جنته من أراد من أتباعه وأبناء ملته نصرةً لما كان يؤمن به في عصره، وهكذا أثبت البحث التأثر والتأثير بين الثقافتين بالرغم من الفترة الزمنية البعيدة بين الحادثتين، أما الجاحظ وبافلوف فبينهما ما يقرب من أحد عشر قرناً من الزمان، فلم لا يكون إيفان وأمثاله من المهتدين بالتراث العربي والثقافة العربية بكتاب الحيوان وعلم النفس الحيواني لم لا نفترض أنهم قد اطّلعوا على حيوان الجاحظ فأفادوا منه الشيء الكثير، وربما أخذ إيفان فكرة التجربة بل ربما التجربة. كما أن الجاحظ كان قد روى وأفاد من خبرة سابقيه من طبقات العلماء والمفكرين من مختلف الأجناس في القضايا العلمية التي أثبتها في كتابه.

إن التجربتين تتشابهان في الهدف والمضمون وإن اختلفت وسائل العمل، مع أن الاختلاف ليس كبيراً فالطعام طعام سواء أكان جبناً أو لحماً أو خبزاً، إلا أن الجاحظ كان بالطبع يعوزه ما عند بافلوف والمعاصرين من أدوات مخبرية متطورة، ومع ذلك فقد استنتج الجاحظ من التجربة ما استنتجه إيفان وعلماء النفس المعاصرون، ونحن إذ نقرأ التجربتين معاً لا نكاد نشعر بالفرق الزمني والبون الشاسع بين الفترتين وما هذا العجب إلا أكبر دليل على اهتمام العرب المسلمين وأبي عثمان بشكل خاص بعلم سلوك الحيوان وطباعه ومراقبته مراقبةً دقيقةً، ثم دراسته عن قرب للخروج بنتائج يمكن تعميمها.

إذا فالجاحظ لم (يكن عمله هذا عبثاً لغوياً وتلهيةً) [1]، لقد أوضح الجاحظ ما يسمى بالفعل المنعكس الذي أسماه به بافلوف المنعكس الشرطي وهو نباح الكلب، كلما قدم له اللحم فلما استعيض عن ذلك بحد السكين الذي يقترن بحضور اللحم نبح أيضا ولو أن اللحم لم يحضر، ولكن الكلب نبح، وحاول فتح الباب لتَوَهمّه أن الطباخ قد رجع من السوق ومعه اللحم وهو يحد السكين ليقطعه به وهنا يحدث ما أسماه إيفان بالانطفاء وهو تكرار التجربة أكثر من مرة دون وجود المثير الطبيعي، وكأن الحيوان (الكلب) كان يدرك أن العالم يقوم بالتجريب عليه لتعديل سلوكه، قد

---

(1) داود سلوم، **النقد المنهجي عند الجاحظ** ، ص221.

افترض الجاحظ اقتران ذلك الانطفاء بمعرفة الحيوان الوقت وإحساسه به، وهو الوقت الذي يقدم له فيه الطعام أو اللحم وكأن الحيوان بات يعرف ويشعر ويقدر أنواع الوجبات التي تعد في كل وقت فما يقدم عشاءً لا يصلح لأن يكون غداءً أو إفطاراً وهكذا.

كل هذا يدلنا على أن الباحث العربي المسلم كان يجهد نفسه في سبيل الوصول إلى حقائق مخبرية، لم يتمكن من الحصول عليها غيره، بالرغم من ذلك العهد البعيد، وشح الإمكانيات، وعدم وجود الأدوات المتطورة الدقيقة مقارنةً مع علماء زماننا.

وهكذا فقد كان أبو عثمان رائداً في علم الفسيولوجيا وعلم النفس، يعلل الحالات النفسية التي تصيب فئات معينة من الناس؛ وعلى ضوئها يفسر تصرفاتهم كوصفه المطول للحالات النفسية التي تصيب المختنق والممرور، وما هي التخيلات التي تعرض له، وعلى ضوئها تفسر بقية التصرفات الصادرة عن ذلك الشخص. ثم صور أشخاصاً حاولوا إخفاء عيوبهم بقشور من العلم والمعرفة الكاذبة، إلا أن هناك مواقف وفلتات لسان تكشف ذلك الزيف والزيغ. كما عرض الجاحظ لأصحاب الأهواء والأمزجة التي على ضوئها يتخذون القرارات الهوجاء التي قد تقلب حياتهم رأساً على عقب، دون معرفة منهم بخطورة تلك القرارات أو لما اتخذت في غالب الأحيان، وهم عادةً يوكلون للآخرين المشاركة في صنع مصيرهم، وربما كان ذلك دون علم ومعرفة منهم فيكرهون ويحبون، وينصفون ويظلمون، وينصرون مذاهب واتجاهات دون أخرى عن جهل تام وغشاوة وضلال. ونجد الجاحظ يشير وينبه وبشكل غير مباشر إلى ما في النفس البشرية من غموض وتعقيد قد تختلف معه أحوال المرء وخواطره وقد تلتبس على المرء أحواله لما فيه من تضارب وتناقض، حتى يصبح لغزاً مثيراً عصياً على الفهم والتحليل.

كما تطل من بين ثنايا الحيوان أصناف أخرى غايةً في الغرابة، فهناك نفسيات تصيبك بالعجب المفرط وذلك لشذوذها الخارق الذي يبلغ الحالة المرضية، وتنزل على المستوى الذي كرمها الله به لتنافس الحيوان في البهائمية، وهذا مستوى دوني يلقي الإنسان نفسه به، مع أنه خلق ليكون وسطاً بين صورة الملاك الخالص

الذي أعده الله لأن يكون في هذه الهيئة وهي الطاعة التامة، وبين الصورة الحيوانية النهمة الشرهة التي لا يسيطر عليها العقل والمنطق.

وهكذا صادفنا في هذا الكتاب الموسوعي تنوع واختلاف وتباين في النفوس، وفقاً لتباين موضوعاته، وامتداداً يتناسب وسعة امتداده وانبساطه، فشاهدنا فيه النفسيات المعقدة والبسيطة الساذجة إلا أنها على بساطتها وسذاجتها كان يكتنفها بعض الغموض؛ فلا تعي نوازعها وميولها، فتعجز كل العجز عن تحديد سلوكها وتبرير اختيارها؛ لذا وقف أبو عثمان من تلك الأصناف موقف المحلل، والطبيب النفساني يوضح الحالة فيحدد العلاج، وفي أحيان أخرى نجده يُذهل وتنتابه الحيرة التي لا تقل عن الحيرة التي وضع قارئه فيها إزاء هؤلاء البشر.

ثم يلتفت أبو عثمان إلى عالم الحيوان–وهو موضوع كتابة الأساسي– ليخرج زبدة معارفه، وخلاصة تجاربه ومراقباته حولها ؛فيفسر كيفية تغذيته وتكاثره، ويرصد العلاقة الحميمة وعلاقة التعاون التي تسود في هذا العالم، منبها إلى ما قد يكون بينها من علاقة عداوة مبيناً كيف أنها تعتمد الغريزة التي حباها الله بها، مؤمناً بان لدى الحيوانات درجةً معينةً من الذكاء، مصوراً من عالم الحيوان نماذجَ تخضع للتدريب والتمرين؛ لأداء بعض الوظائف التي تناط بها كسجود الفيلة للملوك عند الفرس وحراسة الكلاب، ووجود الحيوان في المجتمع كوسيلة للعب واللهو والتسلية والفكاهة.

ثم يقوم أبو عثمان وبأسلوبه الخلاب بربط العالمين معاً: عالم الإنسان وعالم الحيوان، وذلك بما يكون من وشائج وأواصر قوية وإخلاص يفي به الحيوان تجاه صاحبه حتى ولو طال العهد بينهما؛ فكم من حيوانات كانت السبب في إنقاذ أصحابها من هلاك مؤكد! تلك العواطف التي كانت لدى الحيوان مما يجعلها تفيض على الإنسان فتحنو عليه، كالكلبة التي أرضعت الصغير بعد أن أهلك الطاعون أهل بيته.

وهكذا كان لأبى عثمان السبق في ميدان البحث في علم النفس، وعلم النفس الحيواني(علم سلوك الحيوان)، فله في هذا الحقل تجارب يقتدي بها علماء معاصرون حفظ التاريخ العلمي أسمائهم.

الفصل الثاني

الحياة الثقافية

2. 1 تمهيد:

عندما نأتي للحديث عن الحياة الثقافية في العصر العباسي، ولا سيما عصر الجاحظ، -ذلك العصر الذي تمتع أهله بحرية فكرية لم يسبق لها مثيل- فأننا نفتتح القول بعبارة لأبي عثمان، يحتج فيها على من زرى من وضع الكتاب، وهو يرغب أبناء عصره بالتأليف، والثقافة، بعبارة مكثفة يلخص فيها ثقافة العصر، أو شروط المثقف في ذلك العصر الذي انبسط فيه سلطان الفكر، وحلقت فيه العقول! وجاء مزيجاً رائعاً من ثقافات مختلفة. والجاحظ يصور عصره بهذه العبارة (وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا. على أنّا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا. كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا. فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول وصلح الدهر، وخوى نجم التقية، وهبتّ ريح العلماء، وكسد العيّ والجهل وقامت سوق البيان والعلم؟!)[1].

إن العالم في سباق كما وصف أبو عثمان مع التطور، والتثقف، والحضارة، فهو يختار لهذا العصر الذي بلغ شأواً بعيداً من المعرفة في شتى الميادين، يختار له أبناءه المثقفين، والذين يفترض فيهم الجاحظ صفة الشمولية في علمهم، وثقافتهم، ويفترض أن تتوفر فيهم صفة الإلمام؛ حتى يحققوا التوافق بينهم وبين متطلبات العصر الذي يعيشون فيه، فأبو عثمان يطلب من فئة المثقفين في كل حين ألا يكونوا ضيوفاً على عصرهم غرباء فيه.

ومما يدل أيضاً على ثقافة العصر-عصر المأمون والجاحظ وعصر ابن قتيبة- هو ما افترضه ابن قتيبه واشترطه على كتّاب عصره في مقدمة أدب الكاتب، والتي وضع فيها لوازم الكاتب والشروط التي يجب توافرها فيه، حتى يعد ممن يصلح لأن يكون ناطقاً باسم العصر العباسي، تعبيراً عن هيبة الدولة، وثقافتها، فهو

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، جـ 1، ص86).

يشترط على الكاتب، ويفترض فيه أن يكون موسوعة تمشي على الأرض! حتى إذا ما جاء للحديث، أو الكتابة عن أي موضوع رامه السلطان، أو الوزير، فلا بد أن يكون ملماً به، قادراً على الخوض فيه، ولا عجب؛ فالكاتب كان يحتل مكانةً راقية في ذلك العصر، وخاصةً كتّاب ديوان الرسائل فهم لسان الدولة المعبّر عنها.

إذاً، فلا بد للكاتب إضافةً إلى قدرته العالية في البيان، والمعرفة في أمور الكتابة من الإطلاع على جملة من العلوم التي تقوي موقفه، وتحفظ له هيبته، فيفترض فيه ابن قتيبة المعرفة في مساحات الأرضين، وأن يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحاد، والمنفرج، وكل الأشكال الهندسية. ويجب أن يكون عالماً بإجراء المياه، وحفر فُرض المشارب، وردم المهاوي، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص، ودوران الشمس، ومطالع النجوم، ووزن الموازين، ونصب القناطر، والجسور، وحال أدوات الصنّاع، وأن يكون عارفاً في الحديث الشريف، مضطلعاً في قضايا الفقه؛ حتى يقول (ولا بد له –مع ذلك– من دراسة أخبار الناس، وتحفّظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره، متمثلاً إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور) [1].

وهذا يدلنا على مدى التقدم الذي عرفه ذلك العصر، فالكاتب بالإضافة إلى كونه أديباً، أراده (ابن قتيبة) مهندساً زراعياً، وعالم فلك، ورجل فقه وتفسير، ثم راوياً لحديث رسول الله –صلى الله عليه و سلم–، إلى غير ذلك من صنوف الثقافة؛ حتى يكون قادراً على مواجهة ذلك السيل العرم من الثقافة التي غشيت الأمة، بعد أن توسعت في فتوحاتها، فحكمت العالم! وبسطت سلطانها ونفوذها.

إن هذا الوجود الثقافي، أو الترحيب بالثقافة، لم يأتِ عبثاً، لو لم يكن له محفزاته، ولو لم يتصدَ لذلك الحشد الثقافي من يُعنى به، فقد كان الخلفاء في طليعة الداعين إلى العلم، والتعلّم، والتثقف، فمجالس المأمون معروفة، وحلقات العلم التي كانت تعقد في دار الخلافة، إضافةً إلى الندوات، والجلسات الكلامية، التي كان المأمون نفسه يديرها، فشاع العلم، والمعرفة، وكثر التأليف، وأدت معرفة صناعة

---

(1) (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه، أدب الكاتب، ص14، حققه وحقق حواشيه ووضع فهارسه محمد الدالي، الطبعة الأولى، 1982، مؤسسة الرسالة، بيروت).

الورق، وازدهار التعليم، وكثرة الورّاقين، والمكتبات، إلى نهضة علمية، ثقافية، واسعة، في ذلك العصر. بعد أن كان معظم العرب في الجاهلية أميّين، وقلّ بينهم من يكتب، وكانت كتاباتهم على الرّق- وهو جلد يرقق لتغدوا عليه الكتابة واضحة -وقد كتبوا في الخِلاف، وعلى عسب النخل، وكتبوا على أكتاف الإبل، والغنم، وحتى انهم كتبوا القرءان الكريم على هذه الخلافات، والعسب.

وقد أدى ازدياد التأليف، وشيوع الثقافة الواسعة، التي كانت بحاجة إلى جمع، وتدوين، إلى تطوير أدوات الكتابة، حتى غدت هناك مصانع خاصة للورق، لا سيما بعد أن فتح المسلمون مصر، فعرفوا ورق البردي، وكثر استخدامه، وانتشر في أنحاء البلاد الإسلامية! وقد كان يفضّل على سائر أنواع الورق؛ لأنه لا يمكن محو ما فيه من مادة، وكان هذا الورق المصنوع من نبات البردي على أنواع، فكان على هيئة أدراج، مما شجع حركة التأليف. وقد ساعد ذلك على انتشار الكتب، والثقافة بشكل واسع.

وقد اهتمت الدولة العباسية بالعلم والتعلم ، مما أدى إلى ازدهار حركة الترجمة، وتبعاً لها زادت حركة التأليف، وحرصاً من الخلفاء على أهمية التعلّم، ظهر في ذلك العصر شكلان من التعليم: التعليم الشعبي، وقد أشرفت عليه وتبنّته الكتاتيب، وكان يغطي طبقتي العامة، والوسطى، التي كان أبو عثمان الجاحظ ينتمي لها، حيث كان تعليمه، وثقافته الأولى نتيجةً للكتاتيب التي بات يشرف عليها المهتمون بالعلم، وأصحاب الثروة. وكان هناك التعليم الرسمي، والذي شمل أبناء الخلفاء، والوزراء، فكان لكل خليفة مؤدب، ومعلم يشرف على تأديب أبنائه وتثقيفهم، وقد روى الجاحظ أنه تسلم دعوةً من الخليفة المتوكل لتأديب أبنائه، إلا أنه لمّا رأى من بشاعة خلقه كفّ عن ذلك، وفرض له مكافئةً؛ وهذا يدل على نهوض علمي واسع، شمل جميع فئات المجتمع.

وقد كان الأدباء من شعراء وكتّاب يحتلون مكانةً مرموقةً في العصر العباسي؛ لِما لكتاباتهم، وأشعارهم من أهمية (فقد احتل الشعر مكانةً كبيرة في حياة العرب الثقافية، وقلما يوجد باب من أبواب الحياة إلا وعبّروا عنه بأبيات من الشعر؛

فالشعر ديوان العرب، والشعر العربي يتضمن مقاصد مختلفة، تدل على أن الشعر كان يعبر عن الواقع الاجتماعي) [1].

وكانت ثقافة العصر العباسي، ثقافة عربية متجذرة في أعماق التاريخ العربي، رفدت بالثقافات الوافدة عليها من هندية وفارسية وتركية شرقاً وغرباً؛ حتى غدت مزيجاً مذهلاً يلزم المرء لاختراقه، والاندماج فيه، أن يكون معتداً بسائر العلوم كما وصفه أبو عثمان. والجاحظ هو ابن هذا العصر، رجل مثقف بذاته، كان ميالاً إلى العلم والثقافة بطبعه، سبّاقاً إلى مصاحبة الكتب، وهو الذي ما وقع بين يديه كتاب إلا وقرأه، فثقافته ثقافة متنوعة، واسعة، تحيط بجميع ألوان المعرفة الذائعة في عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول، وبحّاثة في اللغة، وبيانها، وآدابها! وقد خاض في رحاب العلوم، والمعان: ما كان منها عربي أصيل وما كان منها مترجماً دخيلا.

لقد كانت للجاحظ عقلية عميقة الغور، بعيدة الأهداف، قادرة على هضم واستيعاب ما عند الآخرين، كالحكمة، والفلسفة اليونانية، والآداب الفارسية والهندية، كما أفاد من تراث عصره، وآدابه، فكان مولعاً بالبحث، ناذراً نفسه للدراسة، والمطالعة، ولا عجب في ذلك، فنشأته الأولى كانت في البصرة! موطن العلم والثقافة، حيث الكتاتيب، والمساجد بأنواعها، وحيث العرب، والأعراب، والرواة، والأساتذة الجهابذة في كافة التخصصات، وحيث المربد، إضافة إلى الموهبة المتميزة، والتجربة الخاصة في حياته، في رحلاته التي كان لها أعظم الأثر في ثقافته، وحياته بشكل عام.

لقد أرشد أبو عثمان أبناء عصره من الكتّاب، والمثقفين إلى الإقبال على الثقافة العربية أولاً؛ فهي مصدر أصيل في ثقافته العامة، ومنبع غزير من منابع علمه، فلا عجب أن يكون رائداً للكتّاب، يدعوهم إلى كل مفيد، ويفترض فيهم النبوغ، والحذق في كل جديد، فقد كان هو (يبتكر، ويجدد، ويطرق نواحي مجهولة من جوانب الثقافة العربية، فكتب في الطب، والظواهر الجوية، والطبيعية،

---

[1] (إلياس فرح، **الصراع الفكري عند الجاحظ**،ص94، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق).

والأخلاق، وعلم النفس، وألف في المعادن، والأصباغ، كما ألفَ في التجارة والاقتصاد، وفي النبات، والحيوان، وله معارف بحرية غزيرة)[1]، لذا امتازت ثقافته بالغزارة والموسوعية، والاستطراد.

ونحن لا نعرف هل نطل على الحياة الثقافية من خلال أبى عثمان، أم أننا سنتعرف على أبي عثمان من خلال ثقافة عصره؟ (وقد كانت الثقافة العربية الأصيلة، والمقتبسة التي تجلت في كتب الجاحظ دليل عبقرية واضحة، وألمعية فكرية عميقة، وتجلت في ثقافة الجاحظ الموسوعية، التي أثرت في الثقافة العربية تأثيراً كبيراً، وقربته الفلسفة والعلوم إلى كل ذهن وعقل فقد صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية، مزج فيها كلام أرسطو بأشعار الجاهلية، وأقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء، وجعل اللغة العربية لغة الحياة المتجدد المتطورة، التي تنطق بكل علم)[2].

2 .2 نظرة الجاحظ للكتاب

لا غرابة إذ بدأنا فصلنا هذا بحديث الجاحظ عن الكتاب، والكتابة، فمن أولى من أبي عثمان بالحديث عن الكتاب!؟ أو قُل من وصف الكتاب، وتغنى به، وأولاه جلّ رعايته، مثلما فعل أبو عثمان؟ وهو الذي أمضى حياته ملازماً للكتب؛ حتى أن حكاية الطفولة التي وردت في كتابه الحيوان كان منشؤها، ومكانها الأول هو الكتّاب– أي مكان تلقي الجاحظ للثقافة الأولى، ولا يمكن الحديث عن شخصية الجاحظ بمعزل عن الكتاب، وقد رافق حياته منذ الطفولة وحتى الوفاة! في جميع مراحله: في حلّه، وترحاله، في طفولته، وشيخوخته في صحته، ومرضه، بل لا يمكن الحديث عن مرحلة من مراحل حياته، دون أن يكون الكتاب هو قائده ومرشده فيها. لقد طالع الجاحظ كتباً في موضوعات شتّى، فكان مولعاً بقراءة الكتب فلم تخلُ كتبه، ورسائله، من الحديث عن الكتاب، ووصفه، والحث على ملازمته.

أما في الحيوان فقط خصص الجاحظ فصلاً كاملاً في هذا الباب، يتحدث فيه عن الكتاب، وأهميته، وعن أهمية الكتابة، وضرورة التأليف، فللكتاب أهمية عظيمة

---

(1) (محمد عبد المنعم خفاجي، **أبو عثمان الجاحظ**، ص96).

(2) (محمد عبد المنعم خفاجي، **أبو عثمان الجاحظ**، ص98).

عنده، ويكفي الكتاب فخراً أن الله سبحانه نعت القرآن الكريم باسمه كتاب (ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين)[1].

لقد وردت هذه اللفظة (الكتاب) في عدة مواضع من كتاب الله؛ تعظيماً لشأن الكتاب المنزل من عنده سبحانه. وقد أرسل الرسول- صلى الله عليه وسلم- في بداية نشر الدعوة الإسلامية رسائل إلى ملوك الأرض، أطلق عليها أسماء الكتب؛ لأن الحث على الكتابة، والتدوين كان منذ نشوء الدولة، فلا ننسى كيف قبل -صلى الله عليه وسلم- أن يفتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة، والكتابة، وقد كان له عليه السلام كتّاباً يكتبون عنه القرآن الكريم، قد أطلق عليهم تشريفاً لهم (كتّاب الوحي)، و كان لكل خليفة مجموعة من الكتّاب يكتبون له، ومن أعظم الشواهد على جليل قدر الكتاب والتدوين، وعظيم شأنه أن الله سبحانه قد نسب تعليمه لنفسه عزت قدرته حيث قال خير القائلين: (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق* اقرأ وربك الأكرم *الذي علم بالقلم*علم الإنسان ما لم يعلم) [2].

وقد عدّ سبحانه وتعالى هذا الفضل من عظيم نعمه على نبيه الكريم، ثم على سائر العباد من بعده! وهذا بالطبع ولا شك يدل على جليل قدر الكتابة، وفوائدها التي ينعم بها الإنسان، ولا ننسى أن تلك الآيات الكريمة هي مفتاح الوحي، حيث هي أول آيات النبوة التي خاطب الله بها نبيه،-صلى الله عليه وسلم-، واختارها الله سبحانه ليصف بها ملائكته الأبرار (وإنّ عليكم لحافظين* كراماً كاتبين)[3]، ثم أقسم سبحانه بآلة الكتابة (ن* والقلم وما يسطرون) [4].

وقد حث الرسول عليه السلام على تقييد العلم، والمعرفة، والكتابة، فكان عليه السلام يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه، وملوك الأرض؛ يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل (عمرو بن أمية الضمري) إلى (النجاشي) في الحبشة، و(عبد الله بن حذافة) إلى (كسرى)، و(يحيى الكلبي إلى هرقل) و(حاطب إلى المقوقس) و(علاء ابن

---

(1) (سورة البقرة أية: (1)).

(2) (سورة العلق، من آية 1-5).

(3) (سورة الانفطار، 10-11).

(4) (سورة القلم، 1-2).

الحظرمي) إلى (المنذر ابن ساوه) ملك البحرين، وغيرهم من ملوك الأرض، وهذا بحد ذاته أمر ذو شأن يحفظ للكتابة قيمتها على مدى الدهر.

من هنا تتبين لنا أهمية الكتابة، والكتاب، الذي دافع الجاحظ عن وجوده أيّما دفاع، مستشهداً بأقوال الشعراء، والحكماء، في مدحه. وينقل قول (ذي الرمة) لـــ (عيسى بن عمر الثقفي): أكتب شعري؛ فالكتابُ أحبّ إليّ من الحفظ.لأن الأعرابيَّ ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضع في موضعها كلمة في وزنها، ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام)[1].

وقد بدأت منزلة الكتاب تعلو، وتحل محل الشعر في تسجيل المآثر، والمثالب، في عهد ربما كان مبكراً يرجع إلى أيام الأمويين. ثم أخذت معرفة الناس تزداد؛ مما أدى إلى إقبالهم على قراءة الكتب، وطلبها؛ تزامناً مع انتشار وتطور الحركة العلمية، فزاد الطلب على الكتاب، وتبعاً له زاد الطلب على الورق، فانتشرت صناعة الورق تبعاً لذلك (وقامت في البصرة سوق للوراقين، منذ أواسط القرن الأول الهجري، وكذلك أخذت الكتب تنتقل من طور التدوين المطلق، وأخذ العلماء يتجهون بعلمهم إلى تلاميذهم، وقرائهم معاً. كما أخذ الوراقون يلتمسون من كل سبيل مادة صناعتهم، فيجمعون من هنا وهناك، ما يرونه جديراً بإقبال الناس عليه)[2].

إضافةً إلى النشاط المتزايد في حركة الترجمة، التي أخذت تنقل أمهات الكتب السريانية، والفارسية، واليونانية، كما نقل (ابن المقفع) الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب (كليلة ودمنه)، كما نقل(ابن ماسرجويه) كتاب (الكنّاش) في الطب، أو كتاب (أهرن)، واحتضنت البصرة في ذلك العهد طائفة من العلماء، فأخذت العلوم العقلية تتوافد متسارعة إلى بلاد العرب، وما كان منهم إلا أن أقبلوا على احتوائها إقبال المتعطش إلى تناول العلوم؛ يعلّمون الأعاجم لغتهم الفصيحة، وينقل هؤلاء ما طاب من علوم قيمة؛ تزيد المعرفة العربية، حتى غدت مزجاً رائعاً ما بين ما هو عربي، وفارسي، ثم هندي! فخرج بحلته العربية، التي أصبغت عليه من الكنوز العربية، ودررها ما زاده وقاراً وهيبة.

---

(1) (الجاحظ، **لحيوان**، جـــ 1 ، ص41).

(2) (طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره**، ص143).

وجرت عملية الهضم والاستيعاب إلى كل ما هو وافد: سواء في ذلك اقتباس طرق التأليف، أو كيفية التنظيم، وحتى أنه كان هناك إقتداء في منهج البحث، حيث كان في تلك الكتب تبايناً لمنهج البحث المتّبع في كل موضوع، أو خطة تأليف، لا بد من السير عليها، حتى يخرج الكتاب بالصورة اللائقة للقراءة، وعلى الصورة المثلى للاستفادة منه.

لقد أقبل الناس في ذلك العصر على تلقي العلم، والمعرفة، حيث كانت الكتب من أهم مصادره، وأقبلوا عليه بمختلف طبقاتهم، حتى لم تعد الثقافة حكراً على طبقة بعينها. فالعلم، والمعرفة أصبحت في متناول الجميع، والتأليف غدا أداة تعبير عن سائر أفراد المجتمع بمختلف طبقاته، وفئاته، وفي عامة الشعب وخاصته. والجاحظ ابن تلك الطبقة الفقيرة المعدمة، الذي عانى في حياته ما عاناه من أجل كسب المال وتوفير قوته، وقوت أمه، فكما قد تعهدته أمه، وكفلته في طفولته، ووفرت له ما استطاعت من مطالب العيش، فقد رافقته الكتب صغيراً، ثم عملت على صقل شخصيته؛ فأخرجت منه أديباً مرهف الحس، ثم عالماً، وبحّاثةً في سائر العلوم العقلية، والنقلية؛ مما جعله في مصاف وطليعة أفراد ذلك المجتمع، فهو من خطب الخلفاء، والوزراء وده: إما معلماً لأبنائهم-كما روى عند دعوة المتوكل له- وإما جليساً، ومسامراً، كما كان من أمر ابن الزيات معه، وابن دؤاد، والمأمون نفسه، أو حليفاً، ينصر الدولة في حين من الأحيان. فقد وفى أبو عثمان للكتاب فأوفى الكتاب له، وما رأينا، أو قرأنا مثل هذه العلاقة الحميمية التي كانت بين الجاحظ، والكتاب، لقد أعز الجاحظ الكتاب، ورفع مكانته، فرفع الكتاب مكانه، وحتى أن الرواية الأكثر شيوعاً في وفاته كانت: أن الكتب نافست الموت على أبي عثمان، فنجده في كتابه الحيوان عقد فصلاً ليبين قيمة الكتاب، ويتغنى به، ويحثّ علماء، وأدباء، وكتّاب عصره، على الالتصاق به، وكأنه يقول: انظر أيها القارئ، كيف كنت! وكيف أصبحت! بفضل الكتاب.

وما تحيز لعلم دون غيره، أو كتاب، أي انه بسّط القول في سائر العلوم، ومختلف الفنون؛ فنجده في حيوانه يجعل منه معرضاً، وبروح الكاتب الذكي الذي يجعل له مخاطَباً يُعيبه في مجموعة كتبه، وما أظن أن هناك معيباً حقيقاً، فمن يعيب

على سبيل الحقيقة؟ بل أن أبا عثمان أراد أن يخلد ما كتبه في شبابه، وفي متوسط عمره من مؤلفاته في كتاب قد ألفه في أيام شيخوخته، وكأنه كان يعلم أن عدداً كبيراً من الكتب سوف تطالها يد الشتات، والضياع، وكانت رياح الغدر الهمجية قد أودت بكنوز المكتبة العربية في مراحل متعددة من سالف تاريخها! فأراد الجاحظ أن يطلع قارئه فيما سيأتي من زمن على ما قد ألف، وكتب، وما بذل من جهد في سبيل إعلاء شأن الأمة الثقافي، والعلمي، جاعلاً له خصماً يعاتبه، أو يحاوره، فيعدد أصناف كتبه، التي شملت موضوعات عالجت وجوه الحياة المختلفة.

ونحن إذ نستمع إلى أبي عثمان يمتدح الكتاب، فلا بد أن يكون منا آذان صاغية، وقلوب واعية، وعقول فطنة، فهو صاحب التجربة، وصاحب المعاني. فعندما يتحدث عن الكتاب، فإنه يصف صحبة درب، وعشرة عمر، فيعطي زبدة ما عنده من تجارب، ويعرضها أمام القارئ.

وربما أتى شغف الجاحظ العجيب بالكتاب من أن بيئة الكتب من أهم،وأخصب بيئات الجاحظ، التي أسهمت في ثقافته العظيمة التي نشهدها في مؤلفاته، (كما كانت هذه البيئة من أعظم البيئات أثراً في حياته العقلية، وفي توجيهه تلك الوجهة)[1]، ويعلل طه الحاجري ذلك الأثر العظيم البين للكتب في شخصية الجاحظ، كما يعلل ولعه الشديد بها، ودعوته اللحوحة لمجالستها، ودوام مطالعتها؛ في أن الكتب كانت من أول ما أتيح للجاحظ من مصادر الثقافة، والمعرفة، في حياته الأولى التي حملته على السير في الأرض، والتجوال في الأسواق؛ بحثاً عن قوت يومه، وهذا ربما أعاقه عن القيام بطلب العلم بشكل منتظم، في حلقات الشيوخ أو يتلقى منهم مطولاً، كما تمنى في بادئ أمره. وقد كان شجار بينه وبين أمه، يشهد على مثل ما أورده الحاجري، فكان ذلك رهين ما توفر لديه من فراغ؛ حيث وجد التفقه بالكتب، والأخذ عنها، مباشرةً، أمراً أيسر من الوسائل الأخرى، فأشار إلى ذلك في أكثر من موضع من كتابه (وليس يجد الإنسان في كل حين إنسان يدربه، ومقوماً يثقفه. والصبر على إفهام الريّض شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم

---

(1) طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره** ،ص 158.

اشد منه، والمتعلم يجد في كل مكان عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمول ذكره، وأيام حداثة سنّه!! ولولا جياد الكتب وحسنها، ومبيّنُها ومختَصَرها، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولَدخل هؤلاء من الخلل والمضرة، ومن الجهل وسوء الحال، ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره، إلا بالكلام الكثير)[1].

فهذه دعوة صريحة من الجاحظ إلى اغتنام الفرصة المتاحة للمرء لتثقيف نفسه؛ حتى ينأى بها جانباً عن تهمة الجهل، ومواطنه، حيث تمر بالإنسان فرصٌ لا تتكرر، فعليه أن يحسن اغتنامها، ويحسن التصرف بها، فلا بد من أن يعنى بنفسه منذ الطفولة الباكرة؛ لما لهذه الفترة الحساسة من العمر من أثر قوي في تكوين الشخصية، وبنائها البناء الأسلم. والجاحظ يعرض فترةً أخرى للتثقف، والدوام على صحبة الكتاب، وهي كما عبّر عنها أيام خمول ذكره: أي قبل أن يعرف بين الناس، فيصبح بعلمه مقصداً لهم، ومحجاً، فتغدو أوقاته ضيقةً لا تفي حاجة الناس من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ملازمة الكتاب هي التي ستلصق بالمرء تلك الصفة، فتجعل ذكره شائعاً، واسمه دارجاً بين أهم الطبقات، والفئات في عصره، كما حدث مع أبي عثمان، وهنا نجد الجاحظ الأديب المعطاء يقدم خير ما عنده مؤثراً على نفسه في كثير من المواضع؛ فهو لا يبخل على قارئه في إسداء النصح، ونقل التجربة النافعة.

والجاحظ لا يحكم على فائدة الكتب من خلال حجمها، وعدد ورقها، بل يدعو إلى النظر في مضمونها، والاطلاع على محتواها: سواء أكان مفصلاً، أو مختصراً، وهنا تذكّر هذه العبارة بقصته التي رواها مع صحبه، حين استوقف المرأة فاشترى منها بعض الصفحات، فسخر القوم منه، فما كان جوابه إلا: لو عرفتم قيمة ما في هذه الصفحات، لما أساءكم أو أضحككم هذا التصرف!.

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص87).

لقد تفنن أبو عثمان في وصف صاحبه، ورفيق دربه، وجادت عليه قريحته، وذائقته الأدبية، فأخرج ما عنده! وكيف لا ؟ فهو لا يعز أحداً أكثر من الكتاب، فكيف يتوانى في وصفه أو الترغيب فيه؟ فقد أراد من العلماء، أو من جميع الناس، الثقة والجزم، بأنه الوسيلة الأنجح في كل شأن، وفي كل حين، معززاً كلامه بأحاديث الرسول-صلى الله عليه و سلم- تارةً، وبأشعار العرب تارةً أخرى، وبآيات من القرآن الكريم، باحثاً في كل تراث الأمم التي عاش ثقافتها، مفتشاً في قصص القران ما يشير إلى الفوائد الجمّة للكتاب، وكأن الجاحظ كان يعلم أنه سيكون للكتاب منافسون ومزاحمون! فيما سيأتي من زمان، وكأن الجاحظ كان يعلم بأن تطور وسائل الإعلام: المفيدة، والضارة منها، ستكون إحدى أهم الملهيات والمبعدات عن الكتاب. لقد طاف أبو عثمان في بحور ثقافته؛ فأخرج ما يمكن أن يقنع بهذا الكنز الذي لا يقدّر قيمته إلا من صاحبه، وماشاه طويلاً، ويقول من قصة سليمان-عليه السلام- يوم اجتماعه بالمخلوقات من حوله (وتفقّد الطير فقال ماليَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين* لأعذّبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطانٍ مبين)[1]. فلم يلبث أن قال الهدهد: (فمكث غير بعيدٍ فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقينٍ* إني وجدت امرأةً تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ)[2]، وقال سليمان (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون)[3]، وقد كان عنده من يبلّغ الرسالة على تمامها من عفريت، ومن بعض من عنده علم الكتاب، فرأى أن الكتاب أبهى، وأنبل، وأكرم، وأفخم من الرسالة، على ظهر لسان وإن أحاطت بجميع ما في الكتاب، وقالت ملكة سبأ (يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتابٌ كريمٌ)[4]، فهذا مما يدل على قدر اختيار الكتاب.

لقد أخلص أبو عثمان للكتاب، فهو لا يجد متنزّهاً في الدنيا إلا بصحبته، وفي كنفه! ولا يشعر بالأنس إلا والكتاب بيده !وكأنه فقد ثقته بسلوى الناس، وأنسهم،

---

(1) (سورة النمل،آية 20-21).

(2) (سورة النمل،آية 22-23).

(3) (سورة النمل،آية 28).

(4) (سورة النمل،آية 29).

واستوحش قريبهم؛ فاتخذ من الكتاب أنيساً وصاحباً، ليجد أنه من الذخائر التي يفتخر الإنسان باقتنائها، ويعتز بحوزته؛ فيمضي مفصّلاً فوائد الكتاب بأنه: نعم المخبر لك عن بلاد الغربة، وإن الشغل فيه ومعه هو أشرف الحرف والمهن، كما أنه يراوح بين الجد والهزل، والضحك والمزاح، وكأن الجاحظ يصف كتابه الحيوان، أو هو يشير إلى أنواع الكتب، ويدعو إلى التفقه، وقراءة أنواع شتى من الكتب .ويجب ألا يقتصر الفرد على نوع محدود من الكتب؛ فيحصر نفسه وثقافته في صنف واحد من ألوان الثقافة، وهو في خطابه مع خصمه المفترض، وعلى لسان الحقيقة؛ يبين له ما غُيِّب عنه من أهمية الكتاب، فيعاتبه بهذا عتاباً مريراً، وحاداً، منتصراً لمؤلفاته (وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم، حتى عبتَ الكل بلا علم، ثم تجاوزتَ ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزت ذلك إلى نصب الحرب فعبت الكتاب، ونعم الذخر والعقدة هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء مليءَ علماً، وظرفٌ حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً)[1].

والجاحظ يبذل قصارى جهده في الترغيب باقتناء الكتاب، وتأليفه، والإكثار من الكتب التي من شأنها مساعدة الناس، وزيادة ثقافتهم، وهو يكرر هذا الحث في غير موضع من الحيوان؛ وكأنه يريد لجميع الناس أن يكونوا بالمستوى الثقافي الذي وصل إليه هو؛ وكأنه يريد منهم أن ينّعموا بما نعم به؛ ويريد من جميع الناس أن تغمرهم نعمة الكتب، وتحل عليهم بركتها، وهيبتها، فهو في هذا الحث يبدو إنساناً، وأديباً، كريم النفس، كريم الخلق والقلب، شعر بقيمة الكتب؛ فما أراد أن يُحرم منها عالماً ومثقفاً. ويكرر ذلك فيقول: (ثم رجع بنا القول إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على من زرى على واضع الكتب، فأقول: إن من شكر النعمة في معرفة مغاوى الناس ومراشدهم، ومضارهم ومنافعهم، أن يُحتمل ثقل مئونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخى إرشادهم، وإن هم جهلوا فضلاً ما يسدى إليهم، فلن يصان

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 38).

العلم بمثل بذله، ولن تستبقي النعمة فيه بمثل نشره. على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم)[1].

فهو من يرهق نفسه لإقناع أهل عصره؛ فيستخرج أروع ما عنده من تجارب سبعين عاماً؛ لينشرها، ويبثها في ذلك المجتمع، الذي أحبه، ودافع عن صلاحه، ورأى أن خير وسيلة لصلاحه هي أن يفقه أهله بثقافة من قبلهم؛ ليتأسوا به، فيزيد ما عندهم، وهكذا حتى لا يكون ذلك العصر حلقةً ضائعةً بين منظومة ثقافية! فكم من فترة زمنية تغدوا حلقةً مفقودةً، وسط أجواء ثقافية؛ فيخسر أهلها أن ينعموا بتراكم أمم حضارية! وذلك: إما لتعصبهم على ما عندهم فقط حتى ينفذ، وإما لعدم معرفتهم بكيفية الأخذ الذي يصقل النفوس، ويبني الأمم، ويشيد البنيان، ويظهر الإنسان، (ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلَّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيَرِها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلّا بهم، لقد خسَّ حظنا من الحكمة، ولضعف سبَبُنا إلى المعرفة. ولو لجئنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهده نفوسنا، لَقلَّت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخاطر فاسداً، ولكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل)[2].

ولما كان الجاحظ نصوحاً لقارئه، يطلعه على أفضل ما عنده، ويتمنى له صلاح الدارين، نجده يرتب الكتب حسب الأهمية، وهو يدرك جيداً أن العلوم الشرعية لها الأولوية في كل علم؛ فتعلُمها فرض على كل مسلم، فيجعل قراءة ومطالعة كتاب الله في أول أولوياته؛ لأنه خير الكتب، لذلك فإن الله تعالى لم يكتفِ بحفظ أعمال العبد من حسنات وسيئات في اللّوح المحفوظ فقط، بل جعلها في كتاب يتسلمه العبد يوم الحساب، وذلك: ترغيباً، وترهيباً، منه عز وجل؛ لما للكتاب من أهمية وهيبة في النفوس، ووقع عظيم في القلوب (وأكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطرا، وأحسن موقعا، كتب الله تعالى فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 84).

(2) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 85).

حكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف)[1].

ولأن الجاحظ متعلق بالكتاب نجده يعقد مقارنةً بين الكتاب وصاحبه، ويرى أن فضل الكتاب يفوق فضل صاحبه، ويتحدث عن قناعة وفكر إنساني عميق، فقد يفنى الإنسان ويذهب زمانه؛ لكن هذا الفكر حيٌّ أبداً، متجددٌ دوماً، يفرض نفسه على أجيال الإنسانية جمعاء. وهو في هذا الحديث يُعلي من شأن الكتاب على صاحبه، ويعدد ميزاته، وصفاته، التي يتحلى بها، ويبين انقياده، وطاعته لصاحبه! أو للإنسان بشكل عام! لا تقيده مصلحة. ولعلَّ الجاحظ وهو عالم النفس، كان يقصد من وراء ذلك إلصاق بعض الصفات والخصائص بالكتاب، مع حبه الشديد له أراد إسقاطها تلك الصفات على فئة معينة، كان هدفه نقدها بشكل مباشر، فهو من خلال مدحه للكتاب يذم طائفةً شنيعة الخلق! ما راق للجاحظ، -وهو الأديب المرهف الحس- أن تعترض طريقه، وتعكر صفو نفسه، (والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب... وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره ..)[2].

والجاحظ وهو يعدد مزايا الكتاب، تلمح في طيّات كتابه ما كان يعانيه، فربما أجبرته المعرفة وطلب العلم على ملازمة من لا يرغب لزامه، وكأني بالجاحظ يقول: أنه تتلمذ على أعاجمَ من فرس، وغيرهم، فصبر وجاهد من أجل الحصول على المعرفة، وذلك بأن يخضع لؤلائك الأعاجم، وهو عربي السلالة والأرومة! فيدعو إلى الاصطبار في مجال البحث، والعلم، حتى لو مرت بالمتعلم والباحث ظروف قاسية، كتلك التي عاشها أبو عثمان وعبر عنها، ودعا إلى الثبات أمامها؛ حتى ينال المتعلم والباحث بغيته، فطريق العلم والبحث شائك وصعب، ولا بد من العثرات، التي لا يحسن بالباحث التوقف عند أولاها، بل يجب عليه تذليل ما استطاع

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 86)

(2) (الجاحظ، الحيوان،ج1 ، ص 85)

منها، فهذه إشارة ودعوة من أبي عثمان إلى معشر المثقفين، والباحثين الذين فرّغوا أنفسهم ونذروها لميدان البحث.

ثم يبدو أن الجاحظ وخلال فترة تعلمه، كان مجبراً على مجالسة من وصفهم بالأغبياء، وسفهاء العقول، لكنه ثبت أمام كل تلك المشاق، في سبيل الحصول على المعرفة، وملازمة الكتاب، الذي يقول فيه:(وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه في أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم منه عرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء)[1].

والجاحظ كما سلف ينقد صفات لاحظها في عصره، وحاول نفيها مدحاً للكتاب وقد عانى الجاحظ من الحسد والنفاق، ورأى التملق للخلفاء، والأمراء، على عادة أهل الصنعة، أو المهنة الواحدة، وهذا أمر متجدد في كل زمان ومكان، ولم يقتصر على عصر الجاحظ وحده، فلا بد أن تكون فئة تعنى بهذه الوظيفة الخبيثة بكل وقت، (والكتاب هو الذي يطيعك في الليل كطاعته في النهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذي إذا افتقرت إليه لم يُخفِرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح الأعادي لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل، كان لك فيه غنى عن غيره، ولم تضطرّك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلاّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر ومن عادة الخوض فيما لا يعنيك، ومن ملابسة صغار الناس. وحضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية وجهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمة، وإحراز الأصل، مع استفادة الفرع)[2].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1، ص 51)

(2) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 51)

ويبدو أن الجاحظ ومن خلال مدحه للكتاب ينتقد أوضاعاً شاملةً في عصره، فنجده تارة ينتقد موضوعاً سياسياً، وتقلبات تعتري الأشخاص تبعاً للتقلبات السياسية، فيتخلون عن مبادئهم، ويناصرون من كان لهم به مصلحة، ويناهضون غيره، وهكذا تتقلب أهواؤهم!

وينتقد أبو عثمان أوضاعاً اقتصاديةً، وأجواءً ماديةً؛ جعلت من الناس يسيرون حسب علاقات مادية، آنيّة، طامعة، جشعة. ثم يلفت الجاحظ انتباه قارئه إلى ما يحدثه الكتاب من تغيرات، قد تقلب حياة الإنسان انقلاباً جذرياً في المستوى الثقافي، والمستوى المادي، على حد سواء لدى من يجالس الكتاب؛ فتنقله صحبة الكتب من حال إلى حال، حتى أنه يؤثر في الشريحة الاجتماعية الملتفّة حوله؛ فيغدوا المرء معه عالي القيمة والمكانة. (والكتاب هو الذي إذا نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّدَ بنانك، وفخّم ألفاظك وبجّح نفسك، وعمّر صدرك، ومنحك تعظيم العَوام وصداقة الملوك)[1].

والجاحظ ينوه بقيمة الكتاب الأخلاقية، أو الأثر الذي يتركه الكتاب في بناء أخلاق من يطالع الكتب النافعة المفيدة؛ فتكون المطالعة والدرس هي شغله الشاغل؛ بدلاً من الفراغ القاتل، الذي يسيطر على حياة عدد كبير من الناس؛ فيصبح شغلهم الشاغل مراقبة الآخرين، والانشغال بهم، وبهمومهم، فتلهيهم صغائر الأمور عن كبائرها؛ مما ينشر الفساد في المجتمع، فيصبح عرضةً لانتشار الشائعات المغرضة.

(لذا فالكتاب يعطي فائدته لمن يستحقها ويضن بها على غير أهلها فلقد يتلهى الفرّاغ والفكهون نهاراً أو ليلاً غير انه لا يؤثر فيهم لا خبرة بالحياة ولا نمو عقلي ولا رقي خلقي ولم اللجوء الذي يحطون به الكتاب هذه العقلية أم للعقلية التي يتناولون بها الكتاب، ونحس هنا أن الجاحظ يحيط الكتاب بجو قدسي)[2].

والجاحظ يعقد عدة مقارنات بين الكتاب والإنسان، وبين الكتاب والفن، وبين الشعر والكتاب، والكثير من موجودات الكون، ويرى أو يزعم: أن الكتاب

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 51)

(2) (مصطفى الصاوي الجويني، **الجاحظ يحكي عن الأدب في زمانه وعن العلم في كل زمان** ،ص126، 1969 ، العربي، العدد(133).

يتفوق عليها جميعا؛ فنجده أحيانا يضفي عليه صبغةً أسطوريةً، وصفةً خارقة القدرة؛ فيجعل منه قادراً على إتقان معظم الأشياء، بدرجات يفوق فيها غيره من الأشخاص، والأشياء الأخرى، حيث يقارن مثلاً بين الكتاب والبنيان، في تخليد الآثار، فأيهما اقدر على تخليد الآثار؟ ويرى أن البنيان قابل للزوال، فباستطاعة أي ملك أو حاكم أن يزيل آثار من كان قبله بكل سهولة ويسر، فتطمس تلك الآثار فلا يبقى لها وجود يذكر. (والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان)[1].

كما قارن الجاحظ بين الكتاب وفن الشعر، فيرى أن الشعر حديث الميلاد، وأن أصحابه قريبو العهد بالإسلام، ما بين 150إلى 200 عام، بينما كتب الحكماء كانت قبل بدء الشعر بدهور وأزمنة! ثم أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب، وأن حسنه سيضيع بترجمته! وليس كذلك الكلام المنثور. والحاجة إلى فنون العلم والصناعة، أشدّ وأعمّ منها إلى فن الشعر، وقد مثّل على ذلك بشعر العرب، فإن حكمة اليونان وآداب الفرس قد ترجمت؛ فزادتها الترجمة حسناً وجمالاً بينما الشعر العربي حينما يترجم فإن ذلك يفقده معناه ورونقه!.

والجاحظ خلال حديثه وإعجابه بالكتاب يشير إلى عالمية الثقافة، وإلى ضرورة الأخذ بثقافة الأمم التي سبقت حضارتنا، وثقافتنا بدهور، فهو لا يتعصب تعصباً أعمى إلى ما عند العرب دون الانفتاح والاطلاع على ثقافة الأمم، والأخذ بما يليق ويناسب ثقافة الأمة العربية، فهناك الكثير الذي يمكن الاستفادة منه، فالجاحظ ينظر إلى الحال نظرةً، إيجابيةً، مرنةً، تأخذ وتعطي في سبيل خدمة الإنسانية؛ فيدعو إلى قراءة الكتب على اختلاف أجناسها، وأعراقها، ما دام الكتاب يحمل علماً قيماً،

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 73).

نافعاً. (ومن لك بطبيب أعرابي، من لك بـرومي هندي، بفارسي يوناني، وبقديم مولَّد، وبميت ممتَّع، ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب)[1].

يمتدح الجاحظ الكتاب بإعجاب وإسهاب، ويبدو أنه فتح باباً من أبواب المعرفة والعلم، ما لو بقينا نناقش أطرافه ما فرغنا إلا بعد حين، فهو أحياناً يريد أن ينبه الناس إلى تجنب بعض الخصال المذمومة، ويعبر عن ضيق العالم بهؤلاء الذين لا شغل لهم إلا إفساد الناس، وتضييع وقتهم فنجده بأسلوبه اللطيف يشخص الكتاب؛ فيجعله رجلاً يحوز صفات الكمال! وهي الصفات التي أرادها أبو عثمان في بني البشر، أو على الأقل في طائفة من أبناء عصره، وممن كان لزاماً عليه التعامل معهم. (والكتاب هو الذي يؤدى إلى الناس كتب الدين، وحساب الدواوين مع خفة نقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكتَّه، وبليغاً ما استنطقته. ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمُّل له والتذمم منه. ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غِبَّاً، ووروده خِمساً)[2].

والجاحظ إذ يرغب البعض بالمضي في مجال تأليف الكتب، ويدعو المثقفين إلى ضرورة مواصلة مطالعتها، ويدعو المتعلمين إلى ضرورة الدرس والتفقه في الكتب على اختلاف موضوعاتها، نجده لا يعتمد فقط على رؤيته في هذا الأمر، علماً أن محبته للكتاب دليل قادر على إقناع من يخاطبهم؛ لكنه كعادته يدعِّم أقواله بما قاله الحكماء، والعلماء، وأهل الرأي والخبرة، في هذا المجال، فيستشهد بأقوال الأفاضل من العلماء؛ لتكون حجةً على من يقرأ لأبي عثمان، وهي حجةٌ دامغةٌ بأنه لم يترك باباً إلا فتحه في وجه قارئه، ولم يترك مسلكاً فيه إلا وعبره، يقول في ذلك: (وقال أبو عبيدة، قال المهلب لبنيه في وصيته: يا بنيَّ لا تقيموا في الأسواق إلا على زرَّاد أو ورَّاق وحدثني صديق لي قال: قرأت على شيخ شامي كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال: ذهب المكارم إلاّ من الكتب وسمعت الحسن اللؤلئي يقول: غبرت أربعين عاماً ما قِلت ولا بِت ولا اتكأت إلا والكتاب موضوع على صدري وقال ابن الجهم: إذا

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1، ص 39.)
(2) (الجاحظ ،الحيوان،ج1، ص 50).

غشيني النعاس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة_ قال: فإذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتب الحكم، فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الإستبانة. وقال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدتُه، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه-فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة انظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد- فقد تم عيشي وكمل سروري)[1].

ولن يكتفِ أبو عثمان بأقوال علماء عصره، بل غاص كعادته في بحار المعرفة؛ ليذكر أقوال من سبقه في رفعة وهيبة أهل العلم، فالعلم يعطي أهله وقاراً، وعزةً وهيبةً ثم راح يوثق كلامه بنصوصٍ من القران الكريم في فضل الكتاب والكتابة، بل أنه جمع كل ما يختص بأدوات الكتابة من قلم، ودواة، وقراطيسَ وورق وإلى غير ذلك من مستلزمات العلم والكتاب؛ فيبن أنواع الخطوط، ومزايا كل منها وفضله، للدلالة على قدر منفعة الخط، فيذكر ما قيل من شعر في الخطوط وأنواعها؛ فالشعر أحد مصادره الهامة التي كان شديد الاتكاء عليها!. ثم يتحدث بعد ذلك عن فضل القلم، فيقول: كيف أن الله وضع القلم في مكان رفيع! ونوّه بذكره في المنصب الشريف! فقد اقسم به سبحانه، والله -تبارك وتعالى- لا يقسم إلا بما هو عظيم عنده، فقال خير القائلين: (ن*والقلم وما يسطرون)[2]، والجاحظ يرى أن القلم أبلغ من اللسان؛ لأنه يلج ما لا يستطيع اللسان ولوجه؛ فطريقه إلى القلب أيسر؛ فيستخرج مكنونات القلب، ومستودعات العقل، وخبايا الذهن، واللسان على بلاغته وفصاحته، لا يتعاطى شاءه، ولا يشق غباره، ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بعد غايته.

لم يترك أبو عثمان فائدة للكتاب والتدوين بشكل عام إلا وضعها أمام قارئه بكل أمانة وإخلاص؛ فبيَّن ما للكتاب من منافع ثقافية، وبين دوره في صقل شخصية قارئه، ومتابعته، وأثره التربوي في المجتمع. كما أنه بيَّن أثره في مجال السياسة؛ لتوثيق المعاهدات والأحلاف، ونجده وهو الطبيب والمحلل النفساني أيضاً، يجد فائدةً

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج1 ، ص 52-53).

(2) (القلم : آية 1-2)

للكتاب ربما غابت عن أذهان الكثيرين، وهو العامل النفسي. وكيف أن الكتاب يمثل دواءً ناجعاً، وشافياً من الأمراض التي تعتري النفس!. ويقول في ذلك طه الحاجري (وقد أخذ الكتاب أيضاً غرضاً جديداً، فهو لم يعد حاجةً ماديةً أو عقليةً فحسب، يلتمس لولاية المناصب، أو لغرض المعرفة؛ بل أصبح فوق ذلك حاجةً نفسيةً تُلتمس للتنفيس والتسرية، وتلطيف أوزار القلق النفسي، والتطهرمن الأوضار الاجتماعية)[1].

أما في مجاله السياسي؛ فيورد أبو عثمان قوله: (وأقول: ولولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك، وكل إقطاع، و كل إنفاق، وكل أمان، وكل عهد وعقد، وكل جوار وحلف، ولتعظيم ذلك، والثقة به، والاستناد إليه، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان)[2].

ويصل الأمر بالجاحظ محبةً للكتاب، وفخراً به، أن الكتاب بات يملأ عليه دنياه، وغدا لا يرى شيئاً أكثر قيمةً، ومعزةً منه؛ حتى انتهى به القول إلى أن يعقد مفاضلةً بين الولد والكتاب، مع أن الولد هو الامتداد الطبيعي للإنسان، إلا أن الجاحظ يرجح كفة الكتاب على أي شيء آخر، حتى ولو كان الولد، وربما ذهب أبو عثمان هذا المذهب لأنه لم يكن له ولد؛ ليقدّر حاجة الإنسان له، أو أنه رأى في الكتاب الولد، والأهل، والعز، والعشيرة، والمال. (ولذلك تجد فتنة الرجل بشِعرِه، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته)[3].

وهذه دعوة صريحة من الجاحظ للعلماء في عصره، بأن يحافظوا على تلك التراكمية المعرفية، وأن يكونوا حلقة وصلٍ فاعلةً في عمارة الإنسانية؛ فبناء صرح العلم واجب، ومسؤولية عظيمة على عاتق من يحيى في هذه المعمورة، فكما استفاد المرء من حضارة وثقافة من قبله؛ فعليه لزاماً بأن يقدم لمن سيأتي بعده ما يوسعه لمواصلة طريق العلم. وعصر الجاحظ كما هو معروف، وكما ينعته، هو عصر تفقه، وعصر علم، والجاهل فيه لا مكان له، ولا ريب في ذلك؛ فهو أزهى عصور

---

(1) (طه الحاجري، **الجاحظ حياته وآثاره** ص150)

(2) (الجاحظ ،**الحيوان**،ج1 ، ص 69)

(3) (الجاحظ ،**الحيوان**،ج1 ، ص 89)

الإسلام ثقافةً، وحضارةً، ورقياً؛ لذا باتت المسؤولية عظيمةً على أهله. {وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا. على أنَّا قد وجدنا من العبرة أكثر ممّا وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا. فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمتنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التّقيّة، وهبت ريح العلماء، وكسد العيُّ والجهل، وقامت سوق البيان والعلم؟!}[1].

وهكذا رأينا كيف كان أبو عثمان شديد الحب للكتاب، فهو يُعدّ بحق من أوائل المفكرين العرب والمسلمين، الذين مضوا في هذا الطريق العلمي؛ إشارةً إلى أهمية الكتاب، والتشجيع؛ حتى أنه ليعد الأقوى في هذا الميدان لا ينافسه فيه قرين، ولا يجاريه فيه مجارٍ، فلم تكن تخلو رسالة أو كتاب له؛ إلا وقد زانه بهذا الحديث القيّم الثري. والجاحظ كما سلف وإن أوضحنا بطبعه، متقفٌ علّامةً؛ فقد أحب للجميع بأن ينعموا بما نعم به، وها هو كتابه الحيوان يتحدث في مقدمته، بما يزيد عن مائة صفحة عن أهمية الكتابة، وأهمية العلم، وعن عظيم فوائده، وعميم منافعه. ولأن للعلم قدراً، ومكانةً رفيعةً، ومنزلةً عاليةً؛ لذا فعلى العالم أن يكون غيوراً على العلم، سامياً على سفاسف الأمور؛ فالعلم يعطي صاحبه كرم الخلق، وشرف النفس، ورقي الروح، وطيب الخاطر، وإن كل هذه المعرفة بدواخل الكتاب وعوالمه لم تتأتَ لأبي عثمان بكل سهولةٍ ويسر، بل جاءت نتيجة التجربة الشخصية، والصحبة، والمعاشرة الطويلة للكتاب؛ فقد عرف الكتاب أكثر من معرفته لأي إنسان مهما كانت منزلته، وقربه منه، ومعرفته بها، فالجاحظ (نظر إلى الكتاب نظرة الخبير الواعي لما في باطن الكتاب من علم ومعرفة فأولاها قدراً كبيراً من اهتمامه ورعايته حتى لا تكاد تخلو رسالة أو كتاب له لا يتكلم فيها عن العلم وعن الكتاب وفضله وما له من أهمية بالغة للتأثير على العقول)[2].

لم يترك الجاحظ وسيلةً إلا تناولها، أمام محبي الكتاب، فحث على خدمة الكتاب بكل ما أوتي الإنسان من استطاعة، وأكبر دليل على تعظيم الكتاب، الإنفاق

---

(1) (الجاحظ، الحيوان،ج1 ، ص 86)

(2) (محمد سعد القزاز، الفكر التربوي في كتابات الجاحظ، ص197)

من المال الخاص، فخير الإنفاق، إنفاق مال لشراء العلم، الذي تحتويه الكتب؛ فيرى أن تلك أشرف نفقة، وأعظم بذل.

نعم، لقد أحب أبو عثمان الكتاب حباً كبيراً، وفضله على كل أمور حياته، وأشاد به في كل مجلس، وتغنى به في حله، وترحاله! وهذا ليس غريباً بالنسبة لرجل أمضى حياته بالدرس والمطالعة والتأليف، إلا أن هذا الإصرار، والحث المتواصل المستمر منه، لفئة القراء، والمثقفين، والكتّاب، على التمسك بالكتاب، ورعايته، له أسبابه، التي ترجع إلى طبيعة أهل العصر، ولا سيما فئة الجاحظ ،في زمن الجاحظ! (الكتّاب)، فلم تكن تلك الدائرة التي كان يدور فيها قلم أبي عثمان على ما تمنى و أحب ،لها أن تكون عليه؛ فقد وصلت إلى مرحلة ومستوىً ما كان للجاحظ، ولا غيره من مثقفي العصر، (كابن قتيبة) ليرضوا عنه؛ لذلك نجد أن أبا عثمان يرفض الانضمام لهذه الفئة في أكثر من موقف، فقد رفض الانضواء تحت تلك الراية في ديوان الرسائل العباسي، فعدم رضاه عن أدب الكتّاب وأخلاقهم، كان من أهم أسباب عدم بقائه في ذلك الديوان.

ويبدو أن جمهور الكتّاب كان مدركاً لتلك الحقيقة، وهي الفرق الشاسع بين ما وصله أبو عثمان و أحرزه، و بين ما كانت عليه جماعةٌ كبيرةٌ من الكتّاب؛ لذا كان دائم الاستهزاء بهم، ومنهم، حتى أن (سهل بن هارون) كان مدركاً لتلك الحقيقة، فمقولته الشهيرة (إن ثبت الجاحظ في ديوان الرسائل أفل نجم الكتّاب) لم تأتِ عبثاً، ويبدو أن الكتّاب كانوا على حال ومستوى غير لائق بهم. وكم كتب أهل الغيرة على العلم والعلماء كتباً خاصةً بهذا الشأن العظيم، فقد بات يأرق نخبةً من الكتاب- الذين عز عليهم ما وصل إليه الكتّاب من سوء الحال-فهذا ابن قتيبة يكتب كتابه (أدب الكاتب) فيعقد فيه مقدمة يعاتب بها كتّاب عصره، بأسلوب مهذب رقيق، إذا ما قورن مع ما كتبه أبو عثمان، وهو الذي لا يعرف المجاملة في مجال الحق، فقد كان سليط اللسان على أولئك الذين خرجوا عن الجادّة، فهذا (ابن قتيبة) في مقدمته، يشرح ويبين لِما نسج كتابه؟ فقد رأى أهل زمانه -وهو يمثل القرن الثالث الهجري- ينؤون ويبتعدون عن العلم، ثم هم يكرهون أهله، ويصف حالة تفرقهم، ووجد هذا التهافت المستميت على لذائذ الحياة، وشؤون الدنيا! حيث خوى نجم الخير، وبارت بضاعة

أهله، وتفشى الفساد، وصار العلم عاراً على صاحبه، ولم يعد الملوك ينفقون أموالهم للعلم، وأصبحت الأموال تنفق في غير وجه حق، وعلى سفاسف الأمور وتافهها، وماتت طموح الأدباء والكتّاب! فحطت مآربهم، وهوت غاياتهم، وسقطت همم النفوس، فكانت أبلغ غايةٍ يمكن أن يطمح إليها الكاتب، وترتقي إليها نفسه، هو أن يكون جيد الخط، حسنَهُ وانصرف الشعراء لوصف الكؤوس، والقيان، ومجالس اللهو، والخمر، وتفننوا في ذلك أيّما تفنن، واكتفى العلماء بمطالعة شيء من الكواكب، وقليل من علم الكون، ثم أخذ الجهلة يتبارون في أيهم يعترض، ويطعن على كتاب الله تعالى دون علم ومعرفة؛ فهؤلاء كما وصفهم ابن قتيبة هم جهلة القوم، وأسافل الناس.

2. 3 الترجمة

لم يكتف أبو عثمان وهو الأديب النصوح لأهل عصره ومجتمعه بأن يحثهم حثاً شديداً على اقتناء الكتب والإنفاق عليها ما استطاعوا لذلك سبيلاً، والإنكباب عليها تفقهاً وعلماً لتغدو ذخيرةً ثقافيةً نادرةً، بل أننا نجده يتعمق إلى أكثر من ذلك فيبحر في ثقافة العصر العباسي عصر العلوم والزخم الثقافي، لينظر في ما حوله من كتب مترجمة في ذلك العصر ليدلي فيها بدلوه، ويقول رأيه الحكيم الذي ما استغنى عنه أهل عصره أبداً، فقد بلغت موجة الترجمة في ذلك العهد ذروتها،بينما نجدها في سالف العهد لم تأخذ ذلك الحد من التطور والشيوع ونحن نعلم أو كما قرأنا أن فكرة الترجمة لم تكن ترى الشمس كفكرة عميقة فقد كان بصيصها يبدأ من زمن الرسول- صلى الله عليه وسلم-، أما قبل ذلك فلم نرَ لها وجوداً يذكر لما جاء الإسلام وجاءت الحاجة الماسة إلى معرفة لغات الأمم التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمل بدخولها الإسلام، بدأ يأمر صحابته بتعلم لغة الغير كتابة وقراءة ففي صحيح الترمذي عن زيد بن ثابت قال: (أمرني رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أن أتعلم له كتاب اليهود قال: إني والله ما آمن يهود على كتاب فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب يهود كتبت إليهم وإذا

كتبوا إليه قرأت له كتابهم)[1]. ثم وفي الجانب الآخر تعلم المسلمون الجدد أو من دخل حديثاً في الإسلام العربية، لتبدأ وبشكل مبسّط منذ ذلك التاريخ أي منذ فجر تاريخ الأمة الإسلامية حركة الترجمة المزدوجة، فلابد لمن رضي بالإسلام ديناً من تعلّم العربية، حتى يقرأ كتاب الله سبحانه ويفهم حديث رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-،وهكذا بقيت أيام الأمويين تسير بخطى بطيئة متخوفة مما عند الآخرين، حريصةً على اللغة العربية والثقافة العربية إلا ما كان من بعض الترجمات التي حفظتها لها الكتب كترجمة كتاب "أهرُن في الطب" على يد "ماسرجويه" زمن عمر بن عبد العزيز وبعض النقولات البسيطة التي لم ترقَ إلى المستوى الذي سنشاهده في عصر التطور والنمو بل والازدهار الثقافي بعد أن دعت الحاجة السياسية والحاجة الثقافية التي كان العباسيون يصبون إلى إدراكها بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأمم، ورأوا ما عندهم من ذخائر علمية ثقافية، فأحبوا أن يكونوا هم حملتها للعالم الإسلامي والعالم أجمع، ولا عجب في هذا فقد تميزت تلك الفترة من تاريخ الدولة المسلمة بما يمكن أن نطلق عليه عصر ازدهار حركة الترجمة إلى اللغة العربية عندها تهيأت بغداد لتصبح مدينة للعلم والثقافة نتيجة لجهود المترجمين.

لقد عاش العصر العباسي تفوقاً ثقافياً منقطع النظير وزادت دائرة المعرفة ونال المسلمون والعرب حظاً وافراً من علوم وثقافة الأمم الأخرى، واتسعت دائرة علمهم في شتى المجالات، ولم يكن لذلك الازدهار الثقافي والشمولية العلمية أن يكون لولا أن توفرت الرغبة الجامحة لدى أفراد ذلك المجتمع، وأهل ذلك الزمان نحو التغير والتغيير والتأثر والتأثير والأخذ والعطاء من كافة الأمم، يقودهم في هذا الأمر خلفاؤهم وكبار العلماء والأدباء وأهل المعرفة والعلم، وقد كان تشجيع الخلفاء للعلم والمعرفة هو السبب والعامل الأكبر في أن تصل الترجمة إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار، فقد كان هناك الإنفاق المادي المستمر، إضافة إلى لغة التفاهم بين

---

(1) الترمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **الجامع الصحيح: سنن الترمذي**، المجلد الخامس، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر،الناشر المكتبة الإسلامية.

أبو داوود، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، 1969، **سنن أبي داوود**، إعداد وتعليق عزة عبيد الدعاس، ط 1، حمص.

القادة والشعب، وكان بعض الخلفاء علماء يقيمون للعلم وأهله أكبر الوزن، ويحيطون العلم وأهله بالحفاوة والاحترام، مدركين لحاجات الدولة ومقوماتها التي إن دُعمت وعززت العلم فقد يجعلها ذلك في الطليعة العلمية وإن هي أهملت ذلك درست معالمها، وبقيت اسماً ورسماً على خارطة التاريخ، أما دولة بني العباس في عصرها الأول وهو ما أطلق علية عصر الجاحظ فقد كانت تقود العالم أجمع، بدأت مدنية الإسلام تستقر بعد نشاط الفاتحين الذين جابوا العالم أيام بني أميه ليغدو البناء تراكمياً، فعندما كان الوقت قد حان لتعدد الثقافات في العصر العباسي الأول على وجه التحديد تعدداً ملحوظاً لم تتخطاه الخلافة العباسية على امتداد عصورها التي تلت ذلك العصر.

لقد شجع الخلفاء العباسيون حركة الترجمة في نواحيها المختلفة والمتعددة (إذ كانوا يشجعون الحركة العلمية في نواحيها المتعددة ويمدونها بمالهم وجاههم ويولون العلماء أحياناً المناصب العالية، ثم حذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء في ذلك)[1]، حتى غدا العصر كله عصر ترجمة وثقافة وعلم وزاد في ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى حيث كان الامتزاج بين العرب وغير العرب، والتفاعل الحضاري بين الفلسفة الإسلامية والحضارات الأخرى.

وقد بدأ الاهتمام العباسي بالنهوض بدولتهم منذ فجرها، فجهد الخليفة المنصور بتشييد بنيان العلم فشجع الأطباء، وسعى إلى استقدامهم إلى البلاد، وتابع الفلكيين وبناءاً على المعرفة الفلكية بنى مدينة بغداد فقد اتجه ميوله إلى معرفة ما عند الغير من علم، فأمر بترجمة الكتب من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية وشجع العلماء والباحثين على ذلك.

أما في عهد هارون الرشيد فقد نمت هذه الحركة وأدت رعايته واهتمامه إلى ازدهارها فنشطت الترجمة في عهده وعهد وزرائه البرامكة، وأنشئت دار الحكمة في بغداد وهي التي تمثل معهداً علمياً وجامعة تحتوي أنفس الكتب والمخطوطات، ونشط فيها عدد من المترجمين يديرون شؤونها وجلبت الكتب من بلاد الروم،

---

(1) (محمد سعد القزاز،الفكر التربوي في كتاب الجاحظ ،ص76).

وأرسل الرشيد البعثات والإرساليات العلمية إلى البلاد المفتوحة لإحضار النفيس من الكتب ثم قام بتعيين كُتّاب ذوي كفاءة لنقلها إلى لغة العرب. ومن أشهر المترجمين في ذلك العهد يوحنا بن ماسويه فقد كلّفه الرشيد بترجمة الكتب الطبية القديمة وغيرها (مما وجد بأنقرة وبلاد الروم حين افتتحها المسلمون ونصبه أميناً على الترجمة، ووضع له كتّاب حذّاق يكتبون بين يديه، وقد عاش طويلاً وله مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الأدوية)[1]، وتبلغ هذه الموجه الحادة ذروتها في عهد المأمون حيث يعد أول خليفة في الإسلام كانت له اليد الطولى في أن يستفيق على يده العالم، وأن توقظ العقول من رقادها، فقد تحولت في عهده خزانة الحكمة إلى جامعة أو معهد علمي يتوسع في أعمال الترجمة.

وقد كان هذا العصر-كما نعلم-عصر النزاعات الفكرية، وعصر النِحل وعصر المِلل والخصومات العقدية وعصر الشِقاق وعصر التباين فكراً وثقافةً وعادات وتقاليد، حتى ظهر التباين في الملبس والمأكل والمشرب، أمام هذا كله، كان أبو عثمان الجاحظ ينظر في عصره وفي أهل زمانه نظرة المتخوف والحريص على هذا الدين وهذه اللغة العريقة في تاريخها، والعظيمة في خصائصها مبيناً أن حركة الترجمة قد أسهم فيها الكثيرون من أبناء هذا الشعب الذي شكّل خليطاً من فرس وروم وهنود وسريان ونصارى ويهود معتزلة وإباضيّة وشيعة وزنادقة وبرامكة وغيرهم من أعراق ونِحل وفرق وديانات في عصره، لكي ندرك أسباب تخوفه من تبعات تلك الحركات التي غمرت الأمة بنفائس الكتب والذخائر النادرة فالعنصر الفارسي قد كان له الجهد الذي لا ينكر في هذا المقام فقد لعب الفرس دوراً مزدوجاً بالتأثير على الثقافة الإسلامية حيث قاموا من جهة بنقل ثقافتهم إلى الحضارة الإسلامية وقاموا بنقل ما زخرت به ثقافتهم من تأثيرات يونانية كما فعل ابن المقفع مثلاً فهو من أبرز من أسهموا بنصيب وافر في نقل الثقافة الفارسية إلى العربية فله إسهامات كبيرة في مجال الترجمة فقد ترجم في مجال التاريخ (الأدب الصغير) وفي الأدب (كليلة ودمنه) وترجم كتاب (فزار أفسانة)-وزندقة ابن المقفع كما نعلم لا

---

(1) (شوقي ضيف، **العصر العباسي الأول** ،ص111).

تخفى على أحد- هذا بالإضافة إلى أن اللغة الفارسية والثقافة الفارسية كانت سبيلاً للعرب يلجون عبرها إلى الثقافات الأخرى كاليونانية والهندية هذا إضافة إلى ما كان للمدارس من أثر عظيم في حركة الترجمة كمدرسة (جند ياسبور) التي أسسها كسرى أنوشروان وقد مثّلت معهداً علمياً للدراسات الفلسفية إذ كان لها دورها المهم في نقل التراث اليوناني إلى العربية ،إضافة إلى التأثيرات الهندية التي نُقلت إلى العربية في مختلف فروعها ففي مجال الأدب نجد الكثير من القصص الهندية التي تزخر بها المصادر العربية إضافة إلى مجموعة كبيرة من الحكم والأمثال الهندية.

لقد لعبت اللغة السريانية فيما مضى دور حلقة الوصل أو اللغة الوسيطة، وهمزة الوصل بين العربية واللغات الأجنبية إذ نقلت إلى العربية كتب في الطب وفي تاريخ الساسانيين وقد قاست بذلك النشاط مجموعة من الأديرة، والتي كانت أشبه بمدارس علمية فقد كانت تعقد فيها حلقات علمية في (حرّان) (والرها) (ونصيبين) وغيرها وكان معظم مترجميها من المسيحيين السريان اللذين سبقوا غيرهم في مجال الترجمة فقد نقلوا عن اليونانية كتبا في الطب والمنطق والرياضيات والطبيعيات وغيرها من الموضوعات الشائعة في الثقافة اليونانية، وقد أدى إلى هذا كله ذلك الانفتاح الفكري والحرية التي سادت خلال دولة بني العباس، إضافة إلى هذا الخليط من الشعوب ومن المسلمين الفرق المتعددة والنصارى واليهود والصابئة مع اختلافهم في النزعات ثم الزردشتية والمانوية، وبذلك تعددت العناصر غير العربية في الدولة العباسية فقد كان العنصر العربي إلى جانب العنصر الفارسي والعنصر التركي والرومي إلى جانب الزنجي، حتى غدت الدولة عندها خليطاً مذهلا ومعرضاً متنوعاً للنحل ومجالا خصباً لأصحاب الأغراض السياسية والدعوات السرية، فحق لأبي عثمان أن يقف هذا الموقف من المترجمين، وأن يغار على دينه ولغته من الدسائس والفساد، كما أنه عرض فيما عرض لجهود البرامكة في مجال الترجمة، هذه الفئة من الحكّام التي علا منصبها وتألق نجمها زمن الرشيد إذ تسلمت أعلى المناصب في الدولة، وهذا ديدن بني العباس، فكل خليفة يقرب إلى دفة الحكم حاشيته وصحبه الأقربين، فقد نشطت الترجمة بفضل تشجيع الرشيد والبرامكة بما كان يبذله من أموال عظيمة للمترجمين والباحثين، لذا فقد كان لهم إسهامات في جمع

الكتب وترجمتها، وتميزوا بميلهم الكبير لإحياء العلوم القديمة، واستطاعوا نقل الذخائر النفيسة إلى العربية، من رومية وفارسية ويونانية وهندية ومن كل الثقافات التي عرفت في ذلك الحين؛ فقد طلب خالد بن يحيى البرمكي إلى بطريق الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتاباً عن الرومية، وقد ترجمه برسمه، وقد وصف شوقي ضيف في كتابه العصر العباسي الأول جهود البرامكة العظيمة في مجال نشر العلم والثقافة، فقد كانوا في حينها أصحاب رأي ومكانة سياسية وإدارية، لذا كان من أهم مهامهم إعادة ترجمة الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم حيث أرادوها أكثر دقة وإتقاناً وفائدة فكان من ابرز المترجمين في حينها محمد بن جهم البرمكي وزادويه بن شاهويه وسهل بن هارون وكان لهم نقولاتهم الرائعة، التي أغنت الكتابة العربية أمثال عهد أردشير بن بابك (وأمثال سابور وكتاب هزار أفسانة وهو اصل من أصول ألف ليلة وليلة وقد نقل إبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ويُقال أنه نظمه في أربعة عشر ألف بيت ونُقل إلى الشعر العربي سيرة (أنوشروان) وقبلها سيرة أردشير وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسي واليوناني ودفعهم أيضاً إلى نقل التراث الهندي وترجمته)[1].

أضف إلى ذلك ما قامت به النِحل والفرق والاتجاهات والمذاهب في ذلك العصر من جهود في مجال العلم ومجال الترجمة، فكما أسلفنا فإن ثقافة العصر العباسي لم تكن حكراً على فئة معينة أو شريحة بعينها، فقد كانت حياتهم الثقافية مسرحاً لكل الفئات والأدوار، وتأثرت فرقة المعتزلة كغيرها بهذا السخاء والرخاء الثقافي، وكان لهم جهودهم أيضاً في سير العلوم، ولا ننسى الحظوة التي تمتعوا بها ردحاً من الزمان أيام الخليفة المأمون، فتمثل هذا التأثر تأثر الحضارة الإسلامية بالثقافة الأجنبية في نقل الأعاجم لذهنياتهم وأطوار تفكيرهم وموروثاتهم الثقافية والفكرية والسلوكية إلى العلوم وضروب المعرفة الإسلامية، وما تركته أفكار ومحتويات تلك الكتب المترجمة من تأثيرات عميقة في العلماء المسلمين، ومن بينهم

---

(1) (شوقي ضيف،العصر العباسي الأول، ص60).

المعتزلة وما شهده العصر من إفساح المجال لكل العناصر عربية وغير عربية وخصوصاً الفرس لممارسة الدور الأكبر على الساحة السياسية والاجتماعية والفكرية.

وأبو عثمان وهو الذي أمضى جُل حياته بين الكتب ومعها، وهو الذي ما وقع بين يديه كتاب قط إلا وقرأه، وهو الذي ما كان لينتظر الكتاب ليقع بين يديه فيقرأه فقد سعى إليه سعياً حثيثاً وأحبه حُباً عظيماً، بحيث أن الكتب لم ترضَ له بميتة إلا بين أحضانها، وهو الذي نشأ وترعرع في دكاكين الورّاقين- وهم من احتكر الكتب وكانت ملك أيديهم-، وكانوا يتحدثون في الترجمة عن علم ومعرفة ويقين بما هو نافع وما هو ضار، وقد نذر الجاحظ نفسه للدفاع عن العروبة والإسلام، فعاش صاحب رسالة (ونقرأ ما خلفه لنا الجاحظ فنحسب بأنه يعيش بيننا واحداً منا يعاني ما نعانيه ويحس بالخطر الذي نحس به)[1].

لقد أراد أبو عثمان للإسلام أن يقف شامخاً قوياً أمام الثقافات أصيلا عتياً أمام الرياح الهوج، لذا حث أبناء عصره أدباء وعلماء فقهاء ومفكرين على الإفادة الإيجابية من تلك الثقافات الأجنبية، وقد شارك برأيه وفكره فلم يكن معزولا عن أمته ومجتمعه وعن التيارات السائدة في عصره، ساعياً إلى الإصلاح ما استطاع غيوراً على العروبة والإسلام (وقد علق أصحاب الرأي في عصر الجاحظ بان وجوده في العصر يُعد نعمة على الإسلام والمسلمين)[2]، وهكذا فإن العرب المسلمين لم يستكينوا أمام هذه الموجات الثقافية، ولم يكونوا مجرد مقلدين متلقين للحضارة والثقافة الأجنبية، التي وقعوا تحت تأثيرها، كما أنهم لم يكونوا سلبيين في موقفهم منها وإنما أدركوا كيف يتعاملون معها فطبعوها بالصبغة العربية الإسلامية، وأخضعوها لفكر الإسلام حتى غدت علوماً عربية إسلامية فيما بعد.

ويرى أبو عثمان في الترجمة وفي نقل الفكر الأجنبي إلى الفكر العربي رأياً حصيفاً وسديداً، إذ هو أيضاً لم يقف مكتوف اليدين أمام ما كان يراه من ضعف في تلك الحقول، ولم تبهره ثقافة الأمم وتنسيه شخصيته وخصوصية لغته وثوابت ثقافته،

---

(1) (محمد سعد القزاز ،**الفكر التربوي في كتابات الجاحظ** ، ص 28).

(2) (المرجع السابق. ص69).

فهو يرى أن المترجِم لا يمكن أبداً أن يؤدي عن المترجَم له، إلا أن يكون بمستوى مؤلف الكتاب في المعرفة التي يترجمها إلى لغته، لأن هذه الحركة كانت قد لفتت نظر أبي عثمان فأخذ بذهنه اليقظ وقلبه الغيور على العربية وعلومها، يسجل ملاحظته وشروطها وحدودها حول المادة المترجمة، وكذلك تحدث ملياً عن الأشخاص الذين يقومون بهذه العملية فجاءت تأملاته وملاحظاته بداية ونواة لنظرية الترجمة عند العرب.

إن من الخطوط الأساسية التي أكد عليها الجاحظ في الترجمة تظهر في التأكيد على أن الاتجاه النقلي في الترجمة يجب أن يدفع المترجم إلى التقيد بأصول اللغة المنقول إليها واللغة المنقول عنها، على أن يكون الناقل يعلم لغة المنقول عنها علمه باللغة المنقول منها، وهنا لا يُلام أبو عثمان في هذا الحرص، فالعهد بين الأعاجم وتعلّم العربية كان جد قريب لا يمكنهم من تعلم أسرار العربية وإدراكها إدراكاً مؤكداً بهذه السرعة، التي تمكّن المترجم من أداء عمله دون حصول ضعف أو خلل ما فهو يرى (إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قاله الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده، ولا يقدر أن يفيها حقوقها ويؤدي الأمانة فيها، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها، في علم مؤلف الكتاب وواضعه)[1].

فالجاحظ يرى أن الترجمة أمانة يجب أن تؤدى على أحسن وجه، كما أنها صناعة ومهنة وهو يريد المحافظة على شرف المهنة، فمن يتصدى لهذا العمل يجب أن يبذل فيه جهداً جباراً فطريق الترجمة في ذلك الحين وعر وصعب، فهو نقل لحضارات أمم وثقافة أجيال نقلاً تتوارثه الأجيال حيناً بعد حين، وهي درجة متينة في سلم الحضارات.

وبالرغم من إن حركة الترجمة كان لها أثرها العظيم في ازدهار ونمو الحضارة العباسية، إلا أن التراجم ما خلت من بعض الشوائب والضعف والإبهام

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج1، ص 76).

والغموض، فالإبهام في النصوص والكتب المنقولة كما لاحظ أبو عثمان فيما قرأه من كتب أنها تحتوي على تأويلات وتفسيرات لا يقبلها العقل، وهي في معظمها عارية عن الصحة، فالتفسير السيئ يبدو انه كان شائعاً ومألوفاً، وربما كان مرده لقلة المعرفة لتقنيات وخصوصيات اللغة لا سيما العربية،التي حرص الجاحظ على أن لا يدخلها شائب، ولا يعكر صفوها خلل، أو ربما نقل هؤلاء المترجمون عن مخطوطات لم تكن هي الأصول، وكانت معرضةً لما وقع به النُساخ من أخطاء وإسقاطات: بعضها متعمد وبعضها غير متعمد في أصول تلك الكتب، وهذا هو أهم سبب يجعل أبا عثمان قليل الثقة بالمترجمين، مما جعله أيضاً يفصل بالأسباب التي جعلته يأخذ منهم هذا الموقف الشاك المرتاب بما يترجمون (وإن كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال. وما علم المترجم بالدليل عن أشباه الدليل؟ وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وإسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ وقد علمنا إن المقدمات لابد أن تكون اضطرارية، ولابد أن تكون مرتبة، وكالخيط الممدود)[1].

ونلاحظ أنه كان في كتابه الحيوان العالم الحاذق، الذي كان يرد الكثير من المواد العلمية، التي كان البعض يعتقد بأنها غدت مسلمات ولا سيما وإن نقلت عن كتب الأوائل، فأبو عثمان وقف من كل ذلك موقف العالم المجرِّب المتقصي للحقيقة، فهو في حيوانه وقف إزاء ما عرضه أرسطو من حقائق مفنداً لها ،مبيناً خطأ (أرسطو)، فلم يُقبل على الثقافة الدخيلة إقبال الأهوج ينقل دوماً علماً ومعرفة مبهوراً بكل ما هو دخيل، بل أنه عرضه على محك العقل، وعلى هذه الشخصية التي علمتها الحياة وصقلتها طول التجارب (وزعم صاحب المنطق،في كتاب الحيوان، أن ثوراً فيما سلف من الدهر سفد وألقح من ساعته بعد أن خُصي. فإذا أفرط المديح وخرج من المقدار، أو أفرط التعجب وخرج من المقدار- احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان، أو بالخبر الذي يكذب مثله،وإلا فقد تعرضت للتكذيب. ولو جعلوا

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج1، ص78).

حركتهم خبراً وحكاية، وتبرءوا من عيبه–ما ضرهم ذلك ،وكان ذلك أصون لأقدارهم، وأتم لمروءات كتبهم)[1].

ومن أهم ما جعله يشك من بعض ما أورد صاحب المنطق، هو عدم ثقته بالمترجمين، فقد كان يعزو في كثير من الأحيان الخطأ إلى زمرة المترجمين، معتذراً عن (أرسطو)، فهو إن أنكر شيئاً لا يتفق، ومنهج الفيلسوف، وطريق تفسيره، علل وقوعه بسبب جهل المترجمين (ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق... ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه)[2]، فقد بلغ من إنكاره أقوال المترجمين حد السخرية العنيفة أحيانا ولذلك فهو يقول ساخراً (فكيف أسكن بعد هذا إلى ما في كتاب رجل لعلهُ لو وجد هذا المترجم أن يتيمه على السطبة ويبرأ إلى الناس من كذبهِ عليه ومن إفساده معانيه لسوء ترجمتهِ)[3].

في ما كان علم ثقة الجاحظ بالمترجمين يدفعه إلى السخرية منهم والحط من مكانتهم ودحض الكثير مما يأتون به، وهذا دفعه أيضا إلى تتبع أخطائهم وكشف زلاتهم وتصويب ما يستطيع تصويبه من ترجماتهم، حتى أنه شبّههم بالبحّارة الذين لم يطمئن الجاحظ إلى نقلهم ولم يثق فيما يروون، فوجد شبّها بين المترجمين والبحارة والصيادين، من حيث عدم التوثق والمبالغة في سرد الأخبار، وتهويل الأمور ورواية الأساطير، التي ليس لها أصل من الصحة.

ونجد الجاحظ وكأنه يصل على حد الضنى والتعب وربما اليأس في بعض الأحيان من وجود المترجم الحاذق، الذي يفي بالترجمة الصحيحة، ويحترم خصوصيات اللغات، سواء التي ينقل منها أو إليها، ويصف أنه أمر جد شاق، ومتعذر أن تجد مترجماً يؤدي ما أراد المؤلف بكل وضوح وبيان ويسر (إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قاله الحكيم على خصائص معينه وحقائق مذاهبه ودقائق

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، ص220، ج5).

(2) (الجاحظ ، الحيوان، ج2، ص52).

(3) (الجاحظ، الحيوان ، ج6، ص19).

اختصاصه وخفيات حدوده ولا يقدر أن يفيه حقه أو حقوقه ويؤدي الأمانة فيه ويقوم بما يلزم الوكيل)[1].

وعلى الرغم من أن المعرفة والثقافة الناتجة عن حركة الترجمة قد انتشرت في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة، وبالرغم من بروز صفوة من العلماء والأدباء والمثقفين، وعلى الرغم من مقدرة علمائنا على صياغة كل ذلك إلى اللغة العربية والثقافة العربية، ومن الدعم الذي تلقته الحضارة العربية، ومن شهادة أبي عثمان نفسه على هذه الذروة العلمية الثقافية، إلا أنه كان يدرك تماماً أن تعلم اللغة آنذاك ما كان عميق الجذور، فثمة أخطاء جسيمة قد أشار لها أبو عثمان، وكان متخوفاً منها ومن تأويلات مناقضة للمعنى المقصود، وكان جهل النسّاخ يزيد هذه الترجمة تشويهاً وغموضاً(ونتيجة هذه الترجمة الفاسدة أساء الفلاسفة العرب الأولون فهم أثار اليونانيين، فعزوا إلى (أرسطو) مثلاً بعض كتب أفلاطون)[2].

إن نقد أبي عثمان بهذه الصورة المفصلة والدقيقة للمترجمين تنم عن معرفة دقيقة له في مواطن الضعف، ومواطن الخطأ وقد أشار إليها في كتاب الحيوان، وكأنه لم يترك كتابا مترجما إلى اللغة العربية من أي لغة كان وفي أي علم وفن إلا وقرأه واستظهره، وكان له رأيه المصيب فيه لا سيما وإن الكتب المترجمة كانت تعج بها عواصم الدولة العباسية، وقد وصلت لجميع المثقفين بالرغم من قلة الأدوات المساعدة على انتشارها، لكنه حُبّ الاطلاع والمعرفة والتحصيل، وقد أشار حسن السندوبي إلى أن أبا عثمان بآرائه في الترجمة قد توصل إلى ما لم يتوصل له غيره، وقد حل بذلك مشكلات كانت خافية على الكثيرين، حيث كان رأيه (غاية في السدادة والحكمة، وهو يحلل لنا مشكلات حار فيها العلماء والمفكرون، عندما رأى التباين الظاهر الذي وقع في الشروح، والحواشي والتعليقات والتفاسير والتأويلات، التي وضعها أهل البحث وأرباب النذر أمثال الفارابي وابن سينا والغزالي على كتب أفلاطون وسقراط وفيثاغورس وغيرهم من كبار الفلاسفة، مما جعل علماء هذا

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج1، ص75).

(2) (جميل جبر، **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره**، ص99 ،1987، دار الكتاب اللبناني، بيروت).

العصر يشكون في صحة ترجمة تلك الكتب، ولا يرونها نُقلت إلينا علومهم على الصحة والصواب)[1].

وهو برأيه قد أوضح الطريق، وأنار السبيل وأرسى به قواعد الترجمة، وكأنه كان يعرف باللغة التي انتشرت وشاعت ثقافتها في أيامه، ويذهب محمد كرد علي إلى أن الجاحظ لابد انه كان عارفاً في الترجمة، ولابد انه مارسها وخاصة اللغة الفارسية (إنا إذا تأملنا قول الجاحظ في النقل، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة، لما ينقل فيجيد من لغة إلى لغة أحياناً، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أدق الآراء في عصرنا، وكأنك إذا تدبرت مقاله في هذا المعنى تقرأ رأيا لرجل أنفق عمره في الترجمة والنقل، ولا تبعد كثيراً عن حجة الصواب، ولا تبعد كثيرا إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم من لغته إلى لغة أخرى في الأحايين، والأرجح أن هذه اللغة هي الفارسية)[2]، والذي يظهر أن أبا عثمان لم يكن متجنياً كل التجني، ولم يكن مغالبا للحقيقة والصواب، بل أن نقده في معظمه كان نقداً موضوعياً قصد من ورائه أن يُحسن الحال في الترجمة، وذلك أن الترجمة كان لها كما تروي المصادر طريقان تختلفان في الآلية، وطريقة الترجمة وأسلوبها، فلابد من وجود الخلل عبرها حيث أن إحداهما كان يؤديها يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي وغيرهم من مترجمين، والأسلوب المعتمد لهذه الجماعة هو أن ينظروا إلى كل لفظة مفردة من الكلمات في اللغة المراد الترجمة منها كاليونانية أو الفارسية مثلا،وما تدل عليه من معنى، ثم يأتون باللفظة المفردة من كلمات في اللغة المقابلة المراد الترجمة لها ما يرادف تلك اللفظة في الدلالة على ذلك المعنى، فيضعونها في مكانها ثم ينتقلون إلى اللفظة التي تليها مباشرة، وهكذا حتى ينتهي نقل النص أو الكتاب، على هذه الصورة، وهذه الطريقة تعرف بالترجمة الحرفية، وهي طريقة يتضح فيها الخلل، وهي عرضة للتشويه، ويبدو أنها طريقة يعروها النقص؛ لان الناقل لا يدرك اللغة العربية، ولا يعي جميع مفرداتها، التي ترادف المفردات في اللغة المقابلة (اللغة الأعجمية) مما يجعله يترك الكثير من الكلمات العربية بلا مقابل

---

(1) (حسن السندوبي، أدب الجاحظ، ص82، 1931، الطبعة الأولى).

(2) (محمد كرد علي، أمراء البيان، ص352).

لها، وهذا يجعل الكتاب بين بين: لا هو بالعربي الخالص ولا هو بالأعجمي الخالص، مما يجعله عُرضة للنقص والخلل الظاهر (وقد وقع من جراء هذه الترجمة خلل كثير فيما تُرجم من الكتب على هذه الطريقة، وظلت فيها أكثر الكلمات اليونانية أو الفارسية أو الهندية أو الإيرانية أو اللاتينية على حالها، هذا فضلا عن أن خواص التراكيب والنِسب الإسنادية في أي لغة لا يتفق مع ما في أي لغة أخرى من هذه الخواص، بل ما يقع من الخلل عند استعمال المجازات ومرامي المجازات)[1].

أما الطريق الثانية وهي كما أُطلق عليها طريق حُنين بن إسحاق والعباس بن سعيد الجوهري مولى المأمون وغيرهما: فتكون بأن يقرأ المترجم جملة الكتاب فيستوعب معناه كاملاً فيستوي المعنى في ذهنه، فيعبر عنه بكلمات وتراكيب من اللغة العربية دون أن يقيم وزنا لتساوي الألفاظ والمعاني، فهو لا يكون كالطريقة الأولى التي تقوم على إحصاء الألفاظ بالألفاظ، سواء طابقت الألفاظ الألفاظ أم لم تطابقها، وهذه الطريقة أكثر جودة وضماناً من الطريقة الأولى، وأكثر دقة وأعم فائدة، وقد لقيت طريقة حُنين والكتب التي تُرجمت عن طريقه ثناء أكثر من سواها، والجاحظ وهو أمير العربية قد لاحظ الفرق ورأى العيّ يدخل إلى لغته عن طريق الترجمة؛ لذلك نجده ينهض ناقداً ومصححاً ومصوباً، فهو يرى أن هناك صفات ومستلزمات لابد أن يتحلى وأن يعتدّ بها المترجم، بل ويلتزم بها لأداء هذه المهنة والتي هي غاية في الخطورة، ونجده يتشدد أكثر إذا ما كانت عملية الترجمة تخص الكتب الدينية، فهو يرى أن ترجمة الكتب الدينية من الصعوبة بمكان أن تؤدى على الوجه المطلوب من المترجمين آنذاك، وذلك أن الخطأ في ترجمة كتب الدين يُعد خطأ كبيراً مؤذياً أكثر منه لو كان الكتاب المترجم من كتب العلوم الأخرى كالرياضيات مثلاً؛ لذلك يجب على المترجم أن يكون ملماً واعياً لبلاغة اللغة التي يريد أن ينقل عنها وإليها.

نعم لقد حرص الجاحظ على لغته ودينه، وتخوّف على العربية حتى من أبنائها فكيف لا يخشى عليها ممن لا يجيدون النطق بها، فقد خشي على بلاغتها

---

[1] (محمد عبد المنعم خفاجي – **أبو عثمان الجاحظ** – ص327).

وشعرها ونموها، فتنبأ بفساد كبير بدأ يعرض لبلاغة العربية عندما هب المترجمون إلى نقل الكتب القديمة إلى العربية، وقد شاهد النقل ضعفاً في البيان، بحيث صار أقرب إلى الركاكة في الألفاظ وسبكها حتى أفسدت المعاني وأُبهمت حتى عُميت على الناس، فكان يؤمن بأن هذه العلوم لا يمكن أن يدركها وأن يفهمها حق فهمها إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها في نقلها، ونجده يحذر أهل البلاغة واللغة ويدلهم على كيفية استعمال الألفاظ والمعاني داخل اللغة حرصاً منه على العربية، فالكتّاب عادةً يعانون عندما يكتبون موضوعاتهم، أما أبو عثمان طليق اللسان فصيح البيان فموضوعه يستمليه فيمليه، ولا يتكلف ولا يتعسف، يصوّر آهات النفس وخلجات الروح وأزمات العقل، ويرسم المحسوسات كأننا نحسها، ويصف المعلوم والمجهول موصياً بالابتعاد عن التكلف داخل اللغة نفسها، وعن التشدق، داعياً إلى البساطة واليسر في التعبير، ليكون سهل التناول واضح المعاني. لقد كان يفهم اللغة فهماً دقيقاً، وكأن له ميزاناً دقيقاً راجحاً في فقه العربية وفي مواقع الألفاظ، وأين استعملتها العرب، وتحرّي الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال واجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه، فهو يوصي طلاب البلاغة العربية بأن لا يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً، ولا وحشياً غريباً، و يُعد الاستعانة بالغريب عجز إلا إذا اضطر المتكلم إلى ذلك أو أن لهجته وبيئته اضطرت إلى ذلك، كـــأن يكون المتكلم بدوياً أو أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقة رطانة السوقي.

وكما حرص الجاحظ على بلاغة العربية كذلك كان له رأيه وتنظيره بالنسبة للشعر، فهو كما كان في جميع كتاباته شمولي النظرة والمعالجة، فنجده يعقد مناظرة بين الشعر والمادة المنثورة، فيفصح عن صعوبة ترجمة شعر العرب؛ فيرى أن الشعر حديث الميلاد، وأن أصحابه قريبو العهد بالإسلام، بينما الحكمة قبل الشعر بدهور وأزمنة، وإن فضيلة الشعر العربي مقصورة على العرب، وأن حسنها يضيع بترجمته، فلو تُرجم الشعر لضاع من حسنه أهم خصائصه وهو الوزن،الذي يباهي به العربي، بينما نجد الترجمة تزيد بعض الكتب المترجمة حسناً، وما تنقص من معانيها شيئا كالكتب الهندية والحكمة اليونانية ،وآداب الفرس، فالترجمات ما أنقصت

من معانيها شيئاً، والأمر مختلف بالنسبة للشعر العربي، والذي يؤكد الجاحظ على عدم ترجمته إبقاءً على قيمته وخصوصيته المذهلة، فضلاً عن أن المترجم لا يمكن أن يفهم ما أراده المؤلف والشاعر، فيفقد الشعر بيانه وتميزه (وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا يُستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل؛ ومتى حُوِّل تقطع نظمه بطل وزنه، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المنثور. والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحول من موزون الشعر.

وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس؛ فبعضها أزداد حسناً، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حُولت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز والذي هو الوزن؛ ثم أنهم لو حولوه لم يجدوا في معانيه شيئا لم تذكره العجم في كتبهم. حتى وضعت لمعايشتهم وفِطنهم وحكمهم)[1].

وقد دعا الجاحظ إلى ضرورة التخصص في العمل، وحتى في مجال الترجمة، فالتخصص في المادة أمر ضروري يضمن لعمل المترجم الجودة، فلا يترجم قصّاص في كتاب الطب، أو الرياضيات أو الفلك مثلاً، وقياساً عليه أن لا يترجم زنديق ومجوسي كتاباً في العقيدة والفقه، ولا يترجم سخيفاً كتاباً في الأدب، بحجة معرفته بلغة من اللغات، هذا فضلا عن المعرفة التامة باللغة المترجم منها، فيكون علمه باللغة المنقول منها والمنقول إليها سواء، والجاحظ قال كلمته في هذا الأمر (ومتى وجدناه أيضا انه تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تدخل تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها. وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه. كتمكينه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم أكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات)[2].

والاستفهام هنا في كلام الجاحظ يأتي على سبيل الاستنكار، بل ربما استحالة الجمع بين اللغات، وهو الأخبر بأهل زمانه ومترجمي عصره، والدليل على ذلك أننا

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ،ج1 ،ص75).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ،ج1 ، ص76,77).

نجده يعجب من رجل تكلم بلغتين وقد أجاد فيهما وهي الفارسية والعربية، وعدّ ذلك أعجوبة من أعاجيب الدنيا، فيقول في ذلك إن ذلك الرجل ويعني هنا موسى بن سوار كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، ويصف الجاحظ بأن الفرس والعرب كانوا يجلسون في مجلسه المشهور، حيث يقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله فيفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين، ويرى أبو عثمان أنه: (ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما)[1].

والجاحظ يوضح الفرق بين أصول الكتب قبل الترجمة وبعدها، فيعقد مفاضلة بين مؤلفي الكتب في تلك العلوم التي نقلت إلى العربية، وبين من قام بترجمتها إلى العربية، ملاحظاً الفرق والخطأ الذي طرأ على هذه المصنفات بعد أن أخضعت للترجمة، بقول:(فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قرة، وابن فهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفع، مثل أرسطو طاليس؟! ومتى كان خالد مثل أفلاطون؟!)[2].

إن الحقائق التي لمسها أبو عثمان في إطار الترجمة قد أخذها بعض الباحثين على أنها تأملات اعتزالية، وإن أقواله في الترجمة خاضعة لرأيه المعتزلي (لقد اخضع الجاحظ نظريته لأصوله المعتزلة وأغرقها في الجانب التأملي، الذي تنقصه الممارسة)[3]، ثم يستشف هذا الباحث من قول أبي عثمان (ومتى وجدناه (أي المترجم) أيضا قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليها)[4]، فيمضي بقوله إن الشائع في تاريخ الجاحظ أنه لم يُحسن غير العربية، وهذا معنى إشارته إلى جور اللغات بعضها على بعض، إلا إن الجاحظ قارئ مدمن-وكما ذكرنا- بترجمات رديئة وحسنةً، لذلك فإن أفكاره جاءت عن معرفة، فقد أراد أن تخلو العلوم المنقولة

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج1، ص76).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج1 ، ص76).

(3) (مصطفى عبد الحميد، **نظرية الترجمة**، ص43 ،1978،المورد ،العدد(4)، المجلد 7).

(4) (**المرجع السابق**، ص44).

من شوائبها، فهو يقول (ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربية، ثم كان العربي مقصرًا عن مقدار بلاغة اليوناني، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يجد اليوناني الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته بلسان العربية بُدا من الاغتفار والتجاوز)[1].

فهذا هو هم الجاحظ في هذا المجال يبحث عن استطاعة المترجم إيصال المادة العلمية بلغة متقنة سليمة، حتى تصل هذه المادة إلى القراء والدارسين دون لبس وغموض، والجاحظ كان دائم العناية والاهتمام بقارئه، فالكتب موجهة بالدرجة الأولى لقارئ معني بدرسها وتفهمها، مما جعل أبا عثمان ينوع أساليبه في التأليف حتى تصل الفائدة المرجوة من تشييد الكتب وتأليفها، وكأني به يتحدث عن صعوبات الترجمة في كل وقت، وحتى في أيامنا الحاضرة فهذه المشكلة تتمثل للدارسين والباحثين إذا ما جدوا في طلب أحد الكتب الأجنبية، فإن لغة المترجم تقف حائلا دون الاستفادة منه ،وتقف سداً بين القارئ وبين المادة العلمية، حتى إن الباحث يجد أن قراءة الكتب بلغتها الأصلية أيسر من العودة لها مترجمة على ضآلة المعرفة بتلك اللغات الأصلية للكتب، وهذا بالطبع يخضع لقلة معرفة المترجم كما أشار الجاحظ باللغة المنقول منها وإليها، المعرفة التامة وربما خضعت عملية الترجمة إلى مزاج المترجم، وهو في الكثير من الأحيان ربما خضعت للفكر الذي يحمله وما يعتقده، فيجد من المادة المترجمة وسيلةً ليمرر عبرها مراده وهواه، ولعل أبا عثمان أراد من هذه الأفكار والتنظيرات في مجال الترجمة أن تكون توصية باحث لدور الترجمة في كل وقت، وهي توصية باحث قد خبر اللغات وخبر العلم، وقطع أشواطا في مجال البحث، وعانى وتأسى لما عانه، فخشي على لغته أولًا ثم على العلوم بشكل عام، احتراما للإنسانية والأجيال القادمة، ولعله يلخص معاناة الباحثين في كل وقت، فقد شرح ما سيجدونه من مشكلات في كل مجال كان يكتب فيه.

إن الجاحظ يؤمن بأن ترجمة المادة لا بد أن تخضع للتأمل والتمحص والتدارس بشمولية تامة؛ لذلك نجده يسلط الضوء على الإنسان المترجم، ويطلب منه

---

(1) (الجاحظ، الحيوان،ج1، ص78).

إعداد النفس والتدريب على ما أوكل له من هذه المهمة الشاقة، وقد عدد أسماء المترجمين ذاكراً ومبيناً إنجازاتهم في هذا المقام، وفضلهم على الخزانة والمكتبة العربية مع شدة التحفظ والحذر لا من الترجمة ذاتها، بل مما أعقبها من تيار شعوبي كان شديد الخطر على العرب والعربية وعلى الإسلام، فهو يسجل ما أحدثته موجة الترجمة من اللغات المحيطة، وما أحدثه الشعوبيون من مزاعم عن العرب، وما نشروه من إشعار وكتب عن تخلف الشعب العربي عن بقية الأمم؛ دفاعاً عن أمته وبني وطنه وبني دينه،وقد وقف سداً منيعاً في وجه أولئك المغرضين، أعداء الدين اللذين ناصبوا الأمة العداء، فقد مثل موقف الأدباء المحافظين آنذاك فانتقد المترجم ولم ينتقد الترجمة، ثم أنه خشي ردود الفعل التي ستعقب هذه الحركة أكثر من الحركة ذاتها، ويجب ألا يفهم أن الجاحظ كان ضد الانفتاح على ما عند الأمم المفتوحة بل كان دائم الدعوة إلى أخذ ما هو إيجابي، والى البحث عن الثقافة الجادة أنى كانت، شريطة المحافظة على اللغة العربية وعلى الدين الإسلامي الذي غدا في زمن الجاحظ زمن الحرية عرضةً لسهام الشعوبيين.

ومهما يكن من أمر في تلك الحركة، فإن إطلالة أبي عثمان عليها، وإن تنظيراته وتأملاته وانتقاداته وتصويباته المجدية لها شكلت نواة لنظرية كاملة فيما بعد، كان قد اعتمدها صلاح الدين الصفدي في القرن الثامن الهجري، فهذا الاتجاه الذي تبلور بعد الجاحظ بخمسة قرون، يدلل على أثر الجاحظ في أقواله عن الترجمة، فقد أعجب مفكرو القرن الثامن الهجري بنتاج أسلافهم من أدباء وكتاب وشعراء، ولا عجب فنتاج العصر العباسي الثقافي سيبقى رصيداً للأمة على مر العصور، والصفدي(لم يمارس الترجمة بصورتها التطبيقية، شأنه في ذلك شأن الجاحظ، إلا أن الجاحظ ضم إلى نظريته ميداني العلوم الإنسانية والتطبيقية معا. بينما اقتصر الصفدي في نظريته على ميدان العلوم التطبيقية)[1].

ويمكن القول أن أبا عثمان من الرواد الذين نظروا للترجمة، وتحدثوا في أصولها والأسس التي يجب أن تكون عليها، وهو بذلك قد وضع حجر الأساس لها، كما وضع من قبل حجر الأساس في كثير من ميادين العلوم، وقد وضع ورسم

---

(1) مصطفى عبد الحميد ،نظرية الترجمة،المورد ، ص48

الإنموذج للمترجم في صفاته وعلمه ومعرفته وثقافته وحذره، وهكذا أنتجت الترجمة قواسم مشتركة بين العرب وغيرهم من الشعوب المستعربة في العصر العباسي، على كافة الصُعُد سياسياً وثقافياً واجتماعياً وأدبياً، وقد حمل أعباء ذلك كله فيما بعد كل من الفريقين، سواء الجانب العربي، أم الجانب الأعجمي.

4 .2 اللغة عند الجاحظ

سنعرض في هذا الفصل رأي الجاحظ في اللغة وهي الوعاء الذي احتوى الكتاب بقطع النظر عن جنسه عربياً كان أم أجنبياً، فأبو عثمان له دائماً حضوره في كل مستجدات المجتمع، فله قوله اللغوي في اللغة العربية واللغات التي شاركت العربية في دخولها على المجتمع العباسي، فأراد أبو عثمان من معاصريه ومن سيأتي بعدهم أن يحافظوا على لغتنا وعبقريتها وعلى أن تكون العربية هي دائماً لغة البحث عندنا ولغة الأدب،وأن تكون اللغة الرسمية دون أن تفسدها اللغات الأجنبية، والجاحظ قبل أن يرى تفشي وانتشار اللغة الدخيلة في مجتمع عصره كان يخشى على العربية وهي لغته المحبوبة- كما عبّر في الكثير من المواضع في كتابه الحيوان- أن تغدو لغةً ثانوية، فراح يحاكي العرب أبناء اللغة ضمن دائرتهم العربية فينظمها قبل أن يخرج لغيرها من اللغات التي كانت آنذاك ولا سيما الفارسية، ولذا كان دائم الحرص على أن تصل فكرة أن الإنسان يجب أن يتقن لغتهُ أولاً وخصوصاً إذا كان عربياً مسلماً، واللغة التي عناها هنا هي اللغة العربية ولا شك فإن أراد العالم المسلم العربي أن يعد نفسه من العلماء، فأول المطلوب منه حسب النموذج الذي وضعه أبو عثمان هو إتقانه اللغة، وكذلك إن أراد أن يُعد من بين المتكلمين فالمعرفة الدقيقة بأسرار اللغة تساعد المرء على حسن استعمال اللسان، فللعرب كما قال الجاحظ أمثال واشتقاقات وأبنية ومواضع تدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى ولها حينئذٍ دلالات أخرى، فمن لم يعرفها- كما يقول- جهل تأويل الكتاب والسنة (والشاهد والمثل؛ فإذا نظر في الكلام و في ضروب من العلم، وليس هو من أهل الشأن. هلك وأهلك)[1]، إذاً يعتبر الجاحظ أولى درجات الانطلاق للعالِم وأول أسلحته لبدء معركة العلم وأول الزاد لرحلة العلم

---

[1] (الجاحظ ،الحيوان، ج1، ص 154).

ومصاحبة العلماء هى التفقه والعلم العميق بالعربية وسبر أسرارها، ونحن إذ تتبعنا مسير اللغة عبر مشوارها الطويل منذ العصر الجاهلي إلى أن حطت ورست سفينتها عـند عصـر أبي عثمان، فإنها تعرضت لحركات مد وجزر، فمن هنا كانت اللغة بحاجـة للحزم من علماء الأمة وهو ضرورة قصوى ترفد العربية في رحلتها عبر العصور والأزمنة المترامية، فخريطة العالم القديم أيام أبي عثمان كانت جد شاسعة والسـير علـيها بات جد صعب، فكما رسمها لنا شوقي ضيف، حيث كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وإلى المحـيط الهـندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والسقالبة شمالاً، وبـذلك كانـت تضـم بين جناحيها من ناحية بلاد السند وخرسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب.

ولا بد لهذه المسافة الشاسعة من أن تقطنها أعداد سكانية ضخمة هائلة الكثافة من حيث التنوع والاختلاف في الأجناس، فلا بد من أن تختلف تلك النسمة العظيمة لغةً وجنساً وفكراً وثقافةً، ونحن أمام هذه الأفواج الهائلة من العناصر، فلك أن تتخيل مجـرد أن تسمع لهذا الخليط من الأصوات كلٌ يتحدث بلغته ويرطن برطانته، فأين من تلك الزحام واللجاج اللغوي سيكون الصوت العربي! وكيف لنا أن نميزه في ظل ذلـك الانصهار العجيب وهذا الامتزاج القوي!؟ فقد أخذت العناصر المتباينة تمتزج فـي العصر العباسي فإذا الأمة العربية غدت تتألف من عناصر مختلفة كل يتحدث بلسـان قـومه ولا ننسـى بأن عدداً من القبائل العربية كانت قد زحفت إلى البلاد المفـتوحة واختلطت بشعوب تلك المناطق، حتى غدا بينهم وشائج وعلائق مصاهرة وجيـرة، ممـا من شأنه أن يوسع دائرة التعامل والتعاون حتى صرت ترى البيوت العـربية تُمـلأ بالجـواري من كافة الجنسيات والأعراق، فترى الحبشية والسندية والتركية والرومية والفارسية والصقلية والخرسانية، هذا التسرّي بالطبع ساعد على تكاثـر العـرب مـن أمهات غير عربيات، وقد رأينا كيف شاع هذا الأمر في ذلك العصـر، حتى أن عدداً كبيراً من الخلفاء كانت أمهاتهم ذات أعراق أجنبية وبالطبع كـان لهـذا الأمـر خلفيّته المعهودة في العصر العباسي على كافة الصعد اجتماعياً وثقافـياً وسياسياً، فقد لعبت تلك الجواري دوراً عظيم الشأن حتى في شؤون الحكم،

وقـد تحدث الجاحظ حديثاً مطولاً عن تلك الإماء والجواري حيث أخذ يفاضل بينها في الجمال والأخلاق والثقافة.

ثـم إن تلك الشعوب والأعراق ومن شتى المنابت والأصول لم تقف مكتوفة الأيدي، فهي وإن استسلمت سياسياً فلم تستسلم بفكرها وثقافتها، إذ بات لديها فضول ثقافـي بأن تتعرف لغة هؤلاء الفاتحين وإلى ذلك الفكر العظيم الذي جعلهم يضحون بـدمهم من أجل إنقاذ الشعوب وإخراجهم من حياة الضلال إلى حياة النور والضياء والعلم، وبات لديهم شغف بأن يتعلموا لغة هؤلاء القوم ليلجوا من خلالها إلى فكرهم وإلـى ذلك المعتقد العظيم الذي حرك فيهم روح التضحية والحب لبني البشر ليلجوا إلـى حياتهم فيتعرفوا إلى نظمهم في كافة نواحيها. وبالطبع مما ساعد الأعاجم على تعلـم اللغة العربية – لغة القران– أن الكثير منهم كانوا قد أسلموا فما مضى شوط مـن الـزمان حتـى تعلمـوا العـربية وسادت تلك الأوساط المتقدمة على الرقعة الإسـلامية، حتـى ملأت العربية قلوب الناس جميعاً بعد أن سيطرت على عقولهم وحواسهم.

وعلـى المثل من ذلك كان الفضول لدى الشعوب العربية الخالصة الأصيلة بـأن تتعرف ما عند هؤلاء القوم من لغات وثقافة وفكر ونظم في كافة شعب الحياة، لـذا كان تفاعلاً عميقاً بين العرب وغيرهم من هذه الأعراق من أهل البلاد المفتوحة لا سـيما العنصر الفارسي، فقد كان للفرس صدى في حياة العرب وقد بان أثره في الأخلاق والعادات والأفكار، فهضمت العربية بدورها ما وجدته ملائماً للذوق اللغوي العربي من أساليب ومفردات في بادئ الأمر، وراحت الأمة تطلب الرقي الحضاري والثقافـي والاجتماعي باعتبار أن كل ما كان يحيط بها مستحدثاً جديداً عليها، وكان ذلـك الرقي بالنسبة للغة بأن اتسع فضاؤها وزادت غزارة معانيها ومادتها وتشعبت فـنونها، فعمل ذلك كله على صقل الحس اللغوي فتعددت طرق أدائها وباتت قادرةً علـى استيعاب كل جديد،مرنةً لتقبل حركة الترجمة وتدوين الفنون التي شاعت في عصر الجاحظ تستكشف آثار الأقدمين في علومهم وفنونهم.

إلا أن ذلك التحضر وتلك المدنية التي ربما غمرت العروبة والعرب، قد أدت إلـى إسقاط كلمات ومفردات عربية من معجم البداوة، فأصبح العربيّ بحكم الجوار

قادراً على استخدام ألفاظ غير عربية، وقادراً على أن يجعل منها أداة تعبير، فكانت الألفـــاظ الدخيلة تدخل بين سطور العربية في كل إقليم حسب لهجة أهل ذلك الإقليم وعلـــيه فـــإن (اللغـــة في المجتمع العباسي خلال عصر الجاحظ تمثل أصدق تمثيل صـــورة مـــا رأيناه من سمات تميّز البناء الاجتماعي لهذا المجتمع، ولما كانت عليه أحـــوال طـــبقاته وطـــوائفه وفئاته الاجتماعية، ذلك أن هذه السمات تركت آثاراً في الحـــياة اللغـــوية فـــي ذلـــك المجتمع من خلال ما تحمله من مآثر تاريخية وثقافية واقتصادية) [1].

وهـــذه المؤثـــرات ستكون بالطبع ذات أثر بيّن واضح في الحياة اللغوية، أما أسرع تلك الأعراق إلى تعلم العربية فقد كان العنصر الفارسي الذي ما لبث أن اتخذ مـــن اللغـــة العـــربية أداةً للتعبير عن فكرهم وعن عقولهم وخلجات نفوسهم وعن وجـــداناتهم، وكأنهم أرادوا أيضاً أن يعرّفوا العرب على ما عندهم من خلال تعلمهم العـــربية؛ ليعودوا بالتالي بحركة ترجمة قوية تجعل آثار الفرس بين أيدي الناس ولا ســـيما العلماء والدارسين في ذلك العصر،وكلما تقدمنا قليلاً في العصر العباسي وإذ بجمهـــرة العلماء والكتّاب والشعراء، قد أصبحوا من الجنس الفارسي ويقبلون على تعلـــم الشـــريعة الإســـلامية (ويتألق نجم أبي حنيفة وتلاميذه وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عند سيبويه)[2].

ولمـــا رأى أبو عثمان أن اللغة العربية تلك المحصّنة المحفوظة صارت في متـــناول الجميع، خشي أن تضعف وأن تلين قناتها وتستعبد فتستهان، لذا أخذ ينصح العرب ومن يلاحظ أن عندهم ميلاً شديداً إلى دخيل اللغة بأن يُقبلوا على تعلم العربية أولا فهي بحر، والإحاطة بجميع أسرارها أمر صعب المنال، والجاحظ كدأبه يدعو إلـــى تنويع المعارف والأخذ من كل علم بطرف حتى يستطيع المرء أن يتحدث في كل علم معروفاً في وقته وعصره وبالتالي يشارك المشاركة الفاعلة فيه بين نظرائه مـــن العلمـــاء، وأن تكـــون لـــه المســـاهمة الكبرى في المناظرات التي كانت تعقد والجلســـات العلمية التي كانت تميز ذلك العصر، وهو دائم النصيحة للعلماء ولعامة

---

(1) (محمد عويص ، **المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ** ، ص207).

(2) (شوقي ضيف ، **العصر العباسي الأول** ، ص92).

الشعب وجتى الخلفاء، وهذا ما دلت عليه آثار الجاحظ فهو لمّا رأى تردي ثقافة بعض أفراد الرعية بل وبعض الخاصة في حقبة معينة من عصره ولمس ذلك الضعف، نصح أمير المؤمنين المعتصم بالله بأن يأخذ أولاده ليتعلموا من كل أدب، فإنه إن أفردهم بعلمٍ واحدٍ دون غيره من العلوم ستقل معرفتهم، وتظل مقصورةً محدودةً ضيقة الأفق.

إن المتحدث في لغة الجاحظ في كتابه الحيوان يحار من أي زاوية سيتناول الحديث، فالجاحظ عالم لغة وكتابه الحيوان يمثل معجماً لغوياً وحده، ثم نجده يتحدث في كيفية المحافظة على الفصيحة وصيانتها، ونجده في الوقت نفسه يُبدي بعض المرونة فتظهر في كتابه الحيوان الكثير من المفردات والألفاظ الأعجمية لا سيما الفارسية، وهذا ما سنأتي عليه فيما بعد، فكيف لهذا الباحث الجمع بين كل هذه المتناقضات والأطراف، إن أبا عثمان قام بخدمة لغته وأمته خدمةً لم يؤدها عالم مثله، فقد طرح قضايا غايةً في التعقيد وغايةً في الرقي إلا أنه صاغها بلغةٍ بسيطةٍ واضحةٍ؛ لتكون في متناول الجميع، وقد أدرك كل الإدراك أنه يكتب للجميع، لذا وضع لنفسه الطريقة اللغوية قبل أن ينظّر لعلماء زمانه.

لقد صنع أبو عثمان ونخبة من علماء الأمة مهابةً حول العربية، حتى أن الفرس وغيرهم من الأمم الذين علا سلطانهم وأصبحوا يتدخلون في أدق مسائل الحكم، لم يستطيعوا ولم يتجرءوا على أن يجعلوا إحدى لهجاتهم لغة للدولة، بل أن شعراءهم وكتّابهم ومؤلفيهم أخذوا يتعلمون العربية ويكتبون بها المؤلفات وينسجون بها القصائد الطوال، وغدت العربية هي لغتهم في العلم والأدب حتى تقدمت في حياة المجتمع ودحضت غيرها من لغات الأمم الدخيلة المستعربة كاليونانية والسريانية، بعد أن أفرغت ما فيها من نفائس في وعاء العربية.

لقد أدرك أبو عثمان وهو يناضل أعداء الأمة ويناهض الشعوبيين، أن انتشار وشيوع وسيادة أي لغة من اللغات في أمةٍ لهو من أكبر الدلائل على سيادة وهيبة وعظمة تلك الأمة وزعامةِ ذلك الشعب دون غيره من الشعوب؛ لذا فقد أراد للغته أن تكون لغة الفكر والدولة كيف لا وهي لغة القران الكريم.

والجـاحظ مـدرك بأن لغته لن تضيع ولن يمسها الفناء فهي محفوظة بحفظ كـتاب الله لها، بل أراد أن ينزلها أهلها منزلتها وأن يفيها أبناؤها حقها لا سيما وإنّ رفعتها وعلو مكانتها يقترن بالزعامة السياسية والروحية والفكرية والثقافية للامة، أو أبـناء الأمـة الناطقين بها. ومن هنا نجده يتحدث ويحبذ عدم التصنع في اللغة ولا ريـب فـي ذلك فهو كاتب واقعي يؤمن بأن كل رواية إن رويت كما سمعت كانت أجمل وكانت أكثر صدقاً وأكثر وقاراً وهيبة، لذا نجده يعجب بأعرابي جلف ويمتدحه بل ويقف معه لحظة نقاش ومحاورة وذلك أنه تكلم على فطرته ولم يتصنع أو يتكلف بـل ويثـني عليه، فهو صادق مع نفسه، منسجم مع بيئته، لا يدعيّ ما ليس له من قشور الحضارة يقول (وقلت مرةً لعبيد الكلابيّ- وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعاني إلى أن قلت له: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خؤولة. إني والله ما أعنـي البخاتـي، ولكني أعني العراب، التي هي أعرب! قلت له: مسخك الله تعالى بعيراً! قال: لا يمسخ الله الإنسان على صورة كريم، وإنما يمسخه على صورة لئيم، مثل الخنزير والقرد)[1].

وكأنه يقول ما أجمل أن يعبّر كل ابن لهجة بلهجته، وحتى داخل اللغة الواحدة وألا يلزم نفسه ما لم يلزمه به غيره، وألا يكلّف نفسه ما لم يطلب منه، فهو يؤمن بـأن كل جماعة أو أهل صناعة لها لغتها أو لهجتها ورطانتها التي تتفاهم بها فيما بينها، فلا تتجاوز طائفة على ألفاظ طائفة أخرى أو جماعة أو أهل صناعة، ويدعو إلـى روايـة النوادر كما هي بلهجاتها ولكناتها فهي الصورة المثلى لتلك النادرة، وأنـت إذا جئت لرواية طرفة مضحكة فإذا لم تلتزم بأسلوب ولهجة راوي الطرفة ضـاع الـوجه الفكاهي والمضحك فيها ولم يستقبلها السامع منك كما لو رويت في لفظهـا الأصلي والذي قيلت فيه، فأي تغير في صورة النادرة كما رأى أبو عثمان يـؤدي إلى تغير في معناها، وهنا فإن لتركيب الجمل والألفاظ دوراً كبيراً في أداء المعنـى المطلوب وهذه خصوصية من خصوصيات اللغة العربية يجب المحافظة علـيها (وأنـا أقـول: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام

---

[1] (الجاحظ ، الحيوان ، ج4 ، ص100).

الأعراب؛ لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلـك العـادة، فإذا دخلت على هذا الأمر- الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمـيّه الذي فيه- حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه. وتبدلّت صورته)[1].

ومهمـا يكن من حذر عند كتّاب ومفكري الأمة وعلماء اللغة، فلا بد للغة من أن تتأثر بما حولها من لغات ومتحدثين، فطبيعة الظرف والحال تقتضي هذا التحول وذلـك التأثير. ومّما لا شك فيه أن صورة الفصيحة باعتبارها لغة الفكر والشعور في المجتمع العباسي تأثرت بأحوال التحول الحضاري،وما نجم عن ذلك في أفكار المجـتمع بمـا يحويه من أقوام وأجناس متعددة يموج بعضها بعضٍ، وكان للتحول الحضاري واستمرار العرب من طور البداوة إلى حضارة المدن أثره الواضح في الحياة اللغوية للمجتمع العباسي.

وإن فتشـنا عـن عـربية العصر العباسي الفصيحة فإننا لا بد أن نجدها في كتابات أبي عثمان، فهو يتجه في كتاباته دائماً إلى بساطة العبارة وجماله موازناً في ذلـك منسـقاً بـين الألفاظ والمعاني، فهو يوجه كتاباته أولاً لقارئ يفترض فيه حدة الذكاء وسمو الثقافة، وفي الوقت نفسه ربما وجه كتابه هذا إلى من هم أصحاب ثقافة متواضـعة وعلـم بسيط، فإسلوبه في ذلك كما أوضحه في كتابه الحيوان(يحتاج إليه المتوسط العامّي كما يحتاج إليه العالم الخاصي)[2].

فهـو يبغض وينهى أصحاب اللغة والأدب عن التصنع والتشدق والتقعر في اللغة وعن الغريب في اللفظ،وخاصةً إذا كان الكاتب ليس بحاجه لهذه التغيرات فهو يدعـو إلى تنقية الألفاظ وتصفيتها وتنقيحها حتى يغدو الكلام المؤلف موضحاً معرّفاً بذاتـه بعـيداً عـن الغـرابة والغموض، فيبدو أن لكل عصر أدبي مشكلته اللغوية والأدبـية، فكأنَ أبا عثمان ينتقد وينعى على دعاة الغموض في الشعر وأولئك الذين يجعلـون قصـائدهم طلاسم مبهمة وحجباً معقدة لا تفهم منها إلا القليل بدعوى أنها

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، ج1 ، ص 282).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ، ج1، ص10).

موجهة لزمرة المثقفين، ثم تحشى وتنظم بسلاسل من الأساطير التي ربما وظّفت في غير ما وجدت له أصلاً، وأبو عثمان يرى أن المؤلف أحوج إلى أداء رسالته وإيصال فكرته إلى قرّائه منها إلى حشو كتابه بما يلزم وما لا يلزم فيصف ذلك قائلاً(وليس الكتاب إلى شئ أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى يحتاج السامع لما فيه من الروّية. ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو. ويحطه عن غريب الأعراب ووحشي الكلام)[1].

وينهي الجاحظ عن استخدام اللفظ السخيف الساقط كألفاظ السفلة، ويدعو إلى السمو في الكتابة والرفعة في اللفظ أي انتقاء الألفاظ، وهذا ضد ما ذهب إليه بعض النقّاد، وذلك أن أبا عثمان كان يسرف في استخدام بعض الألفاظ وكان إباحياً في استخدام بعضها الآخر وخاصة الأسماء والأفعال التي تدل على العورات عند الإنسان، فقد عاب عليه البعض مسلكه في ذلك زاعمين أنه كاتب منفتح صريح مسرف في استخدام ألفاظ كان بإمكانه أن يستعيض عنها بأخرى مع أنه برر ذلك في غير مكان في كتابه الحيوان موضحاً منهجه الواقعي في ذلك، فهو يقول بأن هذا الحياء المتصنع ليس هذا مكانه وموضعه فالصدق في استعمال الألفاظ أولى من هذا الورع والحياء المبتذل. وأبو عثمان لم يوافق عامة الناس على ما يبذلونه من ورع لا يصدقه،ويرى أن الأمر هنا يتعلق بالعلم فقوله لا حياء في العلم، والصواب هو أن نسمي الأشياء بأسمائها التي وضعت لها وأن نعبر عنها بمسمياتها (وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألا يلفظ بها، لم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ، لكان في الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها .وقد أصاب كل الصواب الذي قال: لكل مقام مقال)[2].

وأبو عثمان يعد ذلك نفاقاً ورياءً حتى أنه يعتبره نذالة ولؤماً، فيرى أنه ورع مزيف، يبغضه الله وكعادته يضرب لذلك الورع المزعوم مثلاً حتى يكون كلامه أكثر إقناعاً بالفكرة التي يعرضها فهو دائما لا يترك قارئه حائراً مشتت الذهن ويقول: (ولقد دخل علينا فتىً حدث كان قد وقع إلى أصحاب عبد الواحد ابن زيد

---

(1) (الجاحظ، الحيوان ، ج1، ص 89-90).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 43).

ونحـــن عند موسى بن عمران فدار الحديث إلى أن قال الفتى: أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف زيتونة أو ثلث أو زيتونة، وثلثي زيتونة، وما أشبه ذلك. بل أقـــول: أكلت زيتونة، وما علم الله من أخرى، فقال موسى: إن من الورع ما يبغضه الله،علم الله؛ وأظن ورعك هذا من ذلك الورع)[1].

وأبـــو عثمان يقول بإنزال الناس منازلهم فلا يبخسهم فضلهم ولا ما يتمتعون بـــه من مكانة حتى في أسلوب لغة الخطاب معهم، فكلام الناس في طبقات كما أنهم هم أنفسهم طبقات فلا يجوز وليس من اللائق أن يخاطب الشريف بغير ما اعتاد أن يخاطـــبه بـــه الـــناس، وهو شريف اللفظ والذي يؤدي إلى شريف المعنى، ونجد أبا عـــثمان يبـــين أنه لكل قوم وطائفة ألفاظها الخاصة بها التي تستعملها فيما بينها ولا تطرب لسواها، يشير إلى أنه يجب أن يكون لكل أديب وكل كاتب ألفاظه الخاصة به ومعجمـــه المميـــز له من غيره من الكتّاب والأدباء (ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم. وكـــذلك كـــل بلـــيغ فـــي الأرض وصاحب كلاماً منثوراً، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهج وألِف ألفاظا بأعيانها؛ ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ)[2].

فكلمـــا كـــان ذلك المعجم راقياً سامياً، كان لذلك دلالاته الفكرية والاجتماعية والثقافـــية والنفســـية، وهـــذا الأمـــر يتطلب كاتباً ومفكراً غاية في النباهة والإبداع والابـــتكار، فمادة العربية فيّاضة لا تحتاج إلا لكاتب ومؤلف يحسن التصرف كأبي عـــثمان الـــذي أضحت اللغة بين يديه كرةً مرنةً يشكلها كيفما وحيثما شاء! فنحن ما نلـــبث أن نلقي نظرة على المؤلف حتى نعرف تلك اللغة الجاحظية التي صنعتها يد الجـــاحظ وأبدعها عقله الخلاق، ربما نجد هذه السمة عند غيره من المبدعين وحتى فـــي عصـــرنا هذا ما تكاد تقرأ بيت أو بيتين من القصيدة حتى تتعرف إلى منشئها وقائلهـــا، وربما حكمنا من خلال ذلك المعجم على طبيعة النفسية التي كان يتمتع بها الأديب فربما كان اللفظ مضطرباً متعباً لينمّ عن نفسية متعبة مضطربة قلقة أو على الأقـــل يحكـــي ذلك المعجم حال الأديب، ثم ربما دل اللفظ على البيئة الأدبية وعلى

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج3، ص43-44).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج3، ص366).

تضـــاريس منطقة ولادة العمل الأدبي، فنعرف من ذلك المعجم إن كان المكان جبلياً أو كـــان الأديب ممن يقطنون المناطق السهلية أو الشواطئ الساحلية، وربما دلّ ذلك على مناخ المنطقة وطبيعتها وأهلها وقد يدلّ أيضاً كما يوضح ذلك الأديب الخبير أبو عثمان على صنعة ومهنة صاحبهِ (وذلك أني لقيت حزاماً حين قدم أمير المؤمنين من بـــلاد الـــروم فســألته عن الحرب كيف كانت هناك فقال: لقيناهم في مقدار صحن الإســطبل فما كان بمقدار ما يجس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرقة وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سرج فلو طُرِحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة، ويقول عمل أبياتاً في الغزل فكانت:

إن يهــدم الصـــد عــن جسمي معالفه	شــإن قلبــي بقــية الوجد معمور
إنــي امــرئ فــي وثاق الحب يكبحه	لجــام هجــر على الأسقام معذور
أصاب حبل شكالي الوصل حين بدى	ومــبعض الصد في كفي مشهور
لبســت بـرقع هجــر بعــد ذلك في	إســطبل ودِ فروث الحبل منثور[1]

ثــم نجــده يســأل كل منْ ذهب لتلك الحرب ليصفها له، فتأتي الألفاظ متفقةً وصنعة الواصف فيسأل بختوشع الطبيب عن مثل ذلك ثم يسأل جعفر الخياط ويسأل اسحق ابن إبراهيم وكان زرّاع وسأل فرج الخرجي عن مثل ذلك، كان خبازاً فقال: ليقيــناهم فــي مقدار بيت التنور فما كان بمقدار ما يخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم في أضيق من حجر التنور فلو سقطت جمرة ما وقعت إلا في جفنة خباز.

ثم نجده يسأل صاحب الحمام ويسأل المؤدبين والكناسين أو النجارين وما هذا التكرار والتأكيد وكثرة التساؤلات من أبي عثمان إلا ليضع قارئه في موضع الإقناع التام كعادته.

فهــو لا يترك موضوعه أبداً ناقصــاً ولا يدع الأفكار عائمة على السطح ولا يعرض فكرة عامه دون أن يتعمق فيها،فيجمع عنها وحولها المعارف ولا يقحم نفسه في باب أو طريق دون أن يعرف جميع مداخله ضارباً المثل الأعلى للباحث والكاتب واللغوي والأديب النموذج.

---

(1) (الجاحظ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ص 236).

والجاحظ أبداً لا يجافي الحقيقة فهو دائما ينزل إلى واقعه، بل أنه يستمد أدبه مـــن هذا الواقع المحيط به ويؤمن كل الإيمان بأن اللغة كائن موجود في هذا الكون تحـــس وتتأثـــر بأحوال وظروف المتحدثين بها،فتولد اللغة معهم وتكبر معهم وتتغير بتغيرهم وتتطور بتطورهم، وتجمد كذلك بجمودهم وتتحجر بتحجرهم، فالظرف الذي يمر على أهل اللغة لا بد أن تعيشه لغتهم،وأنت إذا قرأت إنتاج الشعوب الأدبي دون أن تقرأ تاريخهم، لا بد أن ينبئك ذلك النتاج اللغوي بتاريخ الشعب، فمن اللغة تتعرف فترات الرخاء وتدرك مراحل السكون والتحجر،ولا بد أنك ستعيش من خلال قرأتك ذلـــك الإنجـــاز اللغوي مراحل الحرية أو الصراع في مجتمع ذلك الشعب، فتعطي القـــارئ فكرة عن فترات المد والجزر في تاريخ تلك الأمة. أبو عثمان يرى ومنذ- القـــرن الثاني والثالث الهجريين-أن اللغة كائن حي اجتماعي تتأثر بأحوال المجتمع، فالمـــرء يستعمل من الألفاظ والأسماء ما يكفي لحاجة حياته، وبما أن حاجات الناس وظـــروفهم تتبدل، فلا بد للغة أن تساير وتواكب ذلك التطور؛ لذا أوضح أبو عثمان كـــيف تـــرك أهل مجتمعه بعض الألفاظ التي كانت مستعملةً في الجاهلية لأن الحياة الإسلامية لم تعد بحاجة إلى مدلولات تلك الألفاظ، فقد ترك القوم ألفاظا كثيره كانت تستخدم في الجاهلية ويمثل على ذلك بقوله (فمن ذلك تسميتهم الخراج اتاوه، وكقولهم للرشوه وما يأخذه السلطان: الحملان والمكس. كما تركوا أنَعم صباحاً، وانعَم ظلاما، وصـــاروا يقولـــون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟ وكما تركوا ان يقولوا للملك أو الســـيد المطاع: أبيّت اللعن، كما قيل: مهلا أبيّت اللعنه لا تأكل معه. فتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً. وقد ترك العبد أن يقول لسيده ربي، فقال رب الدار، ورب البيت. وكذلك تركوا أن يقولوا ربنا، وكما تركوا أن يقولوا لقوام الملوك السدنه وقالوا الحجبه)[1].

ثم يمضي أبو عثمان في عرض هذه الألفاظ المتغيره تبعاً لتغير ظروف القوم وتـــبدل طـــرق وأســـاليب معيشـــتهم، فيضرب المزيد من الأمثله متكئاً على الشعر العربـــي، وهنا الشعر الجاهلي والذي هو أحد أهم مصادره في كتابه الحيوان وذلك

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج1، ص327- 329).

لثقـــته الكبيـــرة بالشعر، فهو أهم إنجاز للعرب في مجال اللغه آنذاك، وهنا يعرض الجاحظ هذه المقارنه والمباعده في تغيير استخدام الألفاظ مبيناً الفرق ما بين الجاهليه والاسلام فكأنه يقول: قِس أيها القارئ وأيها العربي ما ستكون عليه حال العربية بعد فتـــره مـــن الزمن أو انظر ما ستؤول اليه بعد حركة الفتوحات الإسلامية أمام هذه الثقافات المتدافعه والمتزاحمه، وأمام هذا الخليط من العناصر المتباينه. فبعضها كان قـــد أســـلم وأحـــب الإســـلام وأهله ولغته، وبعضهم الآخر كان حاقداً ثائراً لثقافته وحضـــارته، وبعضها كان جاهلاً أراد أن يتعلم، وقد عبر الجاحظ في كتابه الحيوان عـــن ذلك الحقد وعن كره الجزيرة وأهلها ولغتها، فلولا أن قيظ الله لهذه اللغه علماءَ عباقـــرةً أفذاذاً، وقفوا لحمايتها بما قدموا من دراسات لغويه ونحويه وصرفيه أحيت اللغه، وجعلتها قادرةً على الوقوف صامدةً في وجه كل دخيل مهما كان نوعه ومهما كانت قوته.

لقـــد كانت الفصيحة عند البدو في مطلع العصر العباسي هي السائدة، وكانت تشـــكل وتمثل الإنموذج الأعلى والقدوه من جميع الوجوه، فأتخذها المثقفون لغةً لهم فـــي كلامهـــم وكتاباتهم، ويبدو أن لغة الأدب اختلفت أختلافاً كبيراً من حيث صوغ القـــوالب وتـــركيب الجمل والمادة اللغويه، ومن ثم طرق التعبير مع احتفاظ الدوله بلغتها الفصيحة بالرغم من موجة التأثيرات. وهذا ما دعا أبا عثمان لأن يكون المقعّد الأول والمـــتحدث الأول عـــن فصاحة اللغه، حيث فتح باباً للنقاد والكتّاب من بعده للقـــول فـــي الفصاحة والبلاغة، مما ترك أثراً عظيماً فيمن جاء بعده لسنين طوال، فكـــان لجهـــوده في مجال الفصاحه أثر كبير في الدراسات البلاغيه والنقدية، فراح الدارسون يستقون منه مادة بحوثهم ويحاولون أن يطبقوا ما قاله الجاحظ مضيفين إلى ذلك ما يقتضيه تطور اللغه، مما جعل كلمة الفصاحه تأخذ صورةً علميةً فتنفصل عن كلمـــة البلاغه كما كان في بدء الدراسه، فأبو عثمان ترك أثره في جميع من تحدث فـــي هذه الموضوعات اللغويه وترك بصماته في كل من تصدى لخدمة العرب مثل أبـــي الحسن علي بن عيسى الرماني وأبي هلال العسكري وإبن سنان الخفاجي حتى امـــتد أثـــره إلـــى عصرنا الحاضر، فالجاحظ كان من أوائل الذين درسوا الفصاحة حرصـــاً مـــنه علـــى هذه اللغه، وكتاباه البيان والحيوان ينطقان بهذا الاهتمام وتلك

الرعاية اللغوية، تتحدث ملياً عن فصاحة الكلام وفصاحة المتكلم وهي رسالة الجاحظ لخطباء العرب وما يجب أن يتصفوا به، ثم هي في الدرجة الثانية ردٌ منه على أعداء الأمـــة الـــذين تمـــثلوا أوضـــح مـــا يكون في الشعوبيه، إذ عرّف الجاحظ الفصيح والأعجـــم(الفصيح هو اللسان والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه)[1].

ثـــم يـــرى الجاحظ أن الفصيح هو من استطاع أن يعبّر عما أراد وأن يفهم ســـامعه ما يريد بقطع النظر عن جنس اللغه التي يتحدث بها (والإنسان فصيح، وأن عبـــر عن نفسه بالفارسيه أو بالهنديه أو بالرومية. وليس العربي أسوأ فهما لطمطمة الرومـــي مـــن الرومـــي لبـــيان لســـان العربي، فكل إنسان من هذه الوجه يقال له فصيح)[2].

فالفصاحة إذاً كما عرّفها الجاحظ لا تقتصر على العربية وحدها، فكل لغة لها فصـــحاؤها وهـــم مـــن يفهموا لغتهم فهماً دقيقاً ثم يحسنوا التعبير بوساطتها، وربما أســـتطاع العالم أن يفقه وأن يكون فصيحاً في أكثر من لغه، إلا أنه أمر نادر وشاق وغايـــه في الصعوبه، فلكل لغة أسرارها وخصائصها المميزة لها، فمن يتناول اللغه أي لغـــة تـــناولاً سطحياً بسيطاً ينصحه الجاحظ بألا يجمع بين لغتين خشيةً أن يدخل الضيم على إحداهما، وأقول بل ربما أدخل الضيم على كليهما.

وضرب مثلاً حول تعريفه للفصاحه بسؤال موسى عليه السلام ربه بأن يحلل عقـــدة من لسانه ليفهم القوم قوله (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)[3]، فسأل ربه أن ينصـــره بأخيه هارون فهو أكثر منه فصاحةً، حيث أن موسى كان قد تعرض في طفولـــته علـــى–حـــد تعبير بعض الروايات– لحادثه مع فرعون، وذلك بأن أحمى فـــرعون جمرة أو ما أشبهها فوضعها أمامه فالتقمها الطفل، مما سبب له تلك العقده في لسانه، وما ذاك إلا لخوف فرعون من أبناء بني إسرائيل تأويلاً لرؤياه.

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1 ص32).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص32).

(3) (سورة طه ،آية 27–28).

وكيف لا يدرك الجاحظ أهمية وخطر مسألة فصاحة اللغة وبالتالي فصاحة الخطباء في زمانه، وقد كانوا يعتمدون الكلمة في قضاء معظم حاجاتهم وجل أمورهم، حيث أن لها ضرورتها في المناظره والخطابه وفي إنشاد الشعر، ويرى أن اللسان كلما كان بيناً كان ذلك أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانةً كان أحمد أيضاً، ففصاحة المتكلم تكسب قوله القوة في التأثير وإقناع السامعين وأدرك الجاحظ أهمية الفصاحه والبيان، فيرى أن عليه لزاماً التحدث في مسائل كثيره كل منها يفضي إلى الآخر، فتحدث في عيوب الكلام واللسان وعيوبه كالعي والحصر واللحن، وتحدث في الأسنان والأصوات وتنافر الألفاظ واستعمال الغريب منها وتطور اللغة وسقوط ألفاظ استهلكت، فلم يعُد لها حاجه لغياب ما تدل عليه واستحداث ألفاظ جديدة مكانها، فكتابه الحيوان وإن أردنا تتبعه بدقه نجد أراءه البلاغية والنقديه وأقواله في الفصاحة في كل جزء منه.

ومن شروط الفصاحة عند أبي عثمان أن يكون الكلام خالصاً من ضعف التأليف وتنافر الكلمات وبعده عن التقعير والتشدق، وهو يشترط حتى يكون الكلام واللفظ فصيحاً أن لا يكون اللفظ غريباً أو ساقطاً سوقياً، فالفصاحة في مفهوم الجاحظ هي الوضوح والبيان وهي على خلاف تام مع الغريب الذي يجعل من القول طلاسم وألغازاً لا يمكن فهمها وإدراكها، وبالتالي ضاعت الفائدة المرجوة من ورائها سواء أكانت فائدةً موضوعيةً أو جماليةً، فقوله باللفظ كما لا ينبغي أن يكون سوقياً وساقطاً كذلك يجب ألا يكون غريباً ومعقداً.

ثم يرى أن الاستعانة بالغريب عجز ودليل على قلة وضآلة ألفاظ المنشئ وفصاحته وإيحائه ما يربط بين الألفاظ والمعاني من وشائج، فالجاحظ كان يهتم باللفظ والمعنى معاً وإن أخُذ عليه عدم اهتمامه بالمعاني لقولته الشهيرة: (المعاني مطروحة في الأسواق) فالمعاني عنده مهمة جداً في الكلام البليغ، فهو يرى أن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى، وقد عرض الألفاظ التي يكره استعمالها في غير مواضعها كقولهم: استأثر الله بفلان والصحيح أن يقال مات فلان، وكانوا يكرهون أن يقال قراءة عبدالله أو قراءة سالم أو قراءة أُبيّ أو قراءة زيد، ثم كانوا يكرهون أن يقال سنة عمر أو

سنة أبي بكر بل يقال سنة الله ورسوله، ثم يعرض تعليق أبن عباس على قولهم الناس قد انصرفوا من الصلاة فقال: قولوا بل قضوا الصلاة وقد فرغوا من الصلاة أو وقد صلوا مما يدل على أن الألفاظ في كل موضع يكون لها إيحاء خاص، فإذا استعملت في غير ما وضعت له- كما يراها الفصحاء- فقدت فصاحتها وأعطت معنىً مغايراً لما أريد منها فهو يرى أن (لكل ضرب من الحديث ضرباً من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوعاً من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الافصاح، والكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحكٌ وملْهٍ، وداخلٌ في باب المزاح والطِّيب*، فاستعملتَ فيه الإعراب، انقلب عن جهته. وإن كان في لفظه سُخْفٌ أبدلتَ السخافةَ بالجزالة، صار الحديثُ الذي وضع على أن يَسُرَّ النفوسَ يكربُها ويأخذ بأكظامها*)[1]، ويقول أيضاً (والألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها)[2].

كما أن أبا عثمان كان قد تحدث عن بلاغة العربية وعن نثرها وخطبها وتحدث عن شعرها وعن صعوبة ترجمته، بل استحالة ترجمته حفاظاً على ما تميز به الشعر العربي فهو أول من قال (فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير)[3].

وكما رأينا فقد كانت الفصاحة من أهم ما عنى به العرب منذ القديم، فلذلك كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية حيث العربية الفصيحة ليرضعوها مع لبن أمهاتهم، فهي إحدى مباهجهم التي بها يعتزون ويباهون.

إن الجاحظ لا يجافي الحقيقة ولا ينكر الواقع، فهو بحكم معرفته اللغوية وبحكم تجاربه الشخصية وبحكم عمره الذي امتد عبر قرناً من الزمان يدرك تماماً

---

* الطِّيب: الفكاهة

* الأكظام: جمع كَظَم، وهو مخرج النفس .

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج3 ، ص39).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج6 ، ص8).

(3) (الجاحظ، الحيوان ، ج3 ، ص131).

أنه لا بد من أن تتأثر العربية بغيرها من لغات شعوب ومدن ومناطق الجوار، ولا بد مــن هــؤلاء الــذين دخلوا العالم الإسلامي آنذاك من أوسع أبوابه فكان لهم النفوذ السياسي والاجتماعي والثقافي، فلا بد أن يكون لهم آثارهم الخطيرة على هذه اللغة، لذلك وجدناه يبذل معظم طاقته وطاقة علماء أفذاذ كانوا غيورين على اللغة؛ لتنبثق فيما بعد دراسات في النحو واللغة.

ولمّــا كــان أبــو عثمان فرداً من أفراد هذا المجتمع وخيط متين في نسيجه المتــنوع، نجده يتأثر بما حوله من لغات ولا سيما اللغة الفارسية، فالناظر في كتابه الحيوان مثلاً سيجد الأثر الواضح للفارسية وكأنه كان يحذّر نفسه وغيره، إلا أن تأثر أبــي عــثمان لم يكن تقليداً أعمى واندفاعاً أهوج نحو الدخيل، فهو في غير موضع يحــذر مــن اللحن وألا يختلط كلام الأعاجم باللغة الفصيحة، فكما قال: إن الإعراب يفسد نوادر المولدين فكذلك اللحن فإنه أخطر ما يكون على كلام الأعراب، فقد أراد لهــذه اللغــة الصفاء والنقاء من الشوائب وألا تختلط بغيرها فتضيع فأرادها عربيةً خالصــةً. وقد كان ممن يستقبحون اللحن ويعده من أهم عيوب الكلام، وكانوا يعدّون اللحــن في المنطق أقبح من آثار الجذر في الوجه، والجاحظ يرى أن أقبح لحن هو لحن أصحاب التقعير والتشديق والتنطيط والجهورة والتفخم، ويرى أنه أقبح من ذلك كلــه هــو لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة وبقرّب مجامع الأسواق وربما كــان ذلــك لكثــرة اختلاطهم بالأعاجم، فالجاحظ ينهى عن اللحن إذا كان في صدد رواية لنادرة من نوادر الأعراب، ثم ينهى أصحاب الصنعة المتشدقين المتفقهين عن اللحــن، ثــم لحن الأعاريب الذين كثر احتكاكهم بالحضر بحكم موقع سكنهم، ونقول لأن أبــا عثمان كاتب واقعي وأديب مجتمعه وبيئته، فهو لا يرى من اللحن بد فكأنه يقول فإن كان لا بد من اللحن، فللحن مواقعه التي ربما يستساغ فيها أكثر من غيرها وذلــك كــأن تلحن الفتيات حديثات السن من الجواري الملاح ومن الكواعب النواهد والشواب، ومن ذوات الخدور الحرائر.

ويقول ربما أستملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف، ولكن إذا كــان اللحن على سجية سكان البلد، وكما يستملحون اللثغة إذا كانت حديثة السن ومقــدودة مجدولــة فــإذا أسنّت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح، ثم يمضي الجاحظ؛

ليفصّل في ذلك، فيقول: وربما كان اسم الجارية غليم وصبية أو ما أشبه ذلك فإذا صارت كهلةً جزلةً وعجوزاً شهلة، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم وصار بنوها رجالاً وبناتها نساء، فهو يرى أنها في هذا السن لا يقبل منها اللحن أبداً.

وقد رأى -محمد بن عبد الغني المصري- أن هذا ترخص من أبي عثمان وتنازل عما كان متمسكاً به (فطبيعة الجاحظ المرهفة الشفافة تجعله ضعيفاً أمام الجمال الأنثوي، فينسى أمام حديثات السن منهن نفسه ويتنافى مع منطقه وقواعد اللغة التي يحرص عليها)[1].

إن هذا لا يعد تنازلاً من أبي عثمان أو تناقضاً مع قواعده التي دعا فيها إلى المحافظة على اللغة، فهو يقول اللحن عند الجواري حديثات السن وبالطبع الجارية في طبعها وجنسها غير عربية وهي قد تعلمت العربية تعلماً حديثاً، فلا بد لها من الإبقاء على شيء من لغتها الأصلية، فتظهر تلك اللكنة الأعجمية التي هي بالفعل تضفي على الحديث شيئاً من الجمال نلحظه إذا تحدثنا اليوم مع من هم ليسوا عرباً وإنما كانوا قد تعلموا العربية فصعب عليهم نطق بعض الحروف كالعين والضاد والحاء وغيرها، وأظن أن أبا عثمان ما قصد البتة الفتاة العربية صاحبة اللغة الفصيحة، إذاً فهذا ليس تهاوناً أو تنازلاً من الجاحظ عن ما وضعه من قواعد لغوية من شأنها أن تحفظ اللغة الفصيحة، لذلك فهو يقبل اللحن من الجواري حديثات السن؛ وذلك لقرب عهدهن بالعربية، أما إذا كبرت فهو لا يقبل اللحن منها أبداً، فالأجدر بها أن تكون وبعد هذا العمر والمخالطة وعشرة أهل اللغة، فيكون لسانها قد تعود اللغة ونطقها فلا عذر لها في لحنها.

ويقبل اللحن أيضا عندما تحكى حكاية لإحدى المولدين أو البلديين فإعرابها يحِيلُها عن صورتها ويقلب معناها، وهذا دليل على اهتمامه بالمعنى كما اهتم باللفظ،ولا يمكن أن يعد ذلك تهاوناً في جنب اللغة، فهو يعتذر ويبرر إن وقع عنده لحن في أحد كتبه وهو كتاب البخلاء، علماً أن اللحن في البخلاء لا بد منه، ويجب أن يكون متوقعاً، فمعظم ما يرويه الجاحظ في كتابه هي حكايات عن بخلاء الفرس

---

[1] (محمد عبد الغني المصري ، **نظرية أبي عثمان في النقد الأدبي**، ص182، 1987،دار مجدلاوي للطباعة والنشر والتوزيع -عمان).

والأعــاجم كســهل بن هارون وغيره، لكنه وهو العربي الفصيح يبرر ذلك فيوجه خطابه لقارئه ولمن يعيب عليه اللحن في ذلك الكتاب بأن إذا وجدوا في ذلك الكتاب كلاماً غير معرب ولحناً معدولاً عن جهته فاعلموا القرّاء والمعيبين أنه ما ترك ذلك، لأن الإعــراب يــبغض هذا الباب، و يخرجه من حده إلى أن يحكي كلاماً من كلام متعاقري البخلاء وأشعار العلماء كسهل بن هارون وأشباهه. فالجاحظ دوماً يبرر ما يظــن أن مــن ورائه سيكون نقداً، كيف لا وهو العربي الفصيح والأديب المرهف والعالم الحاذق، ونقول إن أبا عثمان ما أراد أن يلزم الأعاجم لغة العرب وأن يتخلوا عــن كــل مــا يربطهم بثقافتهم ولا سيما إن كانوا مسلمين، فهو يحترم كل من كان صادقاً مع نفسه، منسجماً مع ما يدور في خلده لا يدّعي ما ليس له أو فيه، حتى وإن كــان أعجمــياً لا يــتقن العربية، فلا يطلب منه أبو عثمان أن يدّعي معرفة العربية ادعــاءً، فالصدق عنده هو الأمثل، وهذا يأتي في كلامه ومنطقه انطلاقاً من منهجه الــذي يســلك بــه كتابه وهو المنهج الواقعي إلا أن أبا عثمان كان قد تلقّى شيئاً من الانتقادات حتى على واقعيته وعلى منهجه في التأليف.

وأقول أن أبا عثمان قد أكثر من تبريراته واعتذاراته في الكثير من المواضع في كتابه، إما دفاعاً عن منهجه ومسلكه الأدبي وإما دفاعاً عن مادة ومحتوى الكتاب أو هــو دفاع عن ترتيب الكتاب، وهذا حذر وحرص من الجاحظ على أن يسد جميع المــنافذ، التــي يمكن أن يؤتى من قبلها، ثم لعلمه -كما عبر عن ذلك- بأهل زمانه، فــنجده يجهــد نفسه حتى يضع قارئه ويطلّعه على أجود ما عنده، لكنها هكذا تكون أحــوال الــنوابغ وهــذا هــو قدر العبقريات بأن تكون هذه الشخصية الفذة معرضاً للدراســة والنقد، والناس منهم صديق صادق دمث والناس منهم عدو حاسد، وهكذا ولعــل الجــاحظ يقول فالحر في محفل النقاد ينتقد وربما علت منزلته من وراء نقد وتجريح، فرب كلمة حق أريد بها سوء فغدت حقاً.

هذا وقد ظهرت اللهجات المحكية في مؤلفات الجاحظ، وحتى لو لم يقلها هو فقــد ظهــرت من خلال ما يرويه عن الناس، ويعلق على مواقفهم كروايته مثلاً عن الــنظّام، حــيث صــدرت عنه عبارات تحلّلت من الإعراب رصدها قلم أبي عثمان وسجلها في حيوانه، وهو شاهد صادق على الحياة العباسية بكافة جوانبها (فأما الذي

شهدته أنا من أبي أسحاق بن سيّار النظّام، فإنا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبلّة، وتقدمـــته شـــيئاً، وألح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء... فلما جزنا جده وتخلصنا منه، قال إبراهيم في كلام له كثير، يعدد خصاله المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سبع فاذهب مع السباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمه فاسكت عـــنا سكوت البهائم! ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون. من قولي وإن كنت ســـبع ولـــم أقل إن كنت سبعاً!)[1]، وقد ذكر الجاحظ في كتابه بعض الأمثال والتي تـــداولها أهل البصرة في لغتهم المحكية فيعرض المثل أحياناً ويقارنه مع ما يقال في مقابـــل هذا المعنى في مدن غير مدينته كالكوفة مثلاً (قالوا في المثل: لا يرجع فلان حتـــى يـــرجع غِراب نوح وأهل البصرة يقولون: حتى يرجع نشيط من مرو، وأهل الكـــوفة يقولـــون: حتـــى يرجع مسقلة من سجستان. فهو مثل في كل موضع من المكروه)[2].

ومن ذلك قوله (رجل من أصاحبنا أؤتمن على مال فشد عليه فأخذه، فلما لامه بعض نصّاحه قال تطرحون اللحم قدام السنور، فإذا أكله ضربوه، فضرب شراهة السنور مثلاً لنفسه)[3].

وفي كلام أهل البصرة ألفاظ دخيلة وذلك بسبب اتصال هذه المدينة بكثير من الاقـــوام الذين يفدون عليها ويعيشون فيها، وهذا حال معظم المدن والتي تأثرت بلغة مـــن وفد اليها وحال مدينة البصرة يعد من افضل الأحوال، فلغة أهلها بقيت تحافظ على اصالتها وكان معظم الكتاب والشعراء يعطون صورة صادقة للفصاحة والبلاغة العربية فيها.

وقـــد فطـــن أبـــو عثمان إلى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا في مجتمعه فيعـــرض فـــي كتاباته لهجات تلك الجماعات، التي ربما أطال الوقوف معها مجرياً الحـــوارات حتى تعطي للسامع فسحةً في التعبير، للتعرف على تلك اللهجات أو تلك اللكنات، فنسمع مثلاً في حيوانه لهجة المتسولين وأصداء اللصوص والشطار ونجده

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1،ص281-282).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ، ج2، ص318).

(3) (الجاحظ ، الحيوان ، ج5 ، ص345).

يرصد مُلح العوام وآدابهم وظُرفِهم، كما يسجل حكايات الملاحين ويذكر مصطلحاتهم وألفاظهم التي يستخدمونها فيما بينهم، حتى أن أبا عثمان قد تنبّه إلى ما يلفظ الأطفال وأخـذ يـراقب كلامهـم ويشرح دلالات تلك الألفاظ التي تصدر عنهم وكأنه عنى بالإنسـان واهـتم باللغة منذ صغرها وفي كافة أطوارها، حتى أنه تناول الفرق بين صـياح الحـيوانات ولغة الإنسان، ويقول أحد الباحثين في حديثه عن اللغة (وهناك مفكـر عربي أخر هو أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي تناول في كتاب الحيوان بفقرةٍ من فقراته الفرق بين صياح الحيوان ولغة الإنسان بما لم يزد عليه المحدثون في الغرب إلا قليلا)[1].

والجاحظ يقول في ذلك (وزعم صاحب المنطق أن كل طائر عريض اللسان، فالأفصـح بحروف الكلام منه أوجه ولابن أوى صياح يشبه صياح الصبيان. وكذلك الخنزيـر. وقـد تهـيأ للكلب مثل: عف عف، ووو وو، وأشباه ذالك. وتهيأ للغراب القاف... وقد تهيأ للببغاء من الحروف أكثر. فإذا صرت إلى السنانير وجدتها قد تهيأ لهـا من الحروف العدد الكثير، ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير، وتـوعد بعضـها لبعض في جوف الليل، ثم أحص ما تسمعه وتتبعه، وتوقف عنده، فإنـك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات؛ ثم ألفـتها لكانت لغةً صالحةَ الموضع، متوسطة الحال. واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها؛ على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلته، وعلـى قدر مخارجه، وخفته وسلسه، وثقله وتعقده في أنفسها، كفرق ما بين الزنجي والخـوزي فـإن الـرجل يتنخّس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحدا فيتكلم بعامة كلامهـم، ويـبايع الخوز، ويجاورهم زماناً فلا يتعلق منهم بطائل. والجملة: أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك)[2].

ويعلـق الـباحث على هذا النص بقوله إن هذا النص يبين لنا حقائق من علم اللغـة جديـرة بالإثبات، لأن الباحثين الأوروبيين ما يزالون يقلّبون احتمالاتها على جميع الوجوه الممكنة بعد الجاحظ بمئات الأعوام.

---

(1) (حسن ضاضا، اللسان والإنسان ، ص44، مكتبة الدراسات اللغوية).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 288–290).

ومــن خــلال هذا النص يتبين لنا أن ما نسميه الكلام عند الإنسان لا يتوقف علــى مجــرد القدرة على استعمال الصوت الطبيعي واللجلجة به، بل إن الكثير من الحــيوانات يمكــن أن تصدر الصوت ذاته فتشارك الإنسان صياحه وضوضاءه في الصوت، والجاحظ في هذا النص عالم تجريبي يدعو غيره للتوثق من صدق نظريته أو قــوله ليجــرب بنفسه فانظر له يقول في الليل – فهو عالم بحّاثة لا يهدأ باله أثناء الليل وأطراف النهار، يبقى شغوفاً مشغول البال بما يختلج عقله من قضايا تسهر لها عــيونه، ويكــد جسمه فيعطي توجيهاً لقارئه أساسه التجربة المباشرة والاستقراء ثم الإحصــاء– عــندما يكــون فتسمع ثم أحصي ما تسمعه وتتبعه وتوقف عنده– وهنا تشــير كلمــه توقــف إلى دلالاتها العلمية العظيمة أي اعمل عقلك بما حولك وبما استنتجت وبما ظهر بعد التجربة عندها ستعرف أن صياح السنانير هذا يتضمن عدداً لا بــئس به من الحروف فيطلق عليه لغة، لأن اللغة ما تستعمل إلا لحاجة وللمطالب والــبواعث الاجتماعية والنفسانية والفكرية للتعبير، ثم ما يسميه بالعقول وهي القدرة المدبــرة المفكــرة التــي نســتطيع بهــا الملاحظة والقياس والاستنباط وهي نشطة لاستكشاف ما في هذا الكون من مجاهيل، ثم تأتي الاستطاعة وهي الإرادة التي تحدد للإنسان استخدامه للغة (وهو بهذا يكاد يعطينا للغة نفس الحدود والرسوم التي أعطانا إياهــا الأمريكــي سابير في وقتنا المعاصر، فالجاحظ يرى أن اللغة ليست مخارج الحروف فقط، وإنما هي القوة الإنسانية الإرادية المفكرة والمعبرة في المجتمع وهي تقريباً ما يستخلص من تعريف سابير الذي سبق)[1].

وقد قال الجاحظ في ذلك: والجملة إن من أعظم الأسباب على تعلم اللفظ فرط الحاجة إلى ذلك وقد لاحظ أبو عثمان بل قرر ومن خلال ما يضربه من أمثلة بالــزنج والخــوز وبائــع الزنج والخوز حيث يرى أن لغة البشر تتفاوت صعوبةً وسهولة لا في ذاتها فقط وإنما بالنسبة للشخص الغريب عليها الذي يتعلمها فيرى أن الصــعوبة تزداد كلما كان جهل المرء بأسرار اللغة ومعانيها، ثم أيضاً ومما يصعّب تعلمهــا أو ييسره في نطق حروفها نطقاً صحيحاً فتجار الرقيق أسرع إلى تعلم لغة

---

(1) (حسن ضاضا، اللسان والإنسان، ص45).

الــزنج وإن قلّ تعامل هؤلاء النخاسين معهم، أما الخوز فلا يستطيعون بسهولة تعلم لغتهم فاللغة في نظره حاجة اجتماعية تنمو بحسب حاجة الإنسان واستعماله لها لأن اللغة وسيلته الأولى للاتصال بالمجتمع.

ونحـن في مجال معرفة العلاقة اللغوية مدينون لكتب الجاحظ -هذا الأديب المنتمي إلى البصرة موطن الفصاحة حيث المربد الذي كان يؤمه الشعراء والخطباء ينشـدون الفصـاحة- فقـد وجه ملاحظاته القوية الذكية وملكة انتباهه الراسخة في أسلوبه الخصيب الأفكار إلى شتى ظواهر الحياة اليومية المحيطة به، فلم يعش كأي إنسان في الحياة هامشي التفكير، فقد أفاض الكلام عن العربية وسماتها وخصائصها وكيفـية المحافظـة عليها وما يشينها وما يزينها، إضافةً إلى حديثه في بحوثة وكتبه الجمّـة عن اللغات التي جاورت العربية، فهو لم يقصر حديثه على لغته وحدها بل إنك تخاله وهو يتحدث عن سائر اللغات التي وجدت في عصره على دراية تامة بها، إلا أن معظم المعرفة كانت قد أتت إليه من ملاحظاته الدقيقة وعقله اللمّاح فهو يحكي أن النبطـي المغلق مثلاً والذي نشأ في سواد الكوفة وإن تكلم العربية المعروفة وإن كـان لفظـه متخيـراً ومعناه شريفاً، يعرف السامع من كلامه ومخارج حروفه أنه نبطـي، ويقـول كـذلك إذا تكلم الخرساني وكذلك إن كان من كُتّاب الأهواز، فإنك تعـرفه مـع إعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكي النطق الأهوازي والخرساني والزنجي والسندي حتى تجده كأنه الطبع منه ثم يصف كيف يتحدث هؤلاء الأقوام العربية وكأنه يعرب عن استيائه بأن هذا اللفظ من الأعاجم يشين العربية، ولعله يشمئز من أن لا تؤدى الفصيحة كما هي، فيصف تلفظ هـؤلاء الأعـاجم بها فالنبطي يجعل الزاي سيناً والعين همزة والسقلبي يجعل الذال المعجمة دالا والهندي يجعل الجيم زايا، وهو يحكي الكثير بأسلوب متندر من الحكايا الفكاهـية التـي تعبر عن التغيرات في اللغة التي يجريها الأعاجم عند لفظ العربية، وربمـا لجأ الجاحظ إلى الأسلوب الفكاهي في هذا الموقف والذي كان يعده من أهم همومه وهو الحفاظ على اللغة الفصيحة صافية نقية.

والجاحظ يلجأ للفكاهة لتخفيف وطأة ذلك على قلبه، ولعله يقول شرّ البلية ما يضـحك، وفـي الوقت نفسه يتنبه إلى الازدواج بين اللغة في منطق المتحدث، وقد

أشـــار إلـــى ذلك على محمل الجد وسبيل التحذير في سياق الترجمة، من أن إحدى اللغات لا بد أن تدخل الضيم على صاحبتها، وهنا أقول أن أبا عثمان في سياق بحثه عـــن اللغـــة الفصيحة وما يطرأ عليها من تغيرات يذكر معظم الأعراق التي سكنت عالمه آنذاك، ويعرض كيف يؤثر كل جنس وكل عرق على هذه اللغة، التي أكثر ما كـــان يخشى عليها، فهل يجوز في مثل هذا الموضع أن ننكر عروبة الجاحظ، فكيف لزنجـــي مـــن معرفة بالعربية إلى هذا الحد وهذه الدرجة من الفصاحة وهذا الصوغ المـــذهل فـــي محيط العربية؟ ومن أين تتأتى له تلك المهارة وذلك الإبداع في أداء رسالته اللغوية إلى هذا الحد الذي نلاحظه ولاحظه العلماء من قبلنا؟ وسيتوصل إلى غيـــر هذا من سيأتي بعدنا، إلا أنه يكفينا في هذا المجال أن تقنع أنفسنا أولاً لنحاور بها غيرنا أن لا نقر بعروبة أبي عثمان وحتى لو كان على سبيل عروبة اللسان فقط، بـــل أن الـــبحث وبعدما مناقشة بعض ما قاله هذا الأديب وهذا العالم اللغوي في هذا المقام يكاد يقر بعروبة الجاحظ،فإنما العربية باللسان والعروبة تعد بما قدم من إنجاز، فهذا العالم والمفكر قدم لأمته وقد دافع عنها فوقف أمام أعدائها وشن عليهم حرباً لا هوادة فيها وبقدر ما قدم للكتابة العربية، والجاحظ نفسه وهو العالم الفصيح والعربي الحـــذر والمفكـــر اليقظ لم يسلم من ذلك التأثر والتأثير والتفاعل مع حضارات الأمم وثقافاتهـــا ومـــن أهمهـــا اللغة، لكنه كان تأثر الواعي المدرك الذي نحن بحاجته فلا نـــريده جموداً يجتر القديم دون نظرة إلى تطور العصر ومواكبة الزمان ولا نرومه انـــبهاراً بالجديد الدخيل المستورد الذي تجرد عن كل ما هو تراث أصيل ومن ذلك فإن الناظر إلى المعجم اللغوي عند أبي عثمان ولا سيما في الحيوان موطن الدراسة ســـيلاحظ كـــيف تأثـــر الجـــاحظ باللغات السائدة في عصره وزمانه وخاصةً اللغة الفارسية.

لقد كان الجاحظ متأثراً بالفارسية تأثراً ذكياً مكنه من أن يعي الكثير من ألفاظها ومفرداتها فتتردد في كتاباته إذا أراد التعليق على موقف ما، أو همّ بنقد شخصية ما أو ظرف ما، والناظر في معجمه في الحيوان سيجد فيه لفظاً قديماً عالجه أبو عثمان لكنه درس ولم يبق منه في أيامنا شيء، ونجد في الحيوان أيضاً اللفظ القديم الذي كان من مادة المصطلح العلمي، ثم نجد فيه اللفظ الأعجمي الدخيل

مما عرّبه العرب ومما لم يعربوه وهذا ما دل على تأثر الجاحظ بالثقافات الدخيلة، ونجد فيه اللفظ الأعجمي وهو ما أورده أبو عثمان من خلال حواره وحديثه مع العامة، والأهم من ذلك كله أننا نجد في كتابه ألفاظاً ومفردات وربما تراكيب تكشف عن خصوصية جاحظية كانت من نسج أبي عثمان وإنشائه تفرد بها فغدت ملتصقةً به فقد تفرد بسوغ وبناء ألفاظ من أسماء وأفعال عرفت به وله ولم يجد لها على حد تعبير المعجمين ذكراً في المضان اللغوية، وهذا الأمر ليس مستغرباً ولا مستهجناً من الجاحظ فهو من دعا إلى وجوب أن يكون لكل شاعرٍ وكاتبٍ وأديبٍ ألفاظاً خاصةً به تميزه عن سائر الناس وسائر الأدباء كتّاباً كانوا أو شعراء (ولكل قومٍ ألفاظٌ حظيت عندهم. وكذلك كل بليغٍ في الأرض وصاحب كلامٍ منثور، وكل شاعرٍ في الأرض وصاحب كلامٍ موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ)[1].

والدارس لمعجم الجاحظ في الحيوان وفيما عرض من علم ومواقف ونقد منه وتعليقات يلاحظ تأثره كغيره من أفراد المجتمع العباسي باللغة الفارسية وللتمثيل على معجمه نورد بعض المفردات للتمثيل لا الحصر وذلك، لان معجم الجاحظ يستحق أبحاثاً عدة يطول الحديث فيها، فمن اللفظ الفارسي المعرب ترد كلمة "روز" وهي كلمه فارسية معربة؛ لتدل على الصك الذي يكتبه الجهبذ بعد قبض المال، وهو مختصر من الروزنامج وهو معرب بالروزنامة أي كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يقع في كل يوم من خير دخل وخرج أو حادثة أو غير ذلك، ثم استخدم الجاحظ "روز-استهارا" بمعنى يوم القيامة وقد وردت كلمة "الكامخ" وهي من الفارسي المعرب بمعنى المشهيات أو في يومنا الحاضر بمعنى المقبلات قبل الطعام.

وتــرد لفظــة "الكــرابيج" بمعنى الحوانيت أي الدكاكين ثم نجده يورد كلمة "الطفشــيل" عندما يتحدث عن طعام أبي كعب القاص، وهذا اللفظ كان قد ورد كثيراً في الحيوان يقول في ذلك (قال: وتعشّى أبو كعب القاص في طفشيل كثير اللوبيا)[2].

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، ج3 ، ص366).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ، ج3 ، ص24).

واللفظ فارسي معرب بـ"طفشيل" وهو ضرب من اللحم يعالج بالبيض والجزر والعسل.

ومن الفارسيّ المعرب نجد "جاوروز"[1]، وهي من ألفاظ الحبوب والهرائس ثم "الباز ورد الاسفيداج" وهو مما يجلب من فارس، وهو نوع من الطلاء الأبيض اللون "اللازورد"[2]، ونجد كلمة "أشنان" وهو الحرز الذي تغسل فيه الأيدي وهو عشب قلوي يضاف له الرماد فتغسل به الملابس "الحرب أو الغسول"[3]، تأتي كلمة البارية من الفارسي لتدل على الحصير المنسوج من القصب. ثم تأتى كلمة "الخوان[4]" وهي مادة يوضع عليها الطعام.

أما الألفاظ الفارسية التي احتفظت بشكلها على ما أخذها العرب ولم يجدّ العرب في تعريبها والتي تدل على تأثر أبي عثمان بالفارسية تأتي لفظة "الشبركة"؛ لتدل على طعام العجم وطعام كسرى وعيشه، ثم"الخفتان" ويظهر أنهم كانوا يتخذونها تحت الدروع أردية خاصة وهو ثوب قطني واللفظة فارسية. وقد ورد الكثير من الألفاظ الفارسية التي لم تعرب والمتتبع لها ولدلالاتها يجد أنها تشكل ألفاظ حياة في مختلف نواحيها الاجتماعية والسياسية والحربية إلى غير ذلك من امتداد الحياة الواسع الذي تأثر به العرب والمسلمون بالفرس، ثم نجد معجم الجاحظ لم يقتصر على اللفظ الفارسي فحسب بل أننا نلمح فيه اللفظة الآرامية والعبرية ونجد فيه اليونانية وبعضها كان قد عرب والبعض الآخر بقي على ما هو عليه احتفاظا باللغات الأصلية ،ونجد اللفظة السندية والهندية وغير ذلك من لغات الأمم الدخيلة على الثقافة العربية فمؤلفات الجاحظ مما يقوله أهل زمانه واعتقد أن هذا الوضع اللغوي لا بد أن يكون أو يظهر في كل الأمم وفي كل حين، وفي عصرنا الحاضر لو نظرنا في لغة الأقطار العربية مثلا ولهجاتها المحلية لوجدنا أن بعضها من أصل تركي وبعضها الآخر أصل أجنبي إنجليزي أو فرنسي وهكذا تبعاً لدول الاستعمار

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ،ج5 ،ص 242).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ،ج1،ص 81).

(3) (الجاحظ ، الحيوان ،ج6 ،ص 86).

(4) (الجاحظ ، الحيوان ،ج2 ،ص 24).

التي كانت تسيطر على تلك الأقطار فتركت آثارها اللهجية واللغوية باقيةً حتى غدت ألفاظاً تتداولها الناس في مختلف شؤون الحياة وهكذا كان الحال في عصر الجاحظ، ونجد في حيوانه اللفظ اليوناني وقد ورد في معجمه كمثل "مئزر وإزار وبرنس[1]" وهي كلمات يونانية معربة.

وقـد وردت لفظـة "مومس" وقد استخدمها الجاحظ في الحيوان لتدل على تاجرة الهوى (البغي) وهذه اللفظة جاءت من اليونان وتعريبها بالراقصة، وقد أخذها الآراميـون أولاً بـنطق مـومس. ثـم نجـد كلمة عمروس في قوله (فأين أنتم من العمـاريس؟)[2]، و(نجـد فـيه من ألفاظ العبرية كلفظة الشبور وهي البوق واللفظة عبرية)[3]، أما كلمة "مسك"[4]، مشتركة إما فارسية أو يونانية وهي مادة عطرية.

وكـذلك "كـرياس" فهي مشتركة عربية فارسية وقد ذكرها الجاحظ في قوله (كـان عـندنا رجل يشتهي ريح الكرياس)[5]، وهو الكنيف الذي يكون مشرفاً على السطح بقناة إلى الأرض سمّي كرياس لما يعلق به من الأقذار فيركب بعضها بعض وهي من الألفاظ المشتركة بين العربية والفارسية.

وتأتـي لفظة "قرسطون"[6]، فهي لفظة رومانية تأتي بمعنى الموازين (وتأتي لفظـة الدوخلـة وأمـثالها؛ لتدل على اللفظ الأرامي في حيوان الجاحظ مع شئ من التعريف) [7].

هـذا، وقد ورد في كتاب الحيوان كلمات وألفاظ وتراكيب اتخذت سمةً مميزةً لها لم يشاركه فيها أحد ويمكن أن نطلق عليها سمة خاصة وهي سمة الجاحظية، فقد تفـرد أبو عثمان بكلمات وألفاظ وتراكيب لم تذكرها المعاجم، كما أنها لم ترد لنا من

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج4 ،ص 24).

(2) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج5 ،ص 426).

(3) (الجاحظ ، **الحيوان** ، ج4 ، ص 27).

(4) (الجاحظ ، **الحيوان** ، ج5 ، ص 301).

(5) (الجاحظ ، **الحيوان** ، ج5 ، ص 468).

(6) (الجاحظ، **الحيوان**، ج1 ، ص 81).

(7) (إبراهيم السامرائي،**من معجم الجاحظ** ،ص170، 1982 ، دار الرشيد للنشر).

لغة أعجمية كما بيّن ذلك المعجميون الذين درسوا كتابات الجاحظ من الناحية اللفظية فقد كانت تلك الألفاظ من اجتهادات الجاحظ وابتكاراته الشخصية كيف لا وقد طوعت لـــه اللغة ودانت لأمير بيانها،ومثال ذلك فهو يدلل على من يقوم ببيع العبيد وشرائهم بالـــنخّاس (والمعلـــوم أن الفعل غير وارد في المعجم فضلا عن أن النخاس كان هو بائـــع الـــدواب ويقصـــد الجاحظ لدلاله على الفراسة ويزيد قدرته على الفهم بعينه والتعبيـــر بجســـده ... فـــي النخاسة ولم يسبق الرجل فيما نعلم إلى الدلالة عن ذلك المعنى بهذا التشكيل اللغوي)[1]، ومن اللفظ الذي تفرد به أيضا لفظة البثث أي فرقه ونشـــره والـــبث الحـــزن والغم الذي تفضي به إلى صاحبك مع شئ من المباسطة والمملحـــة في الجملة الجاحظية، وقد وردت هذه اللفظة في قول يعقوب عليه السلام (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله)[2]، ثم الحزق والتي أيضا كما يذكر الدارسون انفراد الجاحظ بها في قوله (فشكت إليه الحزق)[3].

وهي ضيق القدرة وقيل الحزق هو السئ الخلق البخيل، ثم تأتي كلمة الغرز والتي يمضي ابراهيم السامرائي بقوله لم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام والتغريز أي تغريز الريش في جناحه للاحتيال يقول (وهذا إلا في الحيوان للجاحظ).

وقـــد ورد في الحيوان من المصطلحات العلمية وهي من اللفظ العلمي القديم ومـــن مادة المصطلح العلمي الذي يمكن الاستفادة منه في عصرنا الحاضر، كقوله خلقاء وهي الصخرة الخلقاء المراد بها الملساء المصمتة، وهي كلمة يمكن الإستفادة مـــنها فـــي مجال الأحجار والصخور[4]. ثم ترد لفظة التصعيد فيعلق عليها المؤلف (إبـــراهيم الســـامرائي) بقوله (مفيدة للعلم المعاصر)[5]، وتأتي بمعنى التقطير[6]، أما

---

(1) (رشيدة عبد الحميد أحمد اللقاني، **ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ**، ص11، 1991، ،دراسة التطور الدلالي للعربية،دار المعرفة الجامعية ،بيروت).

(2) (**سورة يوسف**، آيه 86).

(3) (الجاحظ، **الحيوان**، ج3، ص289).

(4) (الجاحظ، **الحيوان**، ج2 ،ص 119).

(5) (إبراهيم السامرائي، **من معجم الجاحظ**، ص234).

(6) (الجاحظ، **الحيوان**، ج 6 ، ص 356).

العترفان في هذا المجال فتأتي بمعنى الديك الذي يؤثر الدجاجة بالحب وهي شئ من ملاحظات الجاحظ العلمية الدقيقة.

أمـــا مادة كلب في كتاب الحيوان فهي معروفة إلا أن أبا عثمان قد توسع فيها (فالمكلــب عــنده هــو الــذي يصــيب كلابــه داء) [1]، فقــد أفاد الجاحظ من هذا الحــيوان(الكلــب) فصاغ منه جملة مواد فيها الفعل وفيها الاسم تتصرف إلى جملة دلالات مفيدة فقد صاغ منها المصدر على الكلبية للدله على الكلب في خلقه وصفاته وعاداتــه ومــا يعرف من احواله (وهذا يدل على نظر أبي عثمان وكيف يجب أن تكــون لــه اللغــة أداة طيعة لما تقتضيه الحاجة التي تجدّ بفعل الزمان والمكان)[2]، (ومكلب هو الرجل المحسن الذي كلبت أبله فأصابها الجنون)[3].

وقد نجد في كتاب الحيوان كثيراً من الألفاظ التي عبرت عن معجم العامة في عصره كلفظة "فشك الباب"[4] أي فتحه من غير مفتاح وهو من الكلام العامي.

وتظــل اللغة العربية الفصيحة ملمحاً من أبرز الملامح الدالة على حضارتنا وعــراقة هذه الحضارة الضاربة في أعماق التاريخ، وينبغي التنبه والعمل على عدم تأثــر هــذه اللغة بمظاهر الضعف الذي نعانيه وهو الذي طالما حذر منه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، إذ يجب التمييز بين الضعف التقني الذي نعانى منه والتميز الحضاري الذي يجب أن نحافظ عليه، واللغة العربية هي من أبرز ملامح هذا التميز الحضـــاري الذي ساد الدنيا قروناً عديدةً وما يزال حتى يومنا هذا منه نهلت وتنهل حضارات ومدنيات الدنيا كلها بلا استثناء.

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج 2 ،ص15).

(2) (إبراهيم السامرائي ،**من معجم الجاحظ** ص261).

(3) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج2ص186).

(4) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج 3 ،ص452).

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية

3. 1 تمهيد:

إن كتاب الحيوان لأبي عثمان زاخر بمظاهر الحياة؛ بل هو يحكي حياة صاحبه وحياة من عاصروه؛ وحياة من كانوا قبله، ثم إنه كان يضع أسساً وقواعد ونظريات لمن سيأتي بعده، وأكبر دليل على تلك الأسس التي وضعها الجاحظ، التي أتت أكلها الطيب؛ أننا مازلنا ننهل من هذا المعين الفياض وهذا الفكر الخصب الولود-وفيه عون لمن سيأتي بعدنا من الأجيال- نعود إلى هذا التراث الأصيل؛ ليكون انطلاقة واعية إلى عالم المستقبل؛ وقد ناقش هذا البحث ما تيسر من معالم الحياة الثقافية والحياة العلمية، أما هذا الباب فسنعيش فيه مع أبي عثمان في حياته الاجتماعية وحياة مجتمعه، وحياة أهل زمانه هذا مع العلم بأن كل منحى من هذه المناحي كان كافياً لإقامة بحث مطول وعميق.

وفي الحياة الاجتماعية للعصر العباسي لن نعود لتلك المقدمات، التي أسهب الباحثون في عرضها وتفصيل القول فيها: من صراع اجتماعي، وطبقات، وزهد وبذخ ومجون كما هي العادة، في بحوث الحياة الاجتماعية لكل عصر؛ لأن ذلك ربما لن يضيف جديداً، إلا أن الحياة الاجتماعية في كتاب الحيوان ذات طابع خاص ومميز، لاسيما أننا سنلتقط تلك الصور الاجتماعية بين ثنايا كتاب كان قد خصص للحديث عن عالم الحيوان، لكن أبا عثمان كما عهدناه كفى وأكفى في هذا المجال، فلم يترك شاردة ولا واردة -يشعر بجدواها- إلا وجعل لها حيزاً في وسط ذلك التكثيف العلمي؛ إيماناً منه بأنها ستؤتي أكلها ولو بعد حين، لذا سيكون العرض نظرة الجاحظ للمجتمع من خلال ما عرض من أفكار ورؤى وصور سلبية، وأخرى إيجابية عن ذلك العصر، ثم اهتمام الجاحظ بالأسرة وأثرها في تكوين المجتمع.

والمجدي في الحياة الاجتماعية من خلال ما كتب الجاحظ - كونه شهد قرنين من الزمان-وعاصر اثني عشر خليفةً عباسياً، لكل منهم سياسته الخاصة، وأسلوبه الخاص في الحكم، وما إلى ذلك مما يحيط بالخليفة، حتى أن الحاشية مرةً تكون عربية وتارةً فارسية، وأخرى برمكية أو تركية إلى غير ذلك من جميع الأمم التي

كانت تشكل جسم المجتمع العباسي، إضافةً إلى ذلك كله فإن أبا عثمان أيضاً قد عاش التقلب العظيم، وتغيرات الأحوال عليه؛ فهو لم يولد وفي فمه كما يقال ملعقة من ذهب، حتى إذا ما شرعنا بدراسة الحياة الاجتماعية عنده لم نجد إلا أصداء تلك الطبقات المترفة المتخمة المشبعة، وفي الوقت ذاته لم يعش طيلة حياته وعمره حياة الكفاف، فلا نجد في الحياة الاجتماعية عنده إلا أصوات تلك الطبقات المحرومة المعدمة، الشاكية، الجائعة، فالوضع جد مختلف عند أبي عثمان، بل أننا سنجد عنده صور وأصداء أصوات كل الفئات بدءاً بالخلفاء، وانتهاءً بأولئك الذين يمثلون أكثر الفئات والطبقات شأناً وقيمةً في مجتمع عصره، فكأن الله بحكمته قدر لعالمنا أن يبيع السمك في(سيحان) فيعيش الفقر المدقع، ومرارة الحياة، وقسوة الزمان؛ ليخرج أديبا مفوهاً، وإنسانا مجرباً، وحكيماً عظيماً، فيكون قادراً على مقارعة السنين، فإذا بالعلم يسمو به إلى مجالسة الخلفاء، فكان العلم معبره إلى هذا التطور في حياته، فجاءت الحكمة بأن يصور لنا مجتمع عصره عن قرب وبدقةٍ متناهية، كاشفاً بذلك زيف القصور ورقيها في قمة الهرم الإجتماعي، منحدراً بنا إلى فئةٍ يصل معه الحد بها ليصف حيل اللصوص، وشعوذة المشعوذين، وكيف لا وذلك العصر كان قد أطلق عليه عصر الجاحظ! هذا العصر والذي بما اتسم به من حرية الفكر كان قد فتح ذراعيه لأبي عثمان، وفتح جميع أبواب الحياة فيه، فعليه أن يتخير أي الأبواب يعبر، وأي مسلك يسير ضمنه متى شاء وكيف شاء! فكانت الحرية الفكرية سلاحه إلى أن يجوب أفاق ذلك المجتمع، لاجئاً في أحايين إلى تقمص الشخصيات، مستنطقاً لها رافعاً عن نفسه تبعة المساءلة إن لاحظ أن سود الليالي قد تميل عليه بعللها، حيث مثّل تشعب الحركة الفكرية والعلمية، ومثل في الوقت ذاته الأخلاق والعقائد، وأوضح الانحلال الخلقي عند فئات من أهل زمانه (فصور حيل التجار، وخزعبلات المتسولين، وسخافة الشبان المخنثين، وزندقة المتزندقين، وما أشبه ذلك من ضروب الفساد)[1].

(1) (محمود ادهم، أدب الجاحظ من زاوية صحفية، ص78).

إننا إذا أردنا أن نقرأ المجتمع العباسي على حقيقته دون زيف أو تزويق أو مراء، فما علينا إلا أن نقرأ كتابات أبي عثمان، فقد كان المجتمع العباسي هو مادة أبحاثه الاجتماعية، ومحور موضوعاته الرئيسية، فبات تناوله لمجتمع عصره-كما رآه هو أمامه بأوضاعه القائمة- يكشف حقائق العصر بكل صراحة وبكل وضوحٍ وتجلٍ، فكان في ذلك مصوراً بارعاً يعرف كل ما ينقله فيعرض مشاهداته بتفاصيلها ودقائقها، مما جعله يأخذ وبجدارة صفة الكاتب الواقعي البعيد عن المداجنة والمراء، صفة الكاتب القريب من الناس، فما وصل له من نعمة لم تجعله يبرأ من أبناء مجتمعه المعوزين إلى فكره، أو يتبرم من الطبقات والفئات المحتاجة لعقله، بل أن ما كان فيه الجاحظ أو ما سما إليه هو الذي دفعه لأن يمد يد العون إلى أبناء مجتمعه من خلال نقده لهم؛ فيقدم أنفس ما عنده، مادةً فكرية كانت أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات الراقية- كما سنرى - فالجاحظ كما مر معنا كاتب واقعي متفائل؛ فهو لم يذكر سلبيات مجتمعه إلا وهدفه القضاء عليها، وما رسم صورةً طيبةً إلا وهدفه الإقتداء بها، شاهد وعاش ذلك المزج الغريب بين العرب والعجم، الذين باتوا يشكلون نصف جسم المجتمع، وبات العرب يمثلون النصف الأخر، ولاحظ ما تأثر به العرب من ثقافات وحضارات، فشجع على كل تقدم، وفي الوقت نفسه وعى ما نقله العرب من عوائد وتقاليد مزقت روح العصر؛ فعز عليه ذلك وهو العربي الأصيل أن رأى قيماً تندثر في حين يعلو غيرها وتكتسح المجتمع وتنتشر في ساحاته، بل ويروج لها كثيرون من أبناء العصر فشن حملةً عنيفةً، وأشعل حرباً لا هوادة فيها على كل ما توارثه القوم من سوء خلق، وما راج بينهم من سلوكيات خاطئة وأعمال مشينة.

3. 2 الجاحظ عالم اجتماع

لا غرابة أن يتحدث الجاحظ في علم الاجتماع، ويكتب فيه المزيد من الأبحاث، أو أن يتحدث في مقومات المجتمع واحتياجاته؛ فمجتمع الجاحظ هو الذي أوحى إليه ذلك العلم، فمجتمعه لم يكن من المجتمعات الجامدة الساكنة ذات الحركة البطيئة في سيره، بل كان مجتمعاً -كما نعلم- في حركةٍ دائبةٍ دائمةٍ نحو التطور والتغير والتبديل من حال إلى حال في قيمه وعاداته وتقاليده، وحتى في الروابط

والوشائج القبلية، التي أخذت تخف أو تختفي شيئاً فشيئاً حتى تكاد تتلاشى أمام ذلك الانصهار لمجموعة عناصر حضارية ذات أصول متباينة قد تكون: عربية أو فارسية أو يونانية، لذا بدأت مفاهيم المجتمع تتغير فنظرته إلى الحياة في تبدل مستمر، وحتى في علاقات أفراده والتي أخذت تتجه نحو المادية المنفعية.

وأبو عثمان بحدة ملاحظته بدأ يرصد هذه التغيرات التي أضحت تغزو مجتمعه، بل عملت على خلخلة النظام الاجتماعي وهزه كاملاً، فكان الجاحظ من أوائل علماء المسلمين ومفكريهم، الذين أبدوا اهتماماً عظيماً بالمجتمع وطبقاته، وفئاته، مرشداً وموجهاً ومصلحاً حتى غدا الأدب والنثر معه ظاهرة تحول في تاريخه، فعقله المختمر وتجاربه العظيمة جعلته يحتوي العصر كله، إذ اهتم بجميع أحوال الناس في مجتمعه مهما اختلفوا في نمط تفكيرهم، وأسلوب معيشتهم، فهو قبل أن يكون عالم اجتماع كان عالم نفس، وطبيباً، ومحللا، وأديبا ملتزما بقضايا مجتمعه، فكتاباته كانت ذات موضوع قبل كل شيء، وقد عده النقاد من الكتاب غير التقليدين؛ فقد خطا بالكتابة الفنية إلى حقل العلوم وحقل الحياة، إذ صار الأدب معه قادراً على استيعاب الحياة بمفهومها الواسع فقد (خرج بالكتابة الفنية من دائرة أدب كتاب الدواوين إلى تجريد العلوم الأدبية، وتحريرها من العزلة؛ بأن دفع الكتابة الفنية الأدبية إلى علاقة إيجابية ينطوي عليها الاهتمام بحياة الناس ومعالجة مظاهر الحياة الاجتماعية للعصر)[1].

لقد درس أبو عثمان مجتمعه درساً متعمقاً فيه مدركاً لحقيقته تماماً، وهذا يظهر مما جاء في كتاباته، التي وجهها لذلك الخليط العجيب، الذي كان يمثله المجتمع آنذاك، فقد وعى تماماً أنه يخاطب أمما لا أمة واحدة، وإن بدا الحرص الظاهري من خلفائه ووزرائه على لحمته في بواكير عهده، فيقول الجاحظ في كتابه معبراً عن تلك التركيبة المجتمعية (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً إعرابيا ،وإسلامياً جماعياً....)[2].

---

(1) (محمد عويص، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، ص55).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1 ، ص11).

ونقول إن أبا عثمان عندما كان يعرض قضايا عصره، ويحاول حل مشكلاته، ربما لم يُرِد بذلك أن يوجد علم اجتماع، أو قل لم يكن همه أن يطوف اسمه في الأفاق، ولم يكن هدفه المباهاة بإيجاد علم جديد حيث كان له السبق في الكثير من العلوم التي أثمرت، وأصبحت فيما بعد علوماً قائمة بذاتها-بعد عهده بقرون طوال- وهكذا كان حاله في مجتمعه يضع أفكاره الاجتماعية، وفلسفته من خلال ملاحظاته الدقيقة الموغلة في أعماق المجتمع، وقد قيض الله لهذه الملاحظات والإشارات الإصلاحية من يجمعها بعد حين؛ فيدرس المجتمع من خلالها؛ ليظهر على حيز الوجود ما يسمى بعلم الاجتماع، ثم جاء ابن خلدون بعد الجاحظ بخمسة قرون ليؤسس لهذا العلم، وهذا أحد الباحثين يجري مقارنةً بين الجاحظ وبين ابن خلدون في هذا العلم، وهو (داوود سلوم) فيرى أننا في هذا المقام لم نجد شبيهاً لأبي عثمان، إلا ابن خلدون مع فرق في الحضارة والزمان، حيث أن زمن أبي عثمان كان زمن يقظة وتفتح العرب على ثقافات وحضارات الأمم المحيطة بهم، وزمن ابن خلدون كان زمن نضوج وتكامل، ولذلك جاء منهج الجاحظ كما يرى موزعاً مشتتاً؛ فعمل ابن خلدون على جمعه وتنظيمه مركزاً آنذاك بالكليات فيقول (بأن زمن الجاحظ كان زمن الطفولة المتعاقبة التي تسأل عن كل شيء وتهتم بكل شيء، أما زمن ابن خلدون فقد كان زمن النضوج في الذهنية والكهولة في المعرفة، لذلك فإن منهج الجاحظ يبقى على تركيزه أوسع من منهج ابن خلدون، وإن نظرة الجاحظ تبقى أكثر دقةً، وأعمق غوراً، وأكثر تنوعاً)[1].

ومع هذا فأبو عثمان لم يدرس المجتمع دراسة العالم الاجتماعي الذي يتوخى نتائج من وراء ملاحظاته ونقده، لكنه في الوقت ذاته قد أدى خدمةً للإنسانية وللعلماء من خلال ما توصل إليه، وأبداه من ملاحظاتٍ وإشاراتٍ وخدمةٍ كبرى لعلم الاجتماع، ومؤسسيه بعده سواء على الصعيد العربي أم على الصعيد الأجنبي.

ومن أهم إشارات الجاحظ الاجتماعية أو ملاحظاته- التي استهل بها كتابه الحيوان- هي إحدى الأسس التي يرى أن المجتمع يبنى عليها: حاجة الناس بعضهم

---

[1] (داوود سلوم، النقد المنهجي عند الجاحظ، ص94).

بعضاً، وربما أراد الجاحظ في مستهل كتابه -الذي عنى بشؤون الحيوان من كل جانب - أن ينبه بني البشر، ولا سيما أهل زمانه ومجتمعه إلى هذه الخصيصة، والسمة الضرورية في عالم الحيوان، إلا أنه وقبل أن يشير لها في عالم الحيوان جعلها من مقدمات كتابه لدى أفراد مجتمعه، ونرى من خلالها ونلمح حكمة أخرى ربما أراد بها الجاحظ تعزيز ثقة أفراد المجتمع بأنفسهم، لا سيما الطبقات والفئات المعدمة، التي ربما كانت مهانة، محتقرة لدى البرجوازيين والأرستقراطيين، وإن ما ذكّره بهذا الأمر هو نزوله إلى عالم الحيوان؛ ليتحدث عنه فدعاه هذا إلى أن يعزز ثقة البعض، وفي الوقت نفسه يذكّر أصحاب المكانة والمنزلة العالية بأنهم من الاستحالة بمكان أن يقيموا مجتمعاً وحدهم، فينزلوا من بروجهم العاجية ليشعروا بمن هم دونهم، فالمجتمع وعمارته تقوم على أكتاف الطبقات العاملة وربما كانت هي أهم تلك الطبقات.

وهذا أساس بنيت عليه المجتمعات الإنسانية منذ القدم، وستبقى هكذا إلى أن تقوم الساعة إلا أن أبا عثمان لا يعرض بعض أفكاره التي يرغب عادة إلى التستر عليها مباشرة، ويقول إن حاجة الناس لبعضهم، هي التي تدفعهم إلى التعاون فيما بينهم والتآزر على بناء مجتمعهم، والعيش بأمان ضد أي خطر يتهددهم؛ فالإنسان لا يستغني أبداً عن الجماعة حتى ولو كانت أمور حياته على أتم وجه من الصحة والمال والعلم، فهو في حاجة دائمة إلى اللقاء بغيره والاجتماع معهم، فالمرء ومنذ الطفولة يكون بحاجة ماسة إلى أقرانه، فلو حاول الأبوان أن يوفرا لأبنائهما كل ما يظنان أنهم بحاجته من الماديات، وكان الأطفال محرومين من مخالطة أقرانهم واللعب معهم، فلا بد من أن ينشأ هؤلاء الأطفال نشأة ينتابها القلق، وكانت التنشئة غير سليمة يعتريها النقص، وهذا حال الإنسان في كل طور من أطوار حياته، ونحن عادةً نحكم على الإنسان ذي العلاقات الاجتماعية المحدودة بأنه شخص انعزالي وانطوائي، أما أبو عثمان فيطبق ملاحظاته ويعممها على مجتمعه بأسره، بل ويجعلها نظرةً اجتماعية عامةً، فنحن بحاجة لمن كان قبلنا، بحاجة لثقافتهم وحضارتهم وآثارهم، كما أن من سيأتي بعدنا سيكون بحاجة لما عندنا (والصبيُّ عن

الصبيِّ أفيمُ له، وله آلفُ وإليه أنزع، وكذلك العالِمُ والعالم والجاهل والجاهل)[1]. لذا (فحاجةُ الغائبِ موصولة بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى)[2].

ولتأكيد ما ذهبنا إليه، يبين الجاحظ أن الإنسان مهما علت مكانته الاجتماعية، فإن أرفع مكانة يمكن أن تتأتّى للمرء، هي أن يصبح ملكاً أو خليفةً –كما عبر عن ذلك الجاحظ– ومهما زاد ثراؤه، وذاعت شهرته بين الخلق؛ فلا بُدّ من حاجته إلى أقل الناس شأناً، وإلى من يكون عملهم ومهنتهم غايةً في التواضع، فكما أن الخدم بحاجة إلى ما يتقاضونه من أموال لقاء عملهم عند سيدهم؛ ليقيموا بها أودهم، فالملك والسيد أيضاً بحاجة لهم؛ ليرفعوا عنه أعباء الحياة العظيمة، ويمضي أبو عثمان إلى أن هذه حكمة الله التي لا يمكن تغييرها؛ فتزيد هذه الحاجة، أو حاجة الناس بعضهم بعضاً، كلّما تعقدت أمور الحياة وأصبحت بحاجة إلى من يحل قضاياها ويقوم بشؤونها.

(وعلى قدر أتِّساع معرفتهم وبعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية. ثمَّ لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخّر له، فأدناهم مسَّخر لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم. وعلى ذلك أحوج الملوكَ إلى السوقة في باب. وكذلك الغني والفقير، والعبد وسيّدهُ)[3].

وأبو عثمان إذ يفتتح كتابه بقوله (الملك، والسوقة، والغني، والفقير) فإنَّهُ بهذا التعداد الطّبقي، ربَّما يلخص منهجه في الحيوان بأنه سيعالج فيه شؤون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته؛ لإيمانه المطلق بتكامل المجتمع وتبادل الأدوار. فلننظر إليه وهو يفصل في هذا المقام؛ فكأنه يواري ويخفي مباشرة الخطاب، فهو لم يقصد الخلفاء من بني العباس، ولا وزرائهم في كل حقبة، سواء أكانت على رضىً منه أم لا، فيستعمل لذلك الضمير الغائب؛ ليكون حديثه عاماً صالحاً لأي مجتمع من مجتمعات الإنسانية، فهو لم يعنِ مجتمعاً بعينه ولا ملكاً بعينه، ولا فقيراً محدداً،

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1 ص45).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 43).

(3) (الجاحظ، الحيوان،ج1 ، ص44).

فيلخص بهذا الإيجاز الشرائح الاجتماعية التي سيتناولها في حيوانه، بل أنه وفي هذا المقام يعرض لوحات من عالم الحيوان في تعاونه على أداء حاجاته، والقيام بشؤونه؛ ليتأسى بها بنو البشر. فلكلٍّ فرد من هذا العالم دور يؤديه ويلعبه على مسرح الحياة بلا تناقض أو تصارع. ويبيّن الجاحظ أن الإنسان في حاجةٍ مستمرة، ومن هذه الحاجات ما هو ضروري لا تقوم حياة المرء إلا بوجوده وبأدائه، كحاجة الإنسان إلى الطعام والشراب واللباس، ثمّ أن هناك حاجات إضافيةً، تضفي على الحياة الراحة والسكينة والمتعة؛ هدفها زيادة التمتع بهذه الحياة، مشيراً إلى وسائل التفاهم والتواصل بين الناس، وهو البيان الذي أوجده الله ليعبر عن حقائق وحاجات الناس (ومعروفاً لمواضع سد الخلّة، ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة)[1].

وحتى يكون في كلام الجاحظ مقنعٌ للسامعين، فهو كعادته في بحثه يتكيء على أحد مصادره الرئيسية التي اعتمدها في حيوانه؛ إذ إنه يتكئ هنا على تراثه الدينيّ وأهمُّ مصادره كتاب الله.

وهكذا كانت أولَ إطلالة من الجاحظ على مجتمعه في حيوانه، هي كيف أن الناس جميعهم بحاجة دائمة إلى بعضهم بعضاً! تلك الإطلالة الجاحظية التي أرادها أبو عثمان؛ لتكون أول ركيزةٍ اجتماعية، يرتكز إليها أبناء مجتمعه للتآزُر لحل مشكلاتهم الاجتماعية، والتعاون فيما بينهم، ممهداً الطريق لآرائه وملاحظاته-التي بثها من خلال كتابه-رغبةً منه في إنشاءِ مجتمع قويَّ البنيةِ صحيح العقل، سليم الجسم، يشد بعضه بعضاً، فيضرب مثالاً ناصعاً من الحياة مُدلِّلا به على تآلف الناس فيما بينهم، ذلكم هو اختلاف طباعهم وحاجاتهم ورغباتهم، فحاجة التاجر تختلف عن حاجة الصانع، وحاجة الصانع تختلف عن حاجة الخبّاز وهكذا...، ممّا يؤدي إلى تآلفهم، فكل فرد يسعى إلى قضاء حاجة غيره التي من خلالها ستقضى حوائجه، فالخاصَّة تحتاج إلى العامَّة، كحاجة العامة إلى الخاصة، فالاختلاف في طبائع الناس، جعله الله تعالى ليكون فيه ائتلافهم، ولو لم يخالف بين طبائعهم؛ لسقط الامتحان ولبطل الاختبار-كما يقول الجاحظ- فالفرق بين الناس في القابليَّة والمعرفة أمر

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص44).

طبيعي، كالفرق بينهم في المهام والواجبات، فالحاجة والاختبار التي خلقها الله بينهم، مـــا كانـــت إلا لتغدو الحياة ممكنةً، وذلك أنّ اتفاق الناس في معايشِهم وفي منزلتهم ومـــنازعهِم، قــد يؤدي إلى المنافسة، وبالتالي إلى الفساد. فلو تخيّلنا أن جميع أفراد المجـــتمع ملوكا مثلاً، بلا رعية تعنى بشؤون الخدمات، وشؤون المملكة والدولة، أو أن طـــبقات الشعب كانوا كلهم سواسيةً طبقةً واحدة بلا حاكم يدبر شؤونهم، ويسوس أمورهم، أو تخيّل أن جميع الناس يُقبلون على تناول صنف واحد أو أصناف محددة من الطعام أو اللباس، فيتركون الكثرة أو البقية الباقية، فالحقُّ أن العبارة-التي طالما اســـتعملت إلى حد الاستهلاك- تلخِّص ما عناه الجاحظ في جانب من جوانب الحياة، وهـــي (لولا اختلاف الأذواق لكسدت الأسواق) وهذا ما ذهب إليه أبو عثمان بقوله (فالّذي حبَّب لِهذا أن يرصد عمر حمار أو ورشان أو حية أو ضبّ، هو الّذي حبَّب إلـــى الآخر أن يكون صيادا للأفاعي والحيات، يتتبعها ويطلبها من كل واد وموضع وجبل للترياقات. وسخَّر هذا ليكون سائس الأسد والفهود والنمور والببور، وترك من تلقـــاء نفســـه أن يكون راعي غنم!! والذي فرَّق هذه الأقسام، وسخَّر هذه النفوس، وصـــرَّف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافِنها، وهذه المعاني من مخابيها، هـــو الـــذي سخَّر بطليموس مع ملكه، وفلاناً وفلان... وكل ميسّر لما خلق له؛ لتتمَّ النعمة ولتكتمل المعرفة، وإنما تأبى التيسير للمعاصي)[1].

ثمَّ يفرد الجاحظ ضمن ملاحظاته وإرشاداته الاجتماعية، بحثاً خاصاً يناقش فيه ماهيَّة السعادة، ونلاحظ في بداية حديثه كيف يلوّن أساليبه خلال عرض أفكاره؛ إيماناً منه بأن السَّير على وتيرة واحدة، وأسلوب واحد قد يورث الملل، وعدم الفهم والمتابعة من قبل القارىء، فانظر له كيف يبحث في السعادة على هيئة محاورة ونقاش! فيعرض رأيه على ألسِنة شخصيات يجعلها تتحدث على لسانه، أو هو يتحدث على ألسنتها بما يريد؛ إيماناً من الجاحظ بأنَّ الحديث إذا كان بين أطراف تتجاذبه يجعل السامع أو القارىء مصغياً مشدوداً إلى التتمَّة، الّتي بها تحصل الفائدة المرجوة من المقال.

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص141).

فأبو عثمان إن أراد إيصال فكرته، يجعلها تدور على ألسنة شخصيات يختارها اختياراً دقيقاً، فتكون ذات تأثير، قادرةً على نقل الفكرة بعد أن يتقمصها تقمصاً حاذقاً، فيجعل الفكرة تدور عبر الألسن فينصر بدوره من رام أن يتوقف عنده الكلام والحديث. ويقرِّر أبو عثمان أن السَّعادة لا يمكن أن تتأتَّى بصحة البدن فقط،وكثرة المال، فهذه بالنسبة له متغيرات ويمكن أن تزول تحت أي ظرف يقع عليه، أو هو يناقش القائلين بهذه المسألة، أو من تعني عندهم السعادة كثرة المال؛ نجده يقسِّم الناس على هذا الأساس، ويميِّز بينهم فيقول: (ومن الناس من يقول: إنّ العيش كلَّه في كثرة المال، وصحةِ البدن، وخمول الذكر. وقال من يخالفه: لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير، من أن يكون بالأمور عالماً، أو أن يكون بها جاهلاً. فإن كان بها عالماً فعلمه بما لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه؛ لأن المعرفة لا تكون كعدمها؛ لأنها لو كانت موجودةً غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعمل ما أوجب النباهة)[1].

والجاحظ دائماً يعزو كل خير إلى العلم والمعرفة، ويرجع للعلم كل رقي في الحياة وكل سعادة، وكما ذكرنا آنفاً فهو من رقى به العلم وسما في سلم الحياة قدماً، وانتشله من عالم الخمول وعالم الفقر ومن طبقة إلى أخرى؛ حتى تسنَّى له أن يعلو ذكره ويكون في مصاف العلماء والمفكرين المؤسِّسين للفكر والعلم بشمولية وموسوعية؛ لذا فهو يقرُّ أن صاحب المال على كثرة ماله إن كان جاهلاً بالأمور أي ليس عنده من العلم والمعرفة شيء؛ فإن هذا الجهل لا بد أن يصوِّر له السعادة على غير حقيقتها، فيعتقد أنها بكثرة المال والتهافت على الملذَّات الآنيَّة الرخيصة من مأكل وملبس ومركب، فوجود المال دون أن يلازمه عقل عالم مثقف، يحسن التصرف به؛ لا سيَّما وأن المال لدينا هو إحدى الودائع، إذن ما الجدوى منه بيد الجاهل! فلا بدّ أن يكون ضرره غالباً على نفعه؛ لأنَّه ربَّما تصرف به في غير وجه حق، لذا يرى الجاحظ أن صاحب المال الجاهل؛ إمَّا أن ينفق ماله على اللذائذ الرخيصة من أمور الدنيا الزائلة، التي هي دون طموح الإنسان العالم ذو النظرة

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص96-97).

الغائرة في عمق الأشياء، فينفق ماله على أطايب العيش والمراكب الفارهة والثوب اللين، والجارية الحسنة، فلا جدوى تعود على الناس من ذلك كله، فهذا الصنف يعيش من أجل ذاته فقط، لا يعرفه أحد سوى نفسه والملذّات التي تهالك عليها. وإمّا أن يكون لفرط حرصه على المال حارساً له، دائباً على زيادته، محبّاً له، لا ينفقه خشية إملاق؛ فلا هو ممن يتنعمون بمالهم في دنياهم، ولا هو من الزاهدين به؛ فينفقه في وجوه الخير ناشداً من ورائه الدار الآخرة؛ لذا لم يجد الجاحظ وصفاً خيراً من أن ينعته بالحمار بل أنّه يقول هو أجهل من حمار.

ثم يمضي هذا العالم الأديب الفيلسوف إلى أن لذة العقل، وسمّو النفس أرفع وأنفس من لذة الحس والغريزة، وهذا الذي ذهب إليه أبو عثمان، يتوقّف على صاحب تلك النفس وتلك الروح، (فإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام)، وهو الذي ما قبل برئاسة ديوان الرسائل إلا لمدة ثلاثة أيام فقط؛ فروحه الوثّابة، ونفسه الطموحة، أبت البقاء بين الكراريس تتلقى الأوامر لكتابة الكتب الرسمية، فأبى الجاحظ إلا أن يعيش لغيره؛ فقد عاش للمسلمين وللعرب ولأبناء عصره ولنا نحن، ولمن سيأتي من بعدنا، علماً وفكراً ومعرفةً؛ لذا يرى أن سعادة أهل الطموح هي الظفر بالأعداء، وعقد المنن في انعقاد الرجال، والسرور بالرياسة، وثمرة السيادة؛ فهذه الأمور عنده هي نصيب الروح وحظُّ الذهن، وقسمة النفس، أمّا اللّذة الحسية من مأكل ومشرب ومركب؛ فهي لذائذ لا بدّ أن يصحبها الشره، وعدم القناعة وألم السهر والقلق، ثمّ أنّها نعم زائلة، يزول وزن صاحبها وذكره بزوالها (وليس شئ ألذُّ ولا أسرُّ من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن عقد المنن في أعناق الرجال، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة؛ لأن هذه الأمور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس)[1].

وعلينا هنا أن لا نفهم من ذلك، أن أبا عثمان صاحب منهج زاهد، يدعو إلى الزهد بلذائذ الحياة، والابتعاد عن نعمها، بل على العكس من ذلك، فقد كان محباً للحياة ونعمها فكِهاً متفائلاً. إلا أنّه هنا يعطي أمور الحياة أولوياتها، فيدعو إلى

---

[1] (الجاحظ، الحيوان،ج 2 ،ص98).

الاعتدال وعدم الإسراف والانكباب على سخائف الحاجات، والانشغال بصغائر الحياة، فهذا من شأنه أن يشغل المرء عن كبائر الأمور.

ومع أنَّ الجاحظ كان قد قرَّر في ضمائر أهل عصره وأبناء مجتمعه، أن حاجاتهم إلى بعضهم بعضاً، صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة ثابتة في جوهرهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، فكأنَّ القوم لم يدركوا هذه السمة التي ما بحثها أبو عثمان لهواً ولعباً؛ إنما كان يرسل الفكرة والملاحظة والإشارة؛ لتلقى قلوباً واعيةً، وآذاناً صاغيةً، فراح يبحث في ظواهرَ عاشها وعاناها في هذا المجتمع، الذي أراد لأهله الإصلاح.

وربما كانت الظاهرة التي أرّقت مضجع أبي عثمان والَّتي اكتسحت المساحة الشاسعة، تلك هي ظاهرة الحسد الَّتي انتشرت وتفشَّت بين الصفوف، وعاثت في مجتمعه فساداً، فأبو عثمان قد عزا لهذه الظاهرة ما يعانيه مجتمعه من شرور، وهذا يدل على تفشي تلك الظاهرة في عصر أبي عثمان الَّتي ربَّما نجدها في كل عصر وفي عصر الجاحظ خاصّةً؛ لأنَّ حديث أبي عثمان كان عنها وفيها من نوع مختلف؛ فهو حديث الرجل المعاني والمتجرّع لكؤوس الحسد، والأهمّ من ذلك أنّ تفشي سموم هذه الظاهرة جعل الجاحظ يضع للحسد أنواعاً متعدّدة، فقد ذكر على الأقل نوعين من الحسد: حسد الجاهل، وحسد العالم، وأبو عثمان هنا يتساءل باستنكار الحال لمَ يكون الحسد بين العلماء؟! أهل العلم والمعرفة بين هذه الصفوة المختارة، الَّتي انتقاها العلم، أو هي انتقته؛ لتميّزها عن سائر الأفراد، ونحن لا ننكر هذا التساؤل من الجاحظ لِمَ يكون الحسد وينتشر بين صفوة العلماء؟ ومن ذلك العصر، عصر الجاحظ يظلُّ السؤال في الذهن محيراً ومستمراً، لِمَ ينتشر الحسد بين أهل العلم؟ ولعلَّ المحلِّل الاجتماعي معن خليل عمر يجيب على هذا التساؤل (فالحسد كما نعلم ظاهرة اجتماعية، تبرزها التمايزات الاجتماعية، المتمثلة في الأدوار والمراكز الاجتماعية الَّتي تزيد من درجة الإصطراع بين الأفراد؛ من أجل الوصول إلى مراكز أعلى وثروة أكثر)[1].

---

[1] (معن خليل عمر، **أصالة وعمق التحليل الاجتماعي عند الجاحظ**، ص45، المورد، العدد3، 1980، مجلد(9)).

وقد تنبّه أبو عثمان إلى خطورة هذا الداء، الّذي تفشّى في مجتمعه، وأخذت سمومه تسري في روح العصر، فأورثت المجتمع ألواناً من العداوات التي عانى منها الجاحظ، ويشير إلى أنّ زوالها سيكون بعلاج هذا المرض الخطير الّذي يصف خطورته بأنّه (فكيف يكون شيء يصرع الصحيح ويضجع القائم، وينقض القوي، ويمرض الأصحّاء، ويصدع الصخر، ويهشم العظم، ويقتل الثور، ويهد الحمار، ويجري في الجماد مجراه في النبات، ويجري في النبات مجراه في الحيوان، ويجري في الصلابة والملاسة جريه في الأشياء السخيفة الرخوة)[1].

من أجل هذا الدّاء كان أبو عثمان يصدر من جواهر كتبه فينسبها إلى غيره، ومن أجل ذلك شكا أبو عثمان كيد أعدائه؛ فهو يدرك تماماً أثر هذا الأذى بين الناس. فيروي عن الأصمعي (ورأيت أنا رجلاً عَيوناً فدعي عليه فعَوِر قال: إذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارةً تخرج من عيني. قال: وسمع رجل بقرةً تُحلب فأعجبه صوت شخبِها فقال: أيّتهن هذه؟ فخافوا عينه فقالوا الفلانيّة- لأخرى وروّا بها عنه- فهلكتا جميعاً: المورّى بها والمورّى عنها)[2].

والجاحظ ربّما أثار مثل هذه القضايا: الحسد والحاجة، والتعاون؛ لأنّه يعرف طبيعة مجتمعه، ويدرك تماماً أسباب الحفاظ عليه، وجمع شمله، كما يدرك أسباب الفرقة والنزاع فيه، فقد أراد أولاً أن يحافظ على المجتمع العربي-أو قل على العنصر العربي في مجتمعه-وهو يعي هذا الخطر، فراح يضع مفهوماً للحسد ويفصّل في الحديث عنه (لما له من أهمية كبيرة، في حياة مجتمع قائم على الأرحام والأنساب، والروابط القبليّة، وأرجع العداوة بين أفراد هذا المجتمع إلى سبب الحسد، واعتبره سبباً للشغب والفتنة، والاصطراع في حياة المجتمع العربي وارتباطه فيه، بحيث إذا زال الحسد زالت العداوة، وهذه الظاهرة إحدى جوانب الطبيعة البشرية)[3].

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج2 ،ص135- ص136).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج2 ، ص142).

(3) (معن خليل عمر، أصالة وعمق التحليل الاجتماعي عند الجاحظ، المورد ، ص45).

لعلَّ أبا عثمان كان أكثر أفراد مجتمعه اكتواءً بنار الحاسدين، فنجده في غير كـتاب من مؤلفاته، يفصح عن مدى أثره في حياته، فكم شكا أهل زمانه، فوجد أن السلامة من أذى الحاسدين، تكون بالإعراض عنهم ومداراة سخفهم.

ويعرض سامي كيّالي بعض آراء خصوم أبي عثمان، ثم يعلّق على ذلك بقوله: (بل أردنا من هذا الاستطراد، أن نشير إلى مدى مبلغ الحقد والصغار في نفوس بعض خصومه الّذين كان الحسد يأكل صدورهم، وهذا الّذي دفعه أن يخصَّ هذه الغريزة الرعناء، غريزة الحسد بكثير من أقواله)[1].

ويبدو أنَّ هذه الفئة الحاسدة وهذه الظاهرة الفاسدة، كانت من الكثرة بمكان في مجتمع أبي عثمان؛ حتّى راح يحذر من سمومها خشيةً على مجتمعه التمزق والفرقة، فيرسم صورة الحاسد، ثمَّ ينثر صفاته التي يجب على كل من يلمحها الحذر منها، والعمل على الوقاية منها، ويبدو أنَّ أبا عثمان كان يفقد الأمل من إصلاح هؤلاء الحاسدين؛ فهو شديد اليأس من أن يكون هؤلاء الحاسدون أسباباً للخير، فالحاسد لا يمكن أن يصوّب لك رأياً حتّى لو كان يعرف الحل السليم لمعضلتك، ولا يؤدي النصيحة لأحد بينما يسلّط لسانه وعينه على عيوب الناس متمنياً إزالة ما منَّ الله عليهم من نعمة، راجياً زوالها ومَحقها، فيصفه الجاحظ بأنه (الكَلب الكلِب، والنَّمر النمر الحرب والسُّمُّ القَشَب، والفحلُ القَنطِم والسّيل العَرِم إن ملَك قتل وسَبَى، وإن ملُك عصَىَ وبغى، حياتُك موتُه، وموتُك عِرسه وسرورهُ)[2].

والجاحظ لشدَّة ما أعياه الحسد وأعيى مجتمعه، الذي بات يبذل كلَّ ما بوسعه؛ حفاظاً عليه متماسكاً– لا سيَّما بعد أن أصبح خليطاً قد أفقده الامتزاج الكثير من قيمه ووشائجه التي كان يعول عليها في لحمة المجتمع وإرساء قواعده – لذا كان أبو عثمان وأمثاله كتَّاباً ومفكرين، يحملون حسّاً عربياً أصيلاً، ينادي بالعود إلى التعاون والألفة، ويحذّر من عوامل الفرقة، فراح الجاحظ يصف الدواء لهذا الداء، ثم يفرض عقوبةً على هذا الذي لوّث المجتمع، فهو لا يرى السلامة إلا في قطع الحاسد، ولا

---

(1) (سامي كيّالي، **النفس الإنسانية عند الجاحظ**، ص23).

(2) (علي بو ملحم، الرسائل الأدبية، **رسائل الجاحظ**، ص122).

السرور إلا بافتقاد وجيه، ولا الراحة إلا في صرم مداراته، ولا الربح إلا في ترك مصافاته.

ولأنّ الشر لا يولد إلا شراً، رأى الجاحظ أن علاج الحاسد ودواءه لا بدّ أن يكون من جنس مكره وعمله في غيره، متأثراً بالفلسفة والطب واليوناني، فأبو عثمان لو ملك عقوبة الحاسد ما عاقبه بأكثر مما عاقبه الله بإلزامه الهموم قلبه وتسليطها عليه، فزاده الله حسداً وأقامه عليه أبداً وذلك بأن يعيش الحاسد تأجُّج النيران في صدره وحرقتها كما أذاقها لغيره فقد (كان الجاحظ في عصره وبين حاسديه، هذا الموهوب الذي علا مقامه وبعُد صيته، وشاع فيض أدبه وعلمه، فطوى الكثيرين وخلّد أدبه هذا الزمن، ومن يدري فقد تكون هذه الظاهرة الرعناء الّتي داهمته في حياته، هي التي حفّزته أن يدرس أحوال الناس ويتتبّع أطوارهم، ويلاحظ أخلاقهم وطباعهم)[1]، ومع ذلك، ومع كل أضرار الحسد إلا أن الّذي يأسف له الجاحظ أنّ هذا الدّاء قد صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء، وكثر في الأقرباء وقلّ في البعداء وقد استدبّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين، وخُص به الجيران من جميع الأوطان. وهكذا حاول أبو عثمان دائباً أن يرسي من القواعد الاجتماعية المتينة ما استطاع، كحاجة الناس بعضهم بعضاً، فيعرض ما شاع في عصره الّذي ربّما يتنافى مع تلك السّمة التي طالما أصّل لها في كتابه، ويرى أن من نواتج الحسد الخطيرة نشر العداوة بين أفراد المجتمع، فربّما تعادى أقرب الناس وأحوجهم إلى بعض وأكثرهم تعاوناً كأهل الصناعة الواحدة، وأهل الحي الواحد، ومن تجري بينهم علاقة نسب ومصاهرة، فالجاحظ يرى أن أسباب العداوة هي(المشاكلة في الصناعة، ومنها التقارب في الجوار، ومنها التقارب في النّسب. والكثرة من أسباب التّقاطع في العشيرة والقبيلة، والسّاكن عدو للمُسكن، والفقير عدوٌ للغني وكذلك الماشي والراكب...)[2]، ولعلّ الكُتّاب والأدباء كانوا نموذجاً على ذلك.

وربّما أفاد علماء الاجتماع الّذين جاءوا بعد الجاحظ بقرون طوال من هذه الملاحظات الذّكية، الّتي كانت نتيجةً حتميةً وجادةً وثمرةً زكيّةً من ثمار إبحار أبي

---

(1) (سامي كيالي، **النفس الإنسانية عند الجاحظ**، ص25).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج7، ص96).

عثمان في عُمق مجتمعه وتنقيبه الجاد فيما يضر هذا المجتمع وينفعه (إنّ الجاحظ يشير إلى أسباب الصراع داخل المجتمعات، وهي التي ركّز عليها ماركس حديثاً والتي سمّاها بصراع الطبقات، فطبقة الفقراء تناصب طبقة الأغنياء العداء؛ بسبب عدم عدالة التوزيع في الثروات، وإن الساكن يكنُّ العداء لصاحب المسكن لأنّه يستغله، أمّا سبب عداوة أصحاب الصناعة الواحدة فهي المنافسة في الإنتاج وتصريف السلع، واجتذاب الزبائن)[1].

إنّ المجتمع الأمثل الّذي أراده أبو عثمان لأبناء عصره، هو ذلك المجتمع الّذي يسعى أهله جميعاً إلى تحقيق خير أفراده المشترك واحترامهم، والحفاظ على حريتهم؛ لذا كان الجاحظ دائم الدعوة إلى التعاون بينهم؛ لتحقيق تلك السمات السامية، الّتي ما توفرت في مجتمع من المجتمعات إلا وزانته، وما خلا منها مجتمع إلا وشانته؛ لذا نجده في كتابه الحيوان يضع فصولاً متعددة في السلوك الخُلقي، داعياً إلى التمسّك بالفضائل التي تُميّز المجتمع المسلم عن غيره، حتّى يكون نموذجاً وقائداً لسائر المجتمعات، وقد جاء تركيز الجاحظ على هذه الأخلاق والفضائل ليذكر الناس دائماً بدينهم وخصائص أمتهم العربية، وشيمهم التي تميّزوا بها عن سائر الأمم كالكرم والوفاء والنخوة والشجاعة وإغاثة الملهوف وحماية الجار...، إلى غير ذلك من تلك الشّيم المتأصّلة في روح الأمة ؛لذا جاءت نداءاته، صرخةً مُدوّيةً في أعماق المجتمع، داعياً إلى المحافظة على كلّ ذلك، لا سيّما وأن المجتمع في تلك الأثناء كان يواجه غزواً ثقافياً شاملاً جعل الكثير من أبنائه يقعون في أسر ذلك الفخ الأجنبي، فتبهرهم تلك الثقافة الدخيلة بما تتضمّنه من مستجدّات، كان القوم قد تفاجئوا بها فأصيب البعض بصدمة ثقافية أفقدته التوازن، فصار مقلّداً متخلّياً عن ثوابت أمته ومجتمعه وبيئته، وهذه الفئة المقلّدة الهوجاء، التي ناصبت الأمة العداء من حيث تعلم، ولا تعلم هي الّتي كان أبو عثمان يرى فيها أشد الخطر على الأمة، وعلى لُحمة المجتمع، فباتت أكثر خطراً من أعداء الأمة أنفسهم.

---

(1) (علي بو ملحم، **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، ص 68).

لقد دعا الجاحظ إلى التّحلي بالصفات القويمة كالإحسان والبر والوفاء بالوعود والكرم والتعاضد، والقيام بالواجب الإنساني، ثمّ الاعتدال في طلب اللذائذ، وذلك بتسليط الإرادة على الهوى، وكبح جماح النفس الغاوية، فهذه الأخلاق كفيلة بإيجاد مجتمع فاضل، فالجاحظ يقرّ بأنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، لا يمكن فصله عن سائر المجتمع بأي حال من الأحوال، لذا يستخدم لإصلاحه أسلوب الإصلاح الفردي؛ فيركز على إنسانية الإنسان ويخاطبه على أنّه صورة مصغرة لهذا الكون العظيم، الّذي يحتوي على جميع ما يتضمنه المجتمع ويطمح إلى إصلاح الفرد أولاً؛ ليعمر به مجتمعاً صالحاً، ويطلب إلى الإنسان أن يعرف قيمته ويدرك المكانة السامية التي أناطه الله سبحانه بها، فلديه العظيم من القدرات الّتي كل يوم هي بازدياد ونمو، إذا رام الإنسان ذلك واجتهد له. ويمضي الجاحظ إلى القول (وأنا أزعم أنّ الناس يحتاجون بَدِيّاً إلى طبيعة ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف. وأوّل ما ينبغي أن يبتدئ به صاحبُ الإنصاف أمره ألا يعطي نفسه فوق حقها، وألا يضعها دونَ مكانِها، وأنّ يتحفّظَ من شيئين، فإن نجاته لا تتمّ إلا بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تُهمة السّابق إلى القلب-والله الموفق)[1].

فإن عَلِمَ الإنسان قيمة نفسه ووعى قدره واستوعب إمكانياته، كان قادرا على قيادة أمة، وتأسيس مجتمع إنساني، فالإنسان مفطور على التجاوب مع الغير وتبادل الرأي، وهو في الوقت ذاته ملزم بالقيام بإصلاح العالم الأكبر وإعماره، الذي هو كما صوّره أبو عثمان صورةً مصغرةً عن هذا العالم يمثّله في كافة أطواره وخصائصه.

ولأنّ أبا عثمان عالم موغل في دروب العلم، فإنه يؤمن إيماناً تامّاً بأنه من أهمّ أسس قيام المجتمعات والحفاظ عليها أن تسود المساواة بين طبقاتها، وأن يبتعد أفراد المجتمع عن الكبر والخيلاء ما استطاعوا، فالتواضع هو الكفيل بأن يبث الألفة والمحبة بين أفراد المجتمع، وينشر العدل والمودة، فقد رأى الجاحظ نفوساً تنزع إلى التكبر دون أن يكون عندها مقوّمات ذلك، فبحث أمر الكِبر في مجتمعات أخرى قبل

---

[1] (الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص207).

أن يكون مجتمعه، فيقول بأنّ الناس قد عرفوا أفخاذاً وقبائل عربية عرفت بالكبر، وربّما كان لهذه القبائل مقوّمات العزة والافتخار بالذات (والمذكورون من النّاس بالكبر، ثمّ من قريش: بني مخزوم، وبني أميّة ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عُدس خاصّة)[1].

أمّا في مجتمعه الذي ورث أخلاقاً وعادات عن الفرس، كان الجاحظ يخشى على أهل زمانه العدوى منها، لاسيّما أولئك الذين يحملون نفوساً قلقةً، مائلة إلى التغير، قابلةً لأن تُشحن بالكثير من الأفكار، فينتقد الطبقيّة والفوقيّة لدى أكاسرة الفرس، هؤلاء الناس الّذين تعالوا على العنصر العربي فغاظهم أن تسلب المهابة والحكم من تحت أقدامهم، زاعمين أنّهم يمتلكون شرفاً وجبلةً لا يمكن مقارنتها بالجبلة العربية، محاولين أن ينالوا من العنصر العربي في شتى المجالات، وإن شعر بشّار وغيره من الزنادقة لهو خير شاهد على ذلك التعالي والكبر، فقد كانوا يؤمنون بأصل خلقهم من النار، والنار عندهم معبودة مصانة لها بيوتها الخاصة ولها سدنتها القائمين على شؤونها، في حين أن العنصر العربي خلق من طين والنار أشرف من الطين (فأمّا الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدّون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلا أرباباً. ولسنا نخبر إلا عن دُهماء الناس وجمهورهم كيف كانوا، من ملوك وسوقة)[2].

وقد لاحظ أبو عثمان أنّ هذه الصفة قد تسربت إلى مجتمعه، وقد رآها تنتشر بين الأجناس الذليلة-على حد تعبيره- فهؤلاء كان الله بحكمته قد قدّر عليهم عقولهم، وإمكانياتهم؛ لأنّه سبحانهُ هو الأعلم بنفوسهم، فربّما لو أتيح لهم فرطاً من الرزق لكانوا أوّل المتكبرين والمتعجرفين، إلا أنه سقط بأيديهم لقلّة أو عدم وجود مقوّمات التكبّر لديهم، وهذه الصفة الكريهة السلبية إذا تفشت بين الناس، كانت من أهمّ أسباب الفرقة والتنافر وزرع بذور العداوة بينهم. فيقرّر الجاحظ أمراً بات عنده حقيقةً (والكبر في الأجناس الذليلة من النّاس أرخص وأعمّ. ولكن الذّلة والقلّة مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة...، وعلى هذا

---

(1) (الجاحظ، الحيوان،ج 6، ص70).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص71).

الحساب من هذه الجهة، صار الملوك أسوأ ملَكَةً من الدُر)[1]، ثم يقرّر ويؤمن بأن العلم وحسن الإيمان هما الكفيلان بإعادة الجماعة أو الفرد إلى رُشده وإلى التواضع المنشود منه، وإلى حسن نظرته وتعامله مع الآخرين (فأمّا بنو مخزوم. وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، وبنو زُرارة بن عُدُس، فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة. ولو كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعي الحميّة فيهم، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم، وفي إنصافهم لمن دونهم)[2].

ويمقُت أبو عثمان هذا الكبر ،الّذي هو أساس كل تفرقة اجتماعية بين الأفراد وبين الطبقات، وبعد ذلك أو قبله فهو يفرض العلم النافع كأداة حل لحل مشكلات المجتمع ، فالعلماء كما يرنو إليهم أبو عثمان وكما يتأمّل فيهم كلّما رقوا في درجات العلم قدماً، كلّما زادهم ذلك تواضعاً، وسموا عن ماديّات الحياة الرخيصة، وخير وسيلة يرشد إليها لإيصال العلم المنشود، هو ذلك الكتاب- الّذي عاش طيلة حياته مادحاً له متغنياً به-، فقد كان شديد الحب للكتاب، فهو يُعدّ من أهم مفكري العرب والمسلمين الّذين أشاروا إلى أهمية الكتاب في حياة الناس والعلماء على وجه الخصوص، وكم شجّع بحرقة وغيرة على اقتناء الكتاب ودرسه وفهمه، وهو في هذا المقام لا يدع مجالاً لمنافسة قرين ولا مجاراة مبارٍ، ونجده دائم الحثّ على ملازمة العلماء وتلقّي العلم عنهم، فنصحه لأهل العلم بأن إذا أردت أن تتعلم فجالس العلماء، فكن على أن تستمع أحرص منك على أن تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه، فتلك هيَ آداب العلم التي ينادي أبو عثمان إلى تحصيلها، والعلم عنده مراتب وأنواع، وأفضله علم كان في الله؛ لأنّ هذا العلم هو مفتاح لكل العلوم النافعة، التي يجب أن تقترن بالخُلق الجميل وبسعة الصدر، حتّى قيل ما قُرن شيء بشيء أفضل منه، إلا علم قُرن بخلقٍ وفضيلة، وهو يعجب من هؤلاء الذين بوسعهم التعلّم، لكنهم يفضلون أن يعيشوا دون علم، وذخيرتهم ضئيلة في ميادين العلم والمعرفة فيقول (ما أكثر من يضيق صدره لقلة علّمه)[3].

---

(1) (الجاحظ، الحيوان،ج 6، ص72,71).

(2) (الجاحظ، الحيوان،ج 6، ص72).

(3) (الجاحظ، الحيوان،ج 3، ص235).

والعالم لا بدّ أن يترفّع على سفاسف الأمور إن كان عالماً بحق، إذ أن تلقي العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفة.

({و} قالت العلماء في الرّجل الفاضل: إنه لا ينبغي أن يُرَى إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما إمّا مع الملوك مكرماً، وإما مع النساك متبتّلا، كالفيل إنمّا بهاؤه وجماله في مكانين: إما في البرية وحشياً، وإما مركبا للملوك)[1].

فهو يطرح العلم والدين كعاملين أو كأهم العوامل التي يمكن أن تسيطر على سياسة الأمور داخل المجتمع الواحد، ونجده ينقم على التفرقة الطبقية والعنصرية، ويتحدث عنها كلما أتيح له ذلك، ويضرب مثالاً على الظلم الاجتماعي ساخراً من تلك الهيبة المزعومة لبعض الفئات، التي تسعى إلى تمييز ذاتها ومحيطها بأي شكل من الأشكال، فيعلق على ما يعد لعملية الختان من طقوس وترتيبات خاصة تحت عنوان ختان أولاد السفلة (وأولاد الملوك وأشباه الملوك... ويختن من أولاد السفلة والفقراء "الجماعة الكثيرة" فيؤمن عليهم خطأ الخاتن وذلك غير مأمون على أولاد الملوك وأشباه الملوك، لفرط الاجتهاد "وشدة" الاحتياط، ومع ذلك يزمع ومع الزمع والرعدة يقع الخطأ وعلى قدر رعدة اليد ينال القلب من الاضطراب على حسب ذلك)[2].

ولعله أراد أن يقول فإن لم تكن على الأرض عدالة اجتماعية، فعدالة الخالق فوق كل تدبير وترتيب بشري. وأبو عثمان بأسلوبه الذكي وفكره الثاقب، يستخدم طريقين في عرض أفكاره، أما الطريقة المباشرة والمعهودة عنده التي يصرح عندها عن كل ما لا يروق له وهو لا يداجي أحداً ولا يجامل في سبيل الحق وإيصال الحقائق، على ما هي عليه صورةً طبق الأصل خاليةً من أنواع التزويق والتزين، وإما أن يختار وبمحض إرادته الطريقة الموحية بمراده، وربما كانت الثانية أشد أثراً وأبعد خطراً وأجدى فائدةً، فهو عندما يناقش أمر الختان لا يتوقع المرء منه أن يعرض لقضية المساواة والعدالة الاجتماعية، فيبين الظلم الذي يقع على الكثير من الطبقات الاجتماعية ومجتمع الجاحظ ظاهرة متكررة في كل حين وكل زمان

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج 7، ص93).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**،ج 7، ص26 – 27).

فالتوزيع الطبقي الذي أقره الجاحظ هو ذاته الذي طبقه الدارسون في علم الاجتماع في دراساتهم على كافة المجتمعات بقطع النظر عن الموقع الاجتماعي لدولهم أو لغاتهم أو ما يسود لديهم من أنظمة أرضية فشلت وظهر عجزها على إقامة مجتمع سليم يوفر لأفراده الراحة والرفاه المادي أو حتى الكفاية المادية والراحة النفسية والهدوء الذهني والنشاط العقلي.

والجاحظ لا يجد في نفسه كِبراً في محاورة الناس على اختلاف طبقاتهم، فكما كان قادراً على مسامرة الخلفاء ومجالستهم، فقد أراد أن يثبت لقرّائه ومريديه وتطبيقا لتنظيره الاجتماعي، فهو في الوقت نفسه يحاور العبيد ومن هو دونه علماً ومالاً وخلقاً، فيعرض في حيوانه حواراً مع عبد هندي ولا يجد في نفسه غضاضة من أن يجالس العبد ويستمع إلى كلامه، لكنه في الوقت نفسه يعرضه كشاهد على الكبر عند طبقات العبيد، وكعادة أبي عثمان يسوق هذا الشاهد وهذا المثال الحي على التكبر من خلال حديثه عن الفيل وفوائده فيقول (فسمعني غانم العبد يوما وأنا أحكي هذا الكلام–كلام عن الفيل– وكان من أموق الناس وأرقعهم رقاعة، مع تيه شديد وعجب ورضا عن نفسه، وسخط على الناس. فمن حمقه أنه هندي وهو يتعصب على الفيل فقال...)[1].

وكم يلجُ أبو عثمان إلى عالم الحيوان، متجاوزا بذلك عالمه؛ ليعرض من خلاله ومن مجتمعه صور التعاون والوفاء وقوة الروابط بين مجتمع الحيوان، ليتأسى به البشر فتأتيهم الحكمة من أقل المخلوقات شأناً، وفي الوقت نفسه يعرض أبو عثمان صوراً في الخداع ونقض العهد؛ لتكون أيضا عبرةً لبني البشر يحذرونها، أو قل هو ينقد بها تغير الأخوان والأصدقاء، وربما الرعية والبطانة والحاشية مع تغير الظروف وتبدل المصالح، فيعرض ناقداً مشهداً من عالم الحيوان يقول فيه (وقال: فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان ذات يوم توجه الأسد نحو الصيد، فلقيه فيل فقاتله قتالاً شديداً، وأُفلت الأسد مثقلا يسيل دماً، قد جرحه الفيل بأنيابه، فكان لا يستطيع أن يطلب صيداً. فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياما لا يجدون ما يعيشون

---

(1) (انظر الجاحظ، الحيوان،ج7 ، ص109).

يه من فضول الأسد، وقال وكيف يرجو إخوانك عندك وفاءً وكرماً وأنت قد صنعت بملكك الذي كرمك وشرفك ما صنعت. بل مثلك في ذلك كما قال التاجر: إن أرضاً يأكل جرذانها مائة منٍّ من حديد غير مستنكر إن تخطف بزاتها الفيلة)[1].

نحن إذ نرى أبا عثمان يدخل للحديث عن مجتمعه من أبواب عديدة، فمرةً يكون ناصحاً أميناً يسدي النصح المباشر، نصح العالم الحكيم، وأخرى يأتي باب النقد الساخر، وتارة يحرك العواطف الدينية، فيلقي الحكمة والعظة مستشهداً بكلام الله سبحانه وحديث رسوله- صلى الله عليه وسلم-، ومرة يأتي كلامه تلميحًا موحياً بكل ما أراد، وطوراً يوري في كلامه وكأنه يتحدث عن أناس ليسوا من أهل زمانه، فما هذه الأساليب المتنوعة والمتباينة، وما هذه المراوحة في المسالك من الجاحظ إلا لمعرفته بأهل زمانه وأهل مجتمعه، فقد عرف المجتمع العباسي وخبره جيداً، ورأى صوره المختلفة الإيجاب منها والسلب، بل وأننا نجده ينخرط في بعضها أحياناً فيمارس ذلك الدور حتى إذا ما جاء ليكتب بأمر ما فيكون حديثه وقوله قول الخبير المجرب، فقد تجاوز دور الجاحظ دور الأديب والذي رسم مجتمعه بواقعية متناهية في نقل صوره ومشاهده، أو وصف ما كان يجري وما كان يدور في هذا المكان أو ذاك كالمساجد، والمكتبات ودكاكين الوراقين وسوق المربد والقصور والأسواق وبعض الأحياء، التي كان يزورها .لقد نقل كل ذلك بعين الناقد وبأسلوب حاد إلا أنه لاقى رواجاً عظيما مما لفت عيون الحاسدين نحوه، فأبو عثمان بتلك الشمولية وسمته الموسوعية بالتفكير ما كان ليرتضي أن يكون كأي أديب أو شاعر ينظم للخلفاء والوزراء قصيدة مدح، أن يكون ناثراً يُنشئ قصةً أو أحدوثةً لينال لقاءها المكاسب المادية؛ بل كان نقده يتجاوز الحياة الاجتماعية إلى الحياة بمفهومها الواسع، وهذا ما لمسناه من خلال كتاب الحيوان.

ولم يكتفِ أبو عثمان بأن يعالج ما يحتاج له مجتمعه، ولم يكتفِ في أن يبحث في مقوماته، فيبين أهمية التعاون بين أفراد المجتمع ويشرح الأمراض الاجتماعية التي تبث العداوة والفتن بينهم؛ بل راح يدرس المجتمع أرضاً وبشراً تضاريس

---

[1] (الجاحظ، الحيوان،ج 7، ص94).

ومناخاً وبيئةً دراسةً شاملةً، ثم يتجاوز ذلك ليجمع بين موجودات ذلك المجتمع من إنسان وحيوان، حيث أن الحيوان في تلك الأثناء كان له حضوره والذي يجب أن لا يغفله أي دارس وباحث أو محلل لتلك المجتمعات (فلم يكتفِ الجاحظ بوصف طبيعة المجتمع العربي وتحليله؛ بل وصف الحيوانات التي تعيش معه وألفها باعتبارها تمثل إحدى عناصر البيئة العربية التي يعيشها الإنسان العربي)[1].

لقد لعب الحيوان في حياة المجتمع العربي دوراً عظيماً تنبه له الشعراء منذ العصر الجاهلي، فنظمت القصائد الطوال التي كانت تسير عبر نمطية معينة تتخللها مراحل وأجزاء، كان وصف الحيوان يأخذ منها وفيها الحظ الأوفر كوصف الظعن، فقد تفنن الشعراء وأبدعوا في وصفهم الظعن المرتحل، وبقطع النظر عن هدف القصيدة التي ينظمها الشاعر، فقد كان لوسيلة النقل (وهي على الأغلب الناقة) المجد في القصيدة في وصف أصلها، وسرعة حركتها وفخامة جسمها وطولها وسائر سماتها، وبقي هذا التقليد للشعراء حتى زمن الرسول-صلى الله عليه وسلم- فكعب بن زهير عندما نُبّيء بأن الرسول قد أوعده راح ينظم قصيدةً يعتذر فيها عما بدر منه في جنب الإسلام ورسوله العظيم، وقد أخذ وصف الناقة أبياتا طوال من قصيدته تلك، مبيناً أنه ما اختار تلك الناقة دون غيرها إلا لسرعتها، وتميزها فلم ينسه ما كان فيه من ضيق وخطر وحرج أن يسير وفق ذلك النمط، الذي أخذ فيه وصف الراحلة الشيء الكثير؛ لما لذلك من أهمية في إثراء القصيدة العربية في مقاييس تلك الحقبة، التي كان يعيشها كعب تأثراً بمراحل من سبقه من تاريخ القصيدة العربية ومن ذلك قول كعب:

(أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيلُ
ولن يبلّغها إلا عذافرةٌ ... فيها على الأين والإرقالّ تبغيلُ
ضخم مقلدها عبلٌ مقيدها ... في خلقها عن بنات الحي تفضيلُ
حرفٌ أخوها أبوها من مهجنةٍ ... وعمها خالها قوداء شمليلُ)[2]

(1) (معن خليل عمر، **أصالة وعمق التحليل الاجتماعي**، ص24).

(2) (شرح بانت سعاد من ص161 –125).

ومالك بن الريب في صدر الإسلام لم ينسَ في مرثيته لنفسه، جواده الذي أحب إذ يعطف عليه في تلك المرثيّة المبكية، فيلتفت إليه لفتة عاطفية تحكي العلاقة التي كانت بينهما أثناء حياته، واصفاً حال جواده بعد فراقه، فهو يقول بأن جوادهُ سيفتقده، كما افتقده سيفه ورمحه وأهله، فالحالة الشعورية التي جسدتها علاقة عظيمة بينه وبين جواده أدت إلى الارتقاء بمشاعر الحيوان والاعتناء بها إلى درجة أن تكون محزنة في حالة الفقدان كما هي حال الإنسان

وأشــقر محــبوك يجــر عــنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقياً

ولعل ما سبقت الإشارة إليه هو الفجر الذي حدا بالجاحظ بأن يفرد مؤلفاً خاصاً، بالحيوان دون أن ينسى علاقته بالإنسان وأثره في المجتمع العباسي، الذي كان اعتماد ذلك المجتمع عليه عظيماً مما جعله جزءاً من نسيجه، إذ كان يشكل بالنسبة لهم وسيلة التنقل الأولى،والثراء المادي ومصدر الغذاء والمكانة الاجتماعية، وهو الوسيلة الأولى وقت القتال، ولأهميته الكبيرة أخذت القبائل العربية تتسابق بتسمية نفسها وأبنائها بأسماء الحيوانات، فقد أبرز الجاحظ أهمية الديك في تنظيم أوقات الناس فكان يمثل الإسطرلاب في حياة المجتمع العربي وقد وصفه الجاحظ بأنه يعرف الليل وساعاته (ثم معرفة الديك بالليل وساعاته، وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته: يعرف آناء الليل وعدد الساعات، ومقادير الأوقات. ثم يقسّط أصواته على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يغادر منه شيئاً. ثم قد علمنا أن الليل إذا كان خمس عشرة ساعة انه يقسط أصواته المعروفة بالعدد عليها، كما يقسطها والليل تسع ساعات، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء الحصص على حساب ذلك. فليعلم الحكماء انه فوق الإسطرلاب، وفوق مقدار الجزر والمد على منازل القمر، وحتى كأن طبعه فلك على حده. فجمع المعرفة العجيبة والرعاية العجيبة)[1].

ولأن مجتمع الجاحظ الذي كان العرب والفرس هما العنصرين الرئيسيين فيه، وكان لكل فريق منهما رمز فقد كانوا يشيرون للفرس بالديك بينما كان الكلب يشار به إلى العنصر العربي في ذلك المجتمع؛ لذا فقد أقام الجاحظ مناظرات طوالاً وجدلاً

---

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج 2 ،ص241-242).

على ألسنة شيوخ المعتزلة حول الديك والكلب؛ لما للديك من منزلة ومكانة في حياة الفرس إضافةً للجانب الذي كان يمثله الكلب بالنسبة للمجتمع العربي، إذ كان الكلب رمزاً للوفاء فتعهد إليه حراسة البيوت والمزارع وكان يعين القوم في صيد الحيوانات، لذا جمع أبو عثمان في هذا الكتاب بين إنسان مجتمعه وما يستخدمه من حيوان مبيناً الحاجة الماسة والأهمية العظيمة للحيوان، الذي شكل علاقةً وطيدةً مع أفراد المجتمع العباسي مع أنه كائن غير بشري.

لقد نجح الجاحظ في مزجه المبدع بين معطيات البيئة، واستطاع بأسلوبه الخلاق أن يبتكر نوعاً جديداً من الفنون وأن يتحول بالنثر حتى يعالج به موضوعات الحياة بمفهومها الواسع، إذ كان له الفضل الأكبر في إيجاد نوع جديد من الأدب وهو الأدب الاجتماعي المعاصر، حيث تمكن وفي كثير من الأحيان توظيف كل ما كان بجعبته عن مجتمع عصره وما وعى عقله من معلومات عن هذا المجتمع، وخصوصا أهل البصرة ومجتمعها، لقد قدم لقارئه أدباً يعتمد فيه على عرض أهل زمانه متبعاً الوصف الدقيق للنفسيات والطبائع والأخلاق، معتمداً في ذلك كله أساليب وطرق متنوعة لإيمانه المطلق بأن الحديث عبر المسلك الواحد والوتيرة ذاتها من شأنه أن يورث القارئ الملل ويعدمه الفائدة.

لقد قدم أبو عثمان في هذا المقام من العلم ما لو أخذه علماء الاجتماع بعين الاعتبار؛ لكان فيه فائدة عظيمة إضافةً إلى ما كانوا قد تنبهوا له مما أثاره الجاحظ فقاموا بدراسته والبناء على أساسه؛ حتى يظهر، وبعد الجاحظ بقرون ما يسمى بعلم الاجتماع لدى الماديين وغيرهم من منظّريين في هذا المجال إلا أن أبا عثمان لم يكن مصوراً ومتفرجاً كغيره من الأدباء والمنظريين؛ بل كان أديباً وكاتباً وعالماً منصفاً وناقداً لاذعاً لشرور مجتمعه ومساوئه وفئاته المشعوذة والمتكسبة، التي كان النفاق الاجتماعي أهم مهنه يمتهنونها. ونجده ينقد جهالة العوام، وتكبر السادة واستعلائهم واستغلال المستغلين، هذا وقد أطال في وصف الحاسدين وهم أكثر الفئات التي تأذى بها بل واكتوى بنيرانها وربما سبب له الحاسدون الكثير من المعضلات في حياته، التي طالما جاهد للتغلب عليها لا سيما وأن عصر مجتمعه كان مختلف عن كل العصور وعن كل المجتمعات؛ لما اتسم به من تقلبات سياسية

ما كان للمرء أن يأمن شرها وما كان لأبي عثمان أن ينجو من سمومها إلا بذكائه الحاد، وحنكته السياسية ومداراته الفطنة.

3. 3 البيئة عند الجاحظ

لقد أطلق أبو عثمان العنان لقلمه ولسانه، هذا اللسان الذي كان يصدر عن عقل موسوعي وذاكرة كان قد ثقل عليها كل ما احتفظت به، وخزنته من شؤون عالم قائم، ليس فقط ما كان يخص العصر العباسي، أو الأمة العربية الإسلامية،أو ما يخص قرناً زاخراً من العمر؛ بل أنها كانت تحمل تاريخ أمة ودقائق عوالم وألوان متباينة متناقضة، من فكر الأمم والأيدولوجيات التي ضرب العصر العباسي المثل في اختلافها وتناقضها، فقد كان ذلك العصر بما ساده من حرية فكرية نواةً لفرق ومبادئ وجماعات ونحل، ما زال العالم يفتخر ببعضها، كما أنه ما زال يعاني شرور ونقمة بعضها الآخر، فيالعقل أبي عثمان! ويا لتلك المخيلة النشطة والذاكرة في التدوين! فقد استوعب وركب ونظم وخاض في مجالات الحياة العباسية؛ ليستشهد على ما يتحدث به برواية وإخبارية قديمة العهد عادية الميلاد.

قد تحدث في العلوم- كل العلوم- التي عاش تطورها ونموها، وتحدث في العقائد على تباينها وتحدث في النفس الإنسانية على تشعبها، فكان همه الأول إيجاد الفكر النير والثقافة المشرقة لأمته، وبناء الإنسان السوي لبنة المجتمع الأولى الذي منهُ ينطلق كل خير، وبه تعمر الإنسانية جمعاء، فراح يبيّن الشرور التي تكتنف النفس وتعتريها حيناً بعد حين، ويحذر من عواقبها ساعياً إلى بذر الخير في المجتمع، داعياً إلى التعاون بين أفراده، ضارباً المثال على ذلك من حياة الحيوان، علّ هذا الإنسان يجد فيه مقنعاً في لهوه وعبثه، فيكفّ شره عن أخيه، ماداً له يد العون لحمل أعباء الحياة.

لم يضع أبو عثمان لعقله المعطاء، وقلمه السخي حداً معيناً يقف عنده، كما أن فكره لم يكن محدود العطاء، فلم يحد تدفق هذا الفكر إلا الموت، فهو يتجاوز عالم الحيوان والحديث عنه؛ ليسبر غور البيئة المحيطة بالإنسان والحيوان، فيبحث فيها بحثاً مطولاً في حيوانه متحدثا عن التراب، وعن الماء والهواء، وما لهذه العوامل البيئية من آثار في خلق الإنسان، ومزاجه ولون بشرته، بل وسائر صفاته وأحواله.

ثم يبين أثر هذه البيئة الممتدة على الحيوان الذي أوجده الله لخدمة الإنسان في حله وترحاله، في مأكله ومشربه وملبسه ورفاهه، وبالتالي فإن الأثر الذي سيقع تحته الحيوان لابد أن الإنسان معرّض له، متأثر به لا محال، آخذاً بعين الاعتبار هذه النفس التي يحملها الإنسان بين جنبيه ،إنها غاية في التعقيد التركيبي دقيقة النسيج، عديدة المنافذ والأبواب، متشعبة المفاتح متناقضة الأهواء والأذواق والأمزجة.

وأبو عثمان كان قد نظر إلى هذا الكائن الإنساني نظرةً عميقةً، وحاول أن يوجد العلاقة التي تسود بين الإنسان وموجودات الكون، من حيوانٍ ونباتٍ وهواءٍ وترابٍ وماءٍ، وأن يدرس هذه الوشائج؛ ليخرج بنتائج تعطي الإنسان المرتبة الأولى من حيث الأهمية ،حيث أن كل ما في الكون مسخرٌ له، والإنسان بدوره ما هو إلا صورة مصغرة عن هذا العالم، فهو يحتوي على جميع الأشكال التي يتضمنها العالم الأكبر، والإنسان يأكل كل ما تأكله الحيوانات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويتصف بجميع صفاتها، ففيه صولة الجمل وغضبه وهياجه، إذا ما رأى كل من آلمه وسبّب له غصةً في حياته، إلا أن الإنسان هدأت نفسه وأثّر عليه الجانب الإنساني، فكان الغضب ناراً تستعر داخله إذا ما رأى عدوه، وفي الإنسان كما رأى الجاحظ وثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفرد، وجمع الذرة، وجود الديك، وإلف الكلب، وهداية الحمام، ومن الطبيعي بل استحالة توفر هذه الصفات جميعها في شخص بعينه، بل إن بعضها ربما وجد في أشخاص معينين دون غيرهم، كما أن أبا عثمان لم يقصد أن كل إنسان لابد أن يكون فيه مكر الثعلب ووثوب الأسد، والجاحظ يمضي بهذا القول إلى أن الإنسان صورةٌ عن العالم الأكبر؛ ذلك أنه لا يستطيع أن يصور كل شيء بيده كما لا يستطيع أن يقلد كل صوت بفمه، ثم إن معنى قوله السابق إن جسم الإنسان يتركب من تلك العناصر التي يتركب منها الكون الأكبر، وهي كما يقول: النار، والهواء، والماء، والأرض، إلا أن الإنسان بما حباه الله من نعمة العقل والمنطق يتميز عن كل هذه الموجودات الكونية، فكرامته أن كل هذا الكون وجد لخدمته وكفاية مطلبه وسد حاجته، ومع هذا فالإنسان هو خليفة الله في الأرض المتصرف بموجودات هذا الكون بإرادة الله

وقدرته، فهو سبحانه جعل من الإنسان السيد البشري المتحكم بجميع هذه القوى المحيطة به، إلا أن جميع هذه العناصر الكونية البيئية تُخضع الإنسان في كثير من الأحيان لأن يقع تحت تأثيرها، خلقاً وطبعاً، إلى غير ذلك من تأثيرات بيئية تحدث الجاحظ عنها، وبذا كان قد سهل الطريق لابن خلدون ليدلي فيها بدلوه من بعده، فيتحدث عن البيئة وأثرها في تنظيراته في علم الاجتماع بعد الجاحظ بأربعة قرون.

ثم إن البيئة التي عالج أثرها الجاحظ لم تقتصر على أثر الهواء والماء والمناخ؛ بل أنه عالج البيئة البشرية، فاعتبر الأسرة بيئة، بل هي أخطر البيئات تأثيراً على الفرد، وقال بأن المهنة والصناعة بيئة، فمجال العمل بيئة، وتوسع أبو عثمان في هذا المفهوم ؛ليشمل كل العناصر التي تحيط بالإنسان ثم من مجموعها تتشكل شخصيته،وتصقل وتتكون أخلاقه، فتتميز بحسب ما يتعرض له من مؤثرات.

لقد بين الجاحظ أن الإنسان كائن اجتماعي يتفاعل مع هذه العناصر المحيطة به، مما يوجد عنده طبائع متنوعة، متضاربة، يبرز بعضها على بعض، بحكم طبيعة العوامل البيئية التي يتعرض لها وهي تلعب الدور الأكبر في تطبيع الإنسان وتنشئته، فيركز الجاحظ في حديثه على عوامل البيئة المختلفة التي تختلف تبعاً لتضارب طبائع الناس وأخلاقهم وألوان بشرتهم، ليعود ويؤكد ما كان قد وضعه أساساً من الأسس التي تُبنى عليها المجتمعات، وهي أن الناس ما اختلفوا إلا ليأتلفوا ولو افترضنا أن الناس–جميع الناس– كانوا قد وقعوا تحت تأثير ظروف بيئية موحدة أو –على أقل تقدير– متشابهة، فالناتج الطبيعي من ذلك سيكون إيجاد أفراد لهم الطباع ذاتها، وألوان البشرة ذاتها، والأخلاق ذاتها، وهذا بالتأكيد لن يؤدي إلى ائتلاف المجتمع بحال من الأحوال، فنجد أصحاب البشرة السمراء عادة لديهم ميل ونزوع تجاه ذوي البشرة البيضاء والشقراء، وربما كان العكس صحيحاً في مثل هذا المجال،والناس يرتحلون إلى المناطق الباردة إن هم كانوا يعيشون في مناطق حارة، ونرى انتقال أهل المناطق الحارة إلى مناطق أكثر اعتدالاً كسراً لما يعيشونه، ويعانونه من روتين كانوا قد اعتادوه، وكذلك حركة التجار في مبيعاتهم، فحركة الجو والبر والبحر ككل منذ بدء الخليقة، وقد أقر الله سبحانه هذه الطبيعة المتنوعة

لدى بني البشر حيث قال (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)[1]، والمسؤول الأول عن كل هذا التباين البيئي الذي- شاءت حكمة الله سبحانه إيجاده-هي مصلحة الكون وإعماره (وفي الأرض قِطَعٌ مُتجاورات وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنوانٌ وغيرُ صِنوانٍ يُسقى بماءٍ واحدٍ ونُفضّلُ بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون)[2].

والبيئة كما نعلم تمثل مجموعة المثيرات التي يتعرض لها الفرد وعلى ضوئها يحدد نشاطه الذي يقوم به، أو أن هذه المثيرات والعناصر التي تحيط بالمرء تتحكم بنوع الأنشطة التي يمكن المرء ممارستها والقيام بها، فتبدأ سيطرة البيئة على الإنسان منذ الخليقة الأولى له، فإما أن تخضعه إخضاعاً تاماً لتأثيراتها، وإما أن يتمكن من تذليل بعض صعوباتها؛ ليزاول حياة أكثر نشاطاً وفعاليةً في المجتمع الذي يعيش فيه.

والجاحظ لم يهمل أثر البيئة على الإنسان، حيث تعرض في حديثه لأثر الظروف الجوية أو بكلمة أكثر شمولية للظروف المناخية بالنسبة للفرد، فللبيئة بشكل عام أثرها على الطبع والخلق وعلى اللون، حتى أن البيئة تؤثر أيضاً في ثقافة أهلها وفي معجمهم اللغوي وما يستخدم من ألفاظ، كما سنبين فيما بعد، ففي أثر المناخ يُبرز أبو عثمان أثر البيئة بقوله(لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي؛ فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع يأجوج ومأجوج)[3]، إذ تؤثر البيئة على طباع الناس كما بيّن الجاحظ الذي لاحظ بل أدرك ذلك الأثر، حيث أن الآثار السيئة التي تنتج عن طبيعة ذلك المناخ تنعكس سلباً على طباع أهل تلك المنطقة، فيضرب أمثلةً على ذلك الزنج وهم الذين يضربهم الجاحظ مثلاً لكل شر، ولكل أمر سيء في كتابه الحيوان، فإن جاء ليبين التشاؤم بالغراب ضرب مثلاً بالزنج، كذلك إن جاء يمثل للحمار فلم يجد أفضل من الزنج مثلاً، بينما ذهب بعضهم إلى أن أبا عثمان في

---

(1) (الحجرات، آية12).

(2) (الرعد، آية 4).

(3) (الجاحظ، الحيوان، ج 4 ،ص70-71).

رسالته التي كتبها عن الزنج كان يمتدحهم فيها،ناشداً تحقيق المساواة بين الأعراق وبين الجنس العربي وغيره، ونقول إنما رسالة الجاحظ في الزنج ربما لم تكن من أجل أن يمتدحهم فيها ويمتدح أخلاقهم، إنما أراد أن يسرد الحقائق، ويوضحها وهي أن الله سبحانه ما جعل سواد الزنج عقاباً لهم، ونقول ربما كتب أبو عثمان رسالته تلك اعتذاراً منه لما كان قد أثقل به عليهم في كتابه الحيوان، وذلك بأن جعلهم مثلاً للكثير من الحيوانات ،وليس الهدف منها كما ذهب بعضهم إلى أن أصل الجاحظ زنجي وأراد أن يمتدح عرقه وأصله الذي انحدر منه،ولعل هذا كان جد بعيد، إنما أبو عثمان كان دائم الدعوة إلى المساواة لا لأن أصله زنجي؛ فرسالته كانت تأكيداً لهذه الدعوة التي نادى بها القرآن الكريم، ولطالما بثها الفاتحون المسلمون من خلال نشرهم الإسلام العظيم،وإن كان أبو عثمان أكثرهم إلحاحاً على هذه السمة، فكان يأمل ويرغب في أن تكون إحدى الركائز الهامة لمجتمعه، وربما كانت ردة فعل عنيفة لما أشاعه الشعوبيون أعداء العرب والمسلمين عن أصلهم الفارسي، وهو الذي يرجعونه بزعمهم إلى النار بينما العرب مخلوقون من الطين، فهم يرون أن النار ومن خُلق منها أكثر شرفاً ومكانةً ممن خُلق من طين-على حد تعبيرهم- فما دعوة أبي عثمان تلك إلا لإرساء القواعد التي نادى بها الإسلام، فأرادها لتكون دحضاً لأراء الخصوم، ولما وجده من تمييز في مجتمعه العباسي، وما يُمارس من تسلطٍ وتفرقةٍ وطبقيةٍ عنيفةٍ سادت المجتمع.

ويكره الجاحظ التفرقة بين البشر؛ بسبب لون بشرتهم متأثراً بتلك بالفكرة الإسلامية ذاتها، لذلك فهو يرى أن الناس جميعا إخوةٌ، ويرد على خصوم السودان بقوله إن الله لم يخلقهم سوداً لتحقيرهم، فما لونهم إلا نتيجةً حتميةً لمناخ بلادهم الحار، فأي عيب في ذلك؛ ليثبت فكرته يدلل بأن حدقة الإنسان هي أعز ما لديه وهي سوداء، وهنا يعرض الجاحظ الفكرة بطريقة مباشرة ويبدو أن الموضوع كان يستلزم ذلك التصريح.

لقد أوضح الجاحظ كيف أن البيئة بظروفها المناخية تُخضع الفرد لها، فتصنع مزاجه وطبعه، قاصداً بذلك التأثير السلبي للبيئة، ويتضح ذلك من خلال قوله: يفسد هواؤهم وماؤهم؛ فتفسد لذلك طباعهم؛ فيلاحظ أن تلك التغيرات البيئية لا

تكون أبداً بنت ساعتها، بل إن آثارها كما هي بعيدة الغور في المجتمع ،فإنها كذلك تحتاج إلى فترات زمنية طويلة؛ لتعمل عملها وتصبغ سماتها، فلا يظهر ذلك الأثر للبيئة بمرور سنة أو سنتين، وربما أن ذلك الأثر يظهر عبر الأجيال المتعاقبة (وهذه الالتفاتة جديرة بالاهتمام في عملية التنشئة والتطبيع)[1].

ثم يمضي أبو عثمان إلى الحديث عن أثر البيئة الجغرافي على لون البشرة، فيضرب مثلا لاعتدال البشرة بسمرة أهل بابل، حيث أن ألوان بشرتهم أعدل لون؛ ذلك مرجعه لاعتدال المناطق التي يقطنونها ووسطيتها، فهم لم يولدوا في أعالي الجبال، ولا على سواحل البحار، ويقول في ذلك:(وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول ،وجمالهم فوق الجمال لعلّة الاعتدال)[2].

ويؤكد الجاحظ أثر الشمس في صحة الإنسان، فيرى أنهُ كلما كانت البيئة صحية، وكانت الشمس ساطعة أثر ذلك في صحة الأجسام، وذلك بأن يورث الأجسام صحةً وبهاء ونضارةً وحسن استقامة وخلواً من الأمراض، وأن الحرارة إنما (ينبغي أن تورث السخونة، وتولّد ما يشاكلها. ولا تولّد ضرباً آخر مما ليس منها في شيء)[3]، معززاً كلامه بأقوال العرب أصحاب التجربة والخبرة كقوله (إياس بن معاوية {صحة الأبدان مع الشمس}. ذهب إلى أهل العمد والوبر وقال مثنى بن بشير: {الحركة خير من الظل والسكون})[4].

والجاحظ ما كان بإمكانه ولم يسعفه في ذلك الحين السير الزمني للعلم ولا التحليلات المخبرية، بأن يقول الشمس تمد الجسم بالفيتامينات النافعة له، والتناول الأمثل والمباشر لها، بأن يتلقاها المرء عن طريق تعرضه لأشعة الشمس المباشرة مدةً معينة من الزمن، مثل (فيتامين د) فأفضل مصدر له هي أشعة الشمس، هذا فضلاً عن أهمية تلك الأشعة المقبولة في معالجة بعض الأمراض،كتخفيف نسبة

---

(1) (معن خليل عمر، **أصالة وعمق التحليل الاجتماعي**، المورد، المجلد 9، عدد3، 1980 ص24).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**، ج2 ،ص314).

(3) (الجاحظ، **الحيوان**، ج5 ،ص36).

(4) (الجاحظ، **الحيوان**، ج 5 ،ص105).

الصغار لدى حديثي الولادة، ولا تنسى النصائح الطبية بضرورة التعرض لأشعة الشمس؛ لمنع تساقط الشعر، وذلك بتهويته وتعريضه لأشعة الشمس، فقد تنبه أبو عثمان إلى أهمية ذلك كله بما أُتيح له من علم ومعرفة وتحري.

وربما نلحظ من خلال حديث الجاحظ عن أثر البيئة أنه ربما يشير إلى ذلك الأثر في معتقد المرء وإيمانه، وهنا لابد أنه قصد البيئة البشرية المحيطة بالفرد من أسرة،ومن سكان حي وأقارب، حيث يقول(فداء المنشأ والتقليد، داءٌ لا يحسن علاجه جالينوس {ولا غيره من الأطباء})[1]، الجاحظ هنا لابد أنه يقصد ويشير إلى دور الأسرة في تنشئة الطفل، فالمولود يولد على الفطرة فأبواه اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فالطفل يكون صفحةً بيضاء، فالأب والأم هما أول من يخط على تلك الصفحة سير حياة طفلهما وربما فكره ونمط عيشه، وأهم سلوكاته الاجتماعية، فكما نعلم أن علماء النفس قد أشاروا إلى خطورة وأثر السنوات الستة الأولى من حياة الطفل، ففيها يتعلم معظم ما سيبقى معه ومعظم المؤثرات التي ستبنى وفقا لها شخصيته فيما سيأتي من العمر. فهذه المرحلة العمرية جد خطيرة؛ لأنها تشكل المرحلة القبلية أي قبل دخول الطفل العالم الفسيح بما فيه من مدارس وأصحاب، حيث أثر هؤلاء لا يخفى في كلا الناحيتين سلباً أم إيجاباً، وربما كان أبو عثمان محقاً في ما مضى إليه؛ فالنشأة الأولى هي التي يعول عليها فيما بعد، من تحديد سلوكات وتصرفات الأفراد، ثم تحديد فكرهم ومسارهم أو قل وضع الخطوط الرئيسة لذلك الفكر وتلك السلوكات، فإن كان الأساس غاية في الصلاح والاستقامة، فإن لهذا أهمية كبرى على حياة الفرد؛ فهو بمثابة جرعة مدعمة تمد المرء بالمناعة ضد الكثير من الأمراض الاجتماعية، التي ربما يلتقيها بعد أن يتعامل مضطراً مع العالم، ويصبح فرداً في المجتمع الأكبر، فهو عندها وإن التقى تيارات من السوء وأصحاب الفساد، وربما تنتقل له بعض العدوات ويناله الاعوجاج، فلا بد له من عودة سليمة صحيحة إلى الأصل الذي نشأ عليه، وبالطبع فهذا ما قصده من وراء ذلك وهو أن يجتهد المرء؛ ليحيي الفكر الذي يعيشه ويحمله وهو الفكر الإسلامي.

---

(1) (الجاحظ، الحيوان،ج5 ،ص327-328).

ولا عجب في تلك الدعوى من الجاحظ في زمنه فقد كانت الزندقة والشعوبية والدهرية، وما إلى ذلك من أفكار ونحل وفرق كان يعج بها المجتمع الإسلامي في عصر الجاحظ،لذا يوصي أهل مجتمعه أن يربوا أبناءهم على تعاليم الإسلام الحنيف، حتى إذا ما كبر وخرج إلى المجتمع الأوسع كان لديه ذخيرة فكرية وأخلاقية كفيلةً بأن تأخذ بيده لإيصاله بر الأمان، فتمنعه من الانحراف عن جادة السبيل إلى حد ما.

والجاحظ يميز بين أخلاق وعوائد وسمات أهل المدينة وأهل القرية، وقد لاحظ ذلك من خلال مشاهداته وتنقله، فابن القرية مثلا ربما إذا انتقل إلى المدينة فوجد بها أموراً لم يعهدها ولم يألفها والعكس في ذلك صحيح.

ويتحدث أبو عثمان نقلاً عن رفيق فكره وأستاذه (النظام) عن دور البيئة وأثرها، وعن أثر الجنس في الذكاء (أن الأمة التي لم تنضجها الأرحام ويخالفون في ألوان أبدانهم، وأحداق عيونهم، وألوان شعورهم، سبيل الاعتدال- لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك. وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم، وشمائلهم، وتصرف هممهم في لؤمهم وكرمهم، لاختلاف السبك وطبقات الطبخ. وتفاوت ما بين الفطير والخمير)[1].

ثم يلتفت أبو عثمان إلى أمر وشأن أهل منطقة آسيا، كيف أنهم يستطيعون أن يقوموا بالصناعات الدقيقة،التي تميزوا بها عن غيرهم وكما نعرف الآن تميز أهل الصين واليابان وهذه المناطق بالصناعات الدقيقة ،التي تعتمد على قوة البصر، وشدة الملاحظة،والدقة في الصنع(ألا ترى أن أهل الصين والتبت، حذاق الصناعات، لهم فيها الرفق الحذق، ولطف المداخل، والاتساع في ذلك، والغوص على غامضة وبعيده، وليس عندهم إلا ذلك؛ فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك)[2]، وقد برع أهل الصين وأهل هذه المناطق التي عبر عنهم أبو عثمان منذ زمن في هذه الصناعات، التي عرفوها بإتقان تام كصناعة الساعات وغيرها من الصناعات، التي كما يقول الجاحظ جعلت تميزهم عن غيرهم.

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج5، ص35-36).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**، ج5 ،ص36).

وبناءً على التمايز في الأقاليم والمناطق الجغرافية، فإن الجاحظ يرى أن الأعرابي شر من الحضري؛ فيذكر صفات تميز الحضري على الأعرابي، ولا يحبها إلا أهل منطقته فيرى ذلك؛ لأنهم يحملون الصفات ذاتها التي يحملها، بينما تلك الصفة لا تروق لابن الحضر ولا لأهله، بل قد يجدون فيها الغرابة عما تعودوا وألفوا، وربما امتاز ابن القرية أو تعود بعض الأمور التي تُنفّر أهل المدينة، أو أن أهل المدينة قد تهاوت لديهم أكثر القيم التي ما زال أهل القرية يعتزون بها، ويسارعون لمزاولتها والمحافظة عليها، وتجدهم يهزؤون بالكثير من الممارسات التي يقوم بها أهل المدينة. وهكذا يظهر التفاوت بين بني البشر، إذ أنهم ليسوا سواء في علاقاتهم ونظرتهم للحياة، فهم متفاوتون في أهوائهم وفي طباعهم، وفي أذواقهم تفاوتَ تلك البيئات المحيطة بهم. والجاحظ يؤكد ذلك ويرى أن الأعرابي شر من الحضري؛ فالأعرابي كما يقول: إن مدح كذب، وإن هجا كذب وإن أيسَ كذب وإن طمع كذب، ولا يحبه إلا من هو في طباعه.

وربما أثّرت تضاريس المنطقة في طباع أهلها، بل وانعكست عليهم سهولةً وصعوبةً، رقةً وغلاظةً، أريحيةً في التعامل أو تعقيداً. وربما تعدَ أثر البيئة من التأثير في لون البشرة إلى تلوين الطباع أيضا بلون البيئة الذي تفرضه، فابن الصحراء مطبوع على الصبر وتحمل الصعاب والمشاق ومجابهة العطش وربما الجوع، ذلك أنه في الكثير من الأحيان ربما لا يتوفر للإنسان فيها قوت يومه، فتحمل إنسان الصحراء ضنكها وقسوة عيشها، مما رأى فيها من حيوانات ونباتات، فالجمل مثلا وهو المسمى بسفينة الصحراء يتحمل العطش أسابيع طوالاً، فالله سبحانه كان قد هيأه لذلك؛ فأوجد له ما يخزن به الماء والدهون؛ لأنه ربما جلس طويلاً دون أن يحظى بمصدر ماء، وهكذا البدوي فإنه ربما عانى من الجوع؛ وذلك لبعد الصحراء عن مناطق بيع المواد الغذائية فيلجأ لفرط ما يشعر به من الجوع إلى بعض الحيل ليواري بها جوعه، متحملا ضنك العيش مطبوعا على تحمل المشاق، وما ذلك إلا لما عودته به بيئته الصحراوية الجافة، فقد يجهد ويكد في مجابهة تلك

الظروف القاسية من العيش (والناس إذا جاعوا واشتد جوعهم شدوا على بطونهم العمائم. فإن استقلوا، وإلا شدوا الحجر)[1].

وكذلك فإن البيئة كما تمد سكانها بالبشرة التي تكسوهم بها حسب حرارة، أو برودة أو اعتدال الإقليم الذي يقطنونه ،فكذلك فإنها تكسبهم من رقتها أو غلظها أو سهولتها ما استطاعت، فهي إضافةً إلى ذلك كله تمدهم بمعجمها الخاص ومفرداتها التي تميز أهل كل مكان عن غيره، كما أنها تجعلهم مختلفين في نظرتهم إلى مباهج الدنيا ومواطن افتخارهم بها، لذا عبّر أبو عثمان عن شديد إعجابه بأعرابي على أنه كان يستخدم معجم بيئته، ووصف حبه الشديد وهيامه بالإبل وتغزله بها، فقد مازحه الجاحظ محاوراً إياه، وكأنه أراد ومن خلال تلك المحاورة، أن يبين لقارئه أولاً، أثر البيئة في معجم الإنسان الخاص، ثم كيف أن الجاحظ يفضل التزام هذا الأعرابي بالصدق مع نفسه أولاً ثم مع الآخرين ؛ذلك بأنه تحدث لغة قومه ولهجة بيئته، ثم افتخر واعتز بموجودات، هذه البيئة فلم يدّعِ ما ليس له وفيه، ولم يتصنع ويتكلف فيدعي زيف الكلام وتزويق الألفاظ، (قال: وقلت مرةً لعبيد الكلابيّ–وأظهر من حبٍّ الإبل والشغف بها ما دعاني إلى أن قلت له: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خُؤولة. إني واللهِ ما أعني البَخاتيَّ، ولكني أعني العِراب، التي هي أعْرَبُ! قلتُ لهُ: مَسَخَكَ اللهُ تعالى بعيراً! قال: الله لا يمسخُ الإنسانَ على صورةِ كريمٍ، وإنّما يَمْسخهُ على صورةِ لئيمٍ مثل الخنزير ثم القرد. فهذا قولُ أعرابيٍّ جِلْفٍ تكلّم على فِطرتهِ)[2].

ويلتفت الجاحظ أيضاً إلى مدى تكيّف الإنسان مع ما في البيئة التي يعيشها من مخاطر وصعوبات، قد تبدو لغيره أموراً خطيرةً ليس من السهل تخطيها، إلا أن ابن البيئة الذي تعودها، لا يجد مجازفة في اقتحامها وعبورها، لذلك نجد أبناء البادية يتميزون بصفة الشجاعة وقوة القلب، خلاف ما عند أبناء المدن من الرقة، التي ربما تبعث الخوف في نفوسهم وتقتل فيهم حب التجريب والمغامرة، أضف إلى ذلك الفارق الزمني في البيئة التضاريسية–إن جاز التعبير– والبيئة البشرية المحيطة بالإنسان، لذا حرص العرب على ذهاب أبناؤهم إلى البادية؛ ليشتد عودهم فيرضعوا

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج 4 ،ص132).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج 4 ،ص100).

الشجاعة مع حليب المرضعات حيث البادية بفضائها الفسيح، وهوائها النقي؛ تفتح آفاقاً رحيبةً أمام الأبناء، ذلك أن العرب كانوا يعتمدون على هذه الأجيال في رد الغزو وفي حروبهم الطاحنة فقد أرادوا أن تؤثر البيئة بهم؛ لينشأ جيل ليوم الشدائد، وقلنا أننا لا ننسى أثر الزمان في الأفراد مع ثبات البيئات ولا ننسى أن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما -كان قد قاد جيوش الفتح لبلاد الشام، وأمره على ذلك رسول الله-عليه الصلاة والسلام- بينما هو في مرضه الأخير الذي كان فيه ارتحاله إلى الرفيق الأعلى، وقاد أسامة الجيوش وكان عمره ستة عشر عاماً، وعندما توفي - صلى الله عليه وسلم- أشار المسلمون على أبي بكر بتغيير القائد إلا أنه ما كان له أن يغير أمراً قد جزم القول فيه الصادق المصدوق، وهو الذي ما ينطق عن الهوى وإنما هو وحي يوحى، وهكذا حقق القائد الشاب أسامة بن زيد ابن البيئة الإسلامية الصالحة انتصاراً مؤزراً وفتحاً مبيناً، فكان صناعة الرجال ليوم اللقا والزحف.

والبيئة القوية الصالحة تمد أبناءها بقوتها، وشجاعتها وصلاحها، والبيئة الهشة والضعيفة لا تورث أبناءها إلا الضعف والخمول والهزال وعدم القدرة على التصرف في حل مشكلاتهم ومواجهة الحياة، والبيئة تعوّد أبناءها،كما لاحظ أبو عثمان عادات يألفونها لطول عهدهم بها، فهو يعقد مقارنةً -وهذا أحد أساليبه- إن يذكر للشيء ونقيضه فتزيد قناعة القارىء بما يبثه من أفكار فهو يرى أن (أولاد الملاحين الذين وُلدوا في السفن الكبار، والمنشآت العظام لا يخاف الإباء والأمهات عليهم إذا درجوا ومشوا أن يقعوا في الماء. ولو أن أولاد سكان القصور والدور صاروا مكان أولاد أرباب السفن لتهافتوا)[1].

ويرى الجاحظ أن تأثيرَ البيئة فيما تحتويه من مخلوقات، قانونٌ عامٌ يسري على الإنسان والحيوان والنبات وكذلك الجماد، فهو يقف كثيراً عند هذه المسألة ويؤكدها مرارا (وهو بذلك يكون قد سبق ابن خلدون ولامرك وداروين بعدة قرون)[2].

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج7 ، ص25).

(2) (علي بو ملحم، **المناحي الفلسفية** ،ص93).

ويؤكد أبو عثمان مدى أثر البيئة على لون البشرة سواء أكان ذلك الذي يقع تحت تأثيرها إنساناً أو حيواناً، فيضرب مثلا بذلك بأحقر الأشياء وأصغرها، كيف أن البيئة تصبغها بلونها، فيضرب مثلا بالقملة، كيف تكون في وسط شعر الإنسان حيث تتلون بلون شعر الرأس، فالشعر هنا يشكل البيئة الأولية بالنسبة للقملة، وسائر الحيوان من إبل ودواب وجراد وجميع المواشي من سباع وبهائم، كيف تخضع لتأثير البيئة (وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة على طبائعهم. وترى جراد البقول والرياحين وديدانهم خضر، وتراها في غير الخضرة على ذلك. وترى القملة في رأس الشاب الأسود سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون الجمل الأورق. وإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء، فإن نصل خضابه صار فيها شكله من بين بيض وحمر. وقد نرى حرة بني سليم، وما اشتملت عليه من إنسان وسبع، وبهيمة وطائر، وحشرة وتراها كلها سود)[1].

ثم يرى أبو عثمان أن تأثيرات البيئة لا تقتصر على التغير في اللون فقط، بل أنها ربما أدت إلى التغيير في شكل الإنسان، أو الحيوان وتركت آثاراً جانبيةً غايةً في السلبية، فتصل إلى حد المسخ، وقد تحدث الجاحظ طويلاً في قضية المسخ وناقش فيها رأي الفرق والنحل، وعزا التغيير في الشكل إلى أنه ربما كان أحد نواتج البيئة، وراح يضرب أمثلةً من خلال ما جابه من بلدان، أو ما خبّر به عبر الرواة والجغرافيين، وأنت تسمع لأبي عثمان حديثه المطول في البيئة وأثرها وكأنك تدرس لعالم كان همه وتخصصه الأول الحديث عن البيئة وآثارها، فهو يناقش الموضوع من كافة زواياه، ويعالجه من جميع أطرافه كعادته وديدنه في كل موضوع تصدى للبحث فيه، فيبين أثر البيئة على الإنسان، على طبعه، وخلقه ومزاجه ولون بشرته ثم شكله. ويتحدث عن أثر البيئة على الحيوان والنبات وما يوجد فيها من جمادات؛ ليُخرج القارئ وقد أشبعه عمق البحث، وكفاه همّ المسألة.

---

(1) (الجاحظ،الحيوان،ج4 ،ص71).

ونحن في بعض فقرات هذا البحث نضطر لأن نسلك مسلك أبي عثمان، فنتحدث عن أثر البيئة على الشكل مثلاً، ثم نعود لما كان قد ركز عليه من فساد الطبع وتغير لون البشرة، وما إلى ذلك من كم هائل وزخم معلومات يعز على الباحث التفريط بها، أو إهمالها ويقول الجاحظ في ذلك (وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا عن جميع تلك المعاني)[1]، والعرب لابد أنهم مكثوا حيناً طويلاً في أرض خراسان حتى أفقدتهم بيئتها ما كان لديهم من خصائص عربية، سواء الخصائص الجسمية أو النفسية وحتى الروحية، إضافةً إلى المظهر الخارجي من تغير في الأحجام ولون البشرة.

ويمضي الجاحظ ليتحدث عن طبيعة البلدان في التأثير على بني البشر، ويذهب إلى أن كثيراً من البلدان تعطي سكانها وقاطنيها أو حتى من يمر بها خصائص نفسيةً معينةً، فربما مروا بأرض منحتهم السرور، وطيب الخاطر والمرح وراحة نفسية لا يُعرف لها مصدر سوى وجودهم في هذه المنطقة الجغرافية، فيرى أن لبعض البلدان بركةً في الزاد،وفي الوقت كما أن بعضها الآخر يعود على من يقطنه، أو يمر به بآثار سلبية على عقله وطعامه وسائر صفاته وخصائصه، وربما عزا الجاحظ ذلك إلى أن بعض المناطق كان قد انتشر فيها من الأمراض والأوبئة ما لا يحمد عقباه، وربما أقام فيها ذلك الداء وقتاً طويلاً، ولعله تحدث عن بعض هذه الأوطان وهذه المناطق في فترات زمنية معينة، كان ينتشر فيها ويتخللها من الوباء ما لا يحسن بالمرء معه أن يعرّض نفسه إلى مجالسة سكانها أو حتى عبورها، ولا ننسى ما جاء في الأثر والسيرة عن طاعون عمواس الذي قضى فيه الكثير من المسلمين خلال انتشاره، وذلك في خلافة الفاروق-رضي الله عنه- وقد كان التحذير بأنه إذا سمعتم بأرض انتشر فيها الطاعون لا تدخلوها،وإذا دخلتموها لا تخرجوا منها تحسباً من انتشار ذلك الوباء بين عدد كبير من الناس، ومن أشهر ضحايا ذلك الطاعون كما نعلم، كان أمين الأمة (أبو عبيدة عامر بن الجراح)، لذا حذر أبو عثمان من فساد البيئة وتلوث الهواء والأجواء بالجراثيم الناقلة للأمراض حفاظاً على

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان،ج4 ،ص71).

بيئة سليمة تنتج أفراداً أصحاء لإقامة مجتمع سليم آمن ويبين ذلك بقوله (ألا ترى أنهم يزعمون أن من دخل أرض تُبَّت*لم يزل ضاحكاً مسروراً، من غير عَجَبٍ حتى يخرج منها، ومن أقام بالموصل حولاً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلا، ومن أقام بالأهواز حولا فتفقد عقله ذو فراسة وجد النقصان فيه بيّناً كما يقال في حمى خيبر وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة وجرب الزنج*)[1].

ولم يقتصر حديث الجاحظ على التلوث البيئي بالأوبئة وغيرها من أضرار بيئية، بل إنه تعدى ذلك ليتحدث عن الضوضاء، وهذا أحد مظاهر الإزعاج والقلق البيئي، فقد أشار أيضاً إلى ضرر الأصوات العالية، وإزعاجها كما أنه-وهو العالم النفسي- قد أشار إلى دور الأصوات الناعمة اللطيفة وما تتركه من ارتياح عام في النفس الإنسانية وأهمية اللحن بالنسبة للإنسان، فوصف ما يبعثه صوت قراءة القرآن الكريم في النفوس من ارتياح وسرور، حتى لو لم يكن هؤلاء السامعون مسلمين فاهمين لمعنى ما يتلى على مسامعهم! كما تنبه لما لهذه الألحان العذبة ولاسيما أناشيد الآباء والأجداد من بهجة في نفوس الصبيان أو الأطفال الصغار- في مقام حديثه عما يريح الأطفال- مما يساعد في تربيتهم ومداعبتهم وقت النوم، وكيف أن اللحن مادة مهدئة لأعصاب الطفل بدلاً من صوت الضجيج الذي يفزعه، ويسبب له مشكلات نفسية وعقداً ربما لأزمنة طيلة حياته. (وقد نجد الإنسان يغتم بتنقض الفتيلة وصوتها عند قرب انطفاء النار، ولبعض البلل يكون قد خالط الفتيلة، ولا يكون الصوت بالشديد، ولكن الاغتمام به، والتكره له، يكون في مقدار ما يعتريه من أشد الأصوات. ومن ذلك المكروه الذي يدخل على الإنسان من غطيط النائم، وليست تلك الكراهة لعلة الشدة والصلابة، ولكن من قبل الصورة والمقدار، وإن لم يكن من قبل

- تُـبَّتَ: إقليم في الصين (يقول ياقوت الحموي في نعت أهلها: والتبسُّمُ فيهم عام حتى إنّه ليظهر في وجوه بهائمهم .
- حمّـى خيبـر: خيبـر كانـت مشهورة بمرض الحمّى، طحال البحرين: قالوا من سكن البحرين عظُم طحاله.
- دماميل الجزيرة : الجزيرة الأرض الواقعة بين دجلة والفرات.

(1) (الجاحظ، الحيوان، ج4 ،ص135).

الجنس. وكذلك صوت احتكاك الآجر الجديد بعضه ببعض، وكذلك شجر الآجام على الأجراف؛ فإن النفس تكرهه كما تكره صوت الصاعقة. ولو كان على ثقة من السلامة من الاحتراق، لما احتفل بالصاعقة ذلك الاحتفال. ولعل ذلك الصوت وحده لا يقتله. فأما الذي نشاهد الأمر عليه، فإنه متى قرب منه قتله. ولعل ذلك إنما هو لأن الشيء إذا اشتد صدمه فسخ القوة أو لعل الهواء الذي فيه الإنسان والمحيط به أن يحمى ويستحيل ناراً؛ للذي قد شارك ذلك الصوت من النار. وهم لم يجدوا الصوت شديدا جدا إلا ما خالط منه النار)[1].

هذا وقد تنبه الجاحظ إلى أمرٍ بحثه المختصون من بعده وهو أثر الموسيقى، حيث استخدمها علماء النفس في علاج بعض الأمراض النفسية؛ ذلك أنهم ربما وجدوا لها جدوى، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك مبيناً الأثر الإيجابي لا على الإنسان فحسب، بل تجاوزه إلى عالم الحيوان (وأمر الصوت عجيب، وتصرفه في الوجوه عجب، فمن ذلك أن منه ما يقتل، كصوت الصاعقة. ومنها ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور، فتقلق حتى ترقص ،وحتى ربما رمى الرجل بنفسه من حالق. وذلك مثل هذه الأغاني المطربة. ومن ذلك ما يكمد. ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، كنحو هذه الأصوات الشجية، والقراءات الملحنة. وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني؛ لأنه في الكثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم. وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ، وقيل: كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به؟ قال: إنما أبكاني الشجي وبالأصوات ينيمون الصبيان والأطفال)[2].

وقد تنبه أبو عثمان وهو القائل الأول بعلم النفس الحيواني إلى أثر الأصوات في الحيوان أيضا، وميّز أثر تلك الأصوات سواء ما كان منها مثيراً للضوضاء وما كان له أثره العجيب المريح في تلك المخلوقات، هذا وقد استعانوا بالأصوات، أو بمجموعة منها على تدريب الحيوان وتنظيم حركته، فلكل حيوان نوع من النداء والصوت الخاص به، ولكل نشاط من نشاطات الحيوان صوت ونداء خاص على أثره يتلقى الحيوان الأوامر فيفهم المطلوب منه، وقد راقب الجاحظ ذلك

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج3 ،ص335-336).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**، ج4 ،ص191-192).

في مجتمع الحيوان، وسجل ملاحظاته القيمة على ذلك مستشهداً بما لاحظه (أرسطو) في ذلك من أثر الأصوات العالية المرتفعة على بعض الحيوانات، مما يؤدي إلى إخافتها ثم إلى حالة الإجهاض عند الحوامل منها،فقد أفزع صوت الرعد الأسماك، وربما جعلها تسقط بيضها قبل حينه، أو أن موعد إتمام البيض المكتمل النمو يتأخر؛ بسبب سماعها ما يخيفها من تلك الأصوات.(والدواب تصر آذانها إذا غنى المكاري. والإبل تصر آذانها إذا حدا في آثارها الحادى، وتزداد نشاطا، وتزيد في مشيها. وتجمع بها الصيادون السمك في حضائرهم التي يتخذونها له. وذلك أنهم يضربون بعصى معهم، ويعطعطون، فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار مصغية إلى تلك الأصوات، حتى تدخل في الحضيرة. ويضرب بالطساس للطير، وتصاد بها. ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت، فتروعها تلك الأصوات. وقال صاحب المنطق: الأيائل تصاد بالصفير والغناء. ولا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت. فيشغلونها بذلك ويأتون من خلفها فإن رأوها مسترخية الآذان وثبوا عليها، وإن كانت قائمة الأذنين فليس إليها سبيل. والصفير تسقى به الدواب الماء، وتنفر به الطير عن البذور. وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد إذا وافق سباحة السمك في أعلى الماء رمت ببيضها قبل انتهاء الأجل. وربما تم الأجل فتسمع الرعد الشديد، فيتعضل عليها أيام بعد الوقت)[1].

وهنا نرى أبا عثمان يشبّه كثيراً سلوك الحيوان بسلوك الإنسان، بل وقد اعتبره أحد عناصر المجتمع الهامة، التي لا يمكن أن يقوم المجتمع السوي القائم بجميع خدماته وحوائجه دون اعتماده شبه الكامل على الحيوان؛ لذا نجده يعطي للحيوان في الكثير من المواقف وعياً كوعي الإنسان وإدراكاً كإدراكه، لا بل ونجده يفسر ما يقوم به الحيوان بأنه تصرفٌ لازم في ذلك الموقف فكأنه أراد من عالم الإنسان التأسي بما لدى الحيوان المسيّر في جميع شؤونه، فقد ربط تحركات هذا الحيوان بأهداف معينة جادة خاصة به،ونجده في الكثير من الأحيان يفسر سلوك بعض الحيوانات على أنه ناتج عن تأثير البيئة وأهل تلك البيئة، أي أن الحيوان تُنقل

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج4،ص193-194).

له بالعدوى صفات وخصائص من يختلط بهم ويعاشرهم من عالم البشر، وربما لم يكن هذا الأمر على سبيل الحقيقة ،وربما كان إمعاناً وإصراراً من الجاحظ في إثبات بخل الأعاجم وبخل الفرس، يصف سلوك الديكة ويمتدحها بأنها تُلقي الحب أمام الدجاج إطعاماً لها لكنها كما يقول، وربما كان ذلك–على سبيل التندر– أن ديكة مرو هي الوحيدة من بين الديكة التي تسلب الدجاج ما في مناقيرها؛ فقد أراد أن يثبت أن بخلهم كان أمراً قد ألزمتهم به بيئتهم، فالبخل أمر عام عندهم في حيوانهم، وإنسانهم وأرضهم وهوائهم ،رداً منه على من يعيب طيب الخصال عند العرب يقول:(وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس رحمه الله تعالى: أن ديكة مرو تطرد الدجاج عن الحب، وتنزع الحب من أفواه الدجاج)[1].

وليؤكد الجاحظ الشبه الكبير بين الحيوان والإنسان، يقول غن الغراب (وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزنج فإنهم شرار الناس، وأردى الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام،أو سخنت فأحرقته الأرحام، وإنما صارت عقول أهل بابل وإقليمها فوق العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال. والغراب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفة ولا جمال، وإما أن يكون أبقع فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبقع ألأم من السود وأضعف) [2].

وما زال أبو عثمان يعاود القول ويؤكده في أثر البيئة على الشكل الخارجي للإنسان، حتى أن فسادها ربما أعطى الإنسان شكلاً أخرجه عن تلك الهيئة والصورة المقبولة المألوفة للإنسان الطبيعي، وقد عزا ذلك أبو عثمان إلى فساد في التربة والماء والهواء (قد خبرنا ما لا يحسن الناس أنهم قد أدركوا رجالا من نبط بيسان، ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل وإلا كأذناب السلاحف والجرذان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجغرافيات على وجه شبه القرد. وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج2 ،ص 149).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج2 ،ص314–315).

المسخ، إلا القليل. وقد يجوز أن نصادف الهواء الفاسد، والماء الخبيث، والتربة الرديئة، ناساً في صفات هؤلاء المغربيين والأنباط)[1].

ويمضي أبو عثمان في القول واصفاً موجودات البيئة من حيوان ونبات وإنسان التي ربما زاحم بعضها بعضاً إبقاءً على الحياة، وقد تحدث مليا عن أثر البيئة على النبات كمشارك الإنسان والحيوان على وجه هذه البسيطة، وأبو عثمان كعالم بيئي يبحث في أسرار هذه الطبيعة ولا يكفيه ملاحظاته الشخصية، بل إنه يتجول في مختلف ما تيسر له من بلدان زارها والتقى أهلها مستفسراً عن كل ما تستهويه معرفته أو عن كل ما يراه غريباً مثيراً للتساؤل؛ لينقل للقارىء معلومةً قد سلك ما توفر له من مسالك لتصفيتها وتنقيحها وإظهارها بشكلها العلمي الخالص، وهو يتحدث عن فساد التربة وصلاحها؛ لعيش الكائنات من خلال تحرياته وتساؤلاته أن الأرض والتربة التي يكثر فيها النمل، وربما بكميات ملفتة وكثيفة لا يمكن أن تنتج فيه الأعناب، فهو لما رأى أرض (كسكر) بيئةً صحيةً للحيوان من جداء ودجاج ثم من النباتات الشعير والأرز، لفت انتباهه عدم وجود الأعناب فيها، فلم يهمل تلك الملاحظة (ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شعيركم عجب، وأرزكم عجب، وسمككم عجب، وجداؤكم عجب، وبطكم عجب، ودجاجكم عجب، فلو كانت لكم أعناب! فقال: كل أرض كثيرة النمل لا تصلح فيها الأعناب)[2].

لقد ناقش الجاحظ مناخ البلدان وتحدث في حيوانه عن أثر الريح في كمية المطر وفي اتجاهه وبين دور اتجاه الريح في نفع المطر أو ضرره، وقد كان القوم يتفاءلون بالريح الآتية من الشمال، وذلك لأنهم جربوا نفعها بعكس ريح الجنوب التي ثبت لديهم ضررها أكثر من نفعها، فهي تفسد الحرث والنسل (وأكثر ما يكون فساد البيض في الجنائب لذلك كان ابن الجهم لا يطلب من نسائه الولد إلا والريح شمال وهذا عندي تعرض للبلاء، وتحكك، بالشر، واستدعاء للعقوبة)[3]، وكأن أبا عثمان بتعليقه السابق يعترض على ما كان من أمر القوم، واعتبر ذلك خروجاً وتجاوزاً

---

(1) (الجاحظ، **الحيوان**، ج4، ص72).

(2) (الجاحظ، **الحيوان**، ج4، ص15).

(3) (الجاحظ، **الحيوان**، ج3، ص 173).

وعبثاً، وكأني به ينتقد العارفين بعلم الجينات لا سيما العابثين منهم. ومن يحاول تحديد نوع الجنين ذكر أم أنثى فقد اعتبره الجاحظ استدعاء للشر وجلبا للعقوبة والبلاء.

ولم يقتصر حديث أبي عثمان عن أثر البيئة على الكائنات الحية الموجودة ضمنها، بل أثبت أن للبيئة أثراً كبيراً على سائر الموجودات من أحياء وجمادات، فثمة بلدان تتلاشى فيها روائح العطور الطيبة ويصدأ فيها السلاح وتتغير فيها الجمادات، فتفقدها بعض خصائصها الأصلية،ويصفها أبو عثمان بأنها بلاد رديئة (ورُبت بلدةٍ يستحيل فيها العطر وتذهب رائحته، كقصبة الأهواز. وقد كان الرشيد همّ بالإقامة بأنطاكية، وكره أهلها ذلك، فقال شيخ منهم، وصدقه: أمير المؤمنين، ليست من بلادك، ولا بلاد مثلك، لأن الطيب الفاخر يتغير فيها حتى لا ينتفع منها بكثير شيء، والسلاح يصدأ فيها ولو كان من قلعة الهند، ومن طبع اليمن، ومطرها ربما أقام شهرين، ليس فيه سكون. فلم يقم بها. ثم ذكر المدينة فقال: وإن الجويرية السوداء، لتجعل في رأسها شيئاً من بلح، وشيئاً من نضوح، مما لا قيمه له؛ لهوانها على أهله، فتجد لذلك خمر طيبة وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوي الأقدار. حتى أن النوى المنقطع، الذي يكون عند أهل العراق في غاية النتن، إذا طال انقطاعه يكون عندهم في غاية الطيب، والله سبحانه وتعالى أعلم)[1].

ولم يتحدث أبو عثمان عن أثر البيئة على الإنسان بشكل عام، بل إننا نجده يتعمق إلى أكثر من ذلك التعميم، فيوضح أثر البيئة على الأديب، حيث كان حريصاً على صفوة الأمة في مجتمعه من علماء وأدباء وكتّاب، ظناً منه إن كان بإمكانه أن يصلح هذه الفئة ضمن صلاح المجتمع، إذ أن الأديب كما رآه أبو عثمان لسان أمته الناطق وقلبها النابض، وهو الذي يعرب عن هموم مجتمعه؛ لذا نجده يؤكد على أهمية البيئة العلمية والأدبية للمتأدبين، وقد كان يخشى على متأدبي عصره من مرض العدوى، فكان همّه ألا تفسدهم البيئة فيفسد أدبهم. وكان يخشى أن ينتقل إليهم اهتمام غيرهم ممن لا يعرفون الأدب من غير الأدباء، فهو يرى أن أثر هؤلاء

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج3، ص143-144).

صعب المعالجة؛ لأن فساد البيئة بقطع النظر عن نوع هذه البيئة يؤثر على صحة الأديب وعلى نتاجه، لذا ربما أعطى نتاجاً سيئاً، والجاحظ في هذا المقام كان قد عاب على أهل الأهواز بيئتهم الفاسدة،و عدم اهتمامهم بأبنائهم مما يقتل لديهم الملَكة ويقتل فيهم روح الإبداع، فيموت الأدب في مهده. والجاحظ ينتقد هذه البلاد بشدة وبمقت شديد؛ لفساد تربتهم وفساد هوائهم مما يؤدي إلى فساد عقولهم، وربما أن الجاحظ كما ذهب- بعض النقاد- كان قد حمل على هذه البلاد ضمن الحملة العنيفة التي قادها ضد الشعوبية، فلا عجب إن ورد ذلك في حق أبي عثمان فهو مبدئيّ الرؤية، ومبدؤه في حياته كان يشكل له هاجساً إن وجد الوسيلة للتعبير عنه أفاض في ذلك، فيتحدث عن شكل الأنباط، فيعلق أحد الباحثين على ذلك بقوله (ونرى هنا أن أبا عثمان قد فارق المنطق والعقل، فقسى على الأنباط وتمنى أن يراهم بأذناب،وما ذلك إلا لأنهم كانوا من غلاة الشعوبية،الذين كانوا ينكرون على العرب والمسلمين كل فضل، وكانوا شيعة الزنادقة وأعوانهم، ويبقى أبو عثمان أدرى بحالهم وبمفاسدهم حتى بادلهم تصرفاً بتصرف)[1].

وكذلك هو في وصفه لأهل خراسان والأهواز، فإن أثر بيئتهم الفاسدة قد أورثهم فساداً عاماً في الشكل والطباع والعادات والتقاليد، وقد أثّر ذلك على من انتقل إلى بلادهم من العرب، كما أن فساد بيئتهم قد أثّر على النشئ والجيل لديهم، حيث أفقدوا الأمة والمجتمع أهم لبناته، وهم أبناؤهم وبناتهم، وهم عادة الذين يعوّل عليهم خدمة مجتمعهم، والجاحظ يصف أثر بيئة الأهواز وتلوثها والخطر الذي انتقل إلى العرب بالعدوى (فأما قصبة الأهواز، فإنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم، ولابد للهاشميّ، قبيحاً كان أو حسناً، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً، من إن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب، فلقد كادت البلدة أن تنقل ذلك وتبدله، ولقد تخيفته وأدخلت الضيم عليه، وبيّنت أثرها فيه؛ فما ظنّك بصنيعها في سائر الأجناس؟! ولفساد عقولهم، ولؤم طباع بلادهم، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة، والضياع الفاشية، يحبّون من البنين

---

(1) (محمد بن عبدا لغني المصري ،نظرية أبي عثمان في النقد الأدبي ، ص193).

والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار على الثروة واليسار، وإن طال ذلك. والمال منبَهه كما تعلمون. وقد اكتسب الرجل، من غيرهم، المويل اليسير، فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين، ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك. وليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا أدب شريف. ولا مذهب محمود، لهم في شيء منه نصيب وإن خس. ولم أرى بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية، ولا دماً ظاهراً ولا قريب من ذلك. وهي قتالة للغرباء)[1].

إن أبا عثمان كان في بدء حديثه عن البيئة، قد تحدث عن بيئة البصرة وهي بيئته التي عاش فيها، وهي بيئة مدينة البصرة، فناقش أثر تلك البيئة في الحيوان والنبات، وكذلك الإنسان، وتحدث عن تمورها مبيناً شهرة البصرة بهذه التمور المتنوعة والجيدة، وقد ناقش إنتاجها من التمور فبين في ذلك أن تمرها أكثر التمور دبساً وعلى طول الزمان أصبر، وقال أن نخلتها يمكن أن تبقى عشرين ومائة عام، وقد وصف الجاحظ كيفية العناية بها وميز تمر البصرة عن التمر الذي تنتجه بيئة وتربة الكوفة، فقال في ذلك (وقد زعم أهل البصر أن مُشَّانَ الكوفةِ قريبٌ من بُرْنيِّ البصرة*)[2].

كذلك فقد عرج على الحيوانات التي عاشت في بيئته، فذكر الكركدن والبغال والبرذان، وتعجب كيف أن أهل البصرة كانوا يعجبون بركوبها. ثم بين قيمة السنانير في البصرة فعرض في الحيوان حادثةً لبيع سنّور كان قد شهدها بنفسه، فيفصل بذلك ليتحدث عن الحباري وكيفية صيده وكيف يصاد طير الماء وغيره من الحيوانات التي كانت تضمها بيئة البصرة، ونجد أبا عثمان يهيم بعذوبة مياه دجلة، حتى أن قطعان السمك تترك البيئات المالحة فتترك الزنج معهم وبيئتهم؛ لتأتي إلى مياه البصرة ومياه دجلة فتستعذب ماءها، فيصور السمكة وكأنها لا تجد المتعة ولا الراحة إلا في هذه المياه، وذلك في أيام وشهور محددة من السنة، وقد كان موعد هجرة السمك معروفاً لديهم، فكانوا يخرجوا استمتاعاً بتلك المناظر الطبيعية الخلابة

---

(1) (الجاحظ،الحيوان، ج4 ،ص140-141).

* المُشَّان : نوعٌ من أطيب الرطب ، بُرنيّ : ضربٌ من التمر.

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج4 ،ص130).

(ثم قال: وأعجب من جميع قواطع الطير قواطع السمك، كالأسبور والجواف والبرستوج، فإن هذه الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار، تستعذب الماء في جميع الإبان، كأنها، تتمحض بحلاوة الماء وعذوبته، بعد ملوحة البحر... ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التي يقبل إلينا فيها هذه الأصناف وهي تقبل مرتين في كل سنة، ثم نجدها في إحداهما أسمن الجنس، فيقيم كل جنس عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر... إلا أن البرستوج يقبل إلينا قاطعاً من بلاد الزنج يستعذب الماء من دجلة البصرة، يعرف ذلك جميع الزنج والبحريين)[1].

لقد كانت بداية الجاحظ في وصفه للبيئة أن صور لنا بيئة البصرة، وهذا ليس غريباً على عالم ولد ونشأ وترعرع ومات في تلك البيئة، فكان فذاً بين أقرانه، شديد الحب لهذه المدينة التي أسسها العرب، فأرادها حاضرةً تُشع على العالم الإسلامي العلم والمعرفة والثقافة، والجاحظ لم يبخل يوماً بكتبه ورسائله في تصوير حياة البصرة وبيئتها خير تصوير؛ لذا فكتبه تعد أهم مصادر عرفنا من خلالها تاريخ البصرة وصورة مجتمعها على حقيقته دون زيف أو تزويق، هذا المجتمع الذي اضطربت فيه كثير من الأجناس؛ فتفاعلت فيه ثقافات شتى وإن كانت الغلبة والسيطرة والتوجيه للعنصر العربي حامل الرسالة الخالدة.

وهكذا يمكننا أن نزعم أن أبا عثمان كان أول عالم اجتماع خاض في قضايا اجتماعية كثيرة من أهمها: حديثه المطول عن البيئة وأهميتها،وأثرها على موجودات هذا الكون الفسيح، فناقش أثر البيئة في لون البشرة وكان له تنظيرات من خلال اللون في المساواة بين الأعراق؛ مبيناً أثر البيئة على الطباع وما تكسب وتورث أهلها من صفات قبح وحُسن، فأثبت كيف أن البيئة السهلة ذات الطبيعة المريحة تنعكس على أهلها سلباً وإيجاباً، شارحاً أهمية البيئة في خلق ومعتقد من يقطنها، مركزاً على خطورة البيئة الأولى وهي الأسرة في حياة الطفل ونشأته، حيث أفاض في هذا الحديث؛ مؤمناً بأن الأم والأب هما خير قدوة مؤكداً على أهمية السنوات الأولى في حياة الفرد، ففي هذه المرحلة الخطيرة والحرجة من حياة الطفل يكون

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج3 ،ص259-261).

ثوابته وأصول المعارف لديه منوة على أهمية الجيل الصالح إن هو وجد بيئة صالحةً في إقامة مجتمع سليم، ثم أمةً قويةً صالحةً ومن هنا نجده يثور منتقداً أهل الأهواز ومن حولها في فساد بيئاتهم البشرية وطباعهم التي أهملت هذه الثروة البشرية على سعة عيشهم وكثرة مالهم، مقارناً بينها وبين بيئة البصرة موئل العلماء، ومصنع الثقافة والمثقفين في جانب من جوانب الحياة العلمية والثقافية، منبهاً على أهمية البيئة العلمية بالنسبة للأديب، محذراً من مغبّة اختلاطه بغيره، ومجارات جلساء حمقى الناس؛ فيأتي تأكيده هذا على أهمية البيئة للأديب اعتقاداً منه بأن الكتّاب والعلماء هم صفوة المجتمع وقادته، وعليهم يعوّل في بذر الفكر الصالح، لا سيما والمجتمع في عصر الجاحظ كان خليطاً عجيباً سن عناصر متنافسة في بسط نفوذها وسلطانها وسيطرتها، فلا بد أن تكون الغَلبة فيه للأقوى في كل جانب من جوانب الحياة الفكرية والعلمية والثقافية، مناقشاً أهمية البيئة وأثرها على النبات والحيوان، مفاخراً ببيئة البصرة، ماءً وأنهاراً في جذب الكثير من الطيور والأسماك لها، وبذا يكون أبو عثمان قد سبق ابن خلدون ومن جاء بعده من علماء في تمهيده لهذه العلوم في تنظيرات قُدرّ لها أن تنضج بعد ذلك؛ لتصبح علماً قائماً بذاته، فيدرّس في المدارس والكليات والجامعات.

3. 4 صورة المجتمع عند الجاحظ

لقـــد نجـــح أبو عثمان في أن أدخل موضوعاً جديداً من موضوعات الأدب العربـــي فـــي العصر العباسي، وهو تصوير أخلاق الناس، والمجتمع الإسلامي في مخـــتلف أطـــوار حياته وطبقاته، وهو لا يجد في نفسه حرجاً في أن ينزل إلى أقل طـــبقات مجـــتمعه شأناً، ولا يجد في نفسه كبراً من تصوير تلك الطبقات، وهو في الوقت ذاته أهل وكفؤ إلى مجالسة علية القوم، والخوض في مجتمعهم وتصويره عن قـــرب، وكشف أسرار تلك الطبقات، التي ربما سعت إلى ستر زلاتها وأخطائها عن سائر المجتمع.

إلا أن أبـــا عـــثمان كانت لديه القدرة على اختبار المجتمع بذكاء حاد وعقل مستنير؛ ليُظهر لقارئه تلك الصورة البهية التي ميزت العصر العباسي عن غيره من عصور الدولة الإسلامية، ازدهاراً ونماءً في كافة المجالات العلمية والثقافية، صورة

مشـــرقةً تُظهـــر الوجه الحضاري الذي بلغته الأمة، وفي الوقت ذاته كانت العدسة المصورة اللاقطة للجاحظ تلتقط كل صغيرة وكبيرة في حياة ذلك العصر.

فقد أظهر أبو عثمان في حيوانه صورةً اجتماعيةً بهيةً للثقافة والمعرفة والعلم في جميع مناحي الحياة، كما كشف النقاب وأبان عن بعض مواطن الزيف والضلال في ذلك المجتمع، وصور ما كان قد شاع في مجتمعه من مظاهر المجون، والخنوع والانجرار وراء اللذائذ الرخيصة، وما كان ذلك العمل من أبي عثمان إلا لأنه مفكر عظـــيم حمـــل المجـــتمع وهمَّـــه وإصلاحه على عاتقه، فراح يرسل تلك الرسائل الاجتماعـــية ويرســـم تلـــك الصور بواقعية متناهية، واقعية المتفائل الذي ينشد من ورائها كشف الزيف والزيغ الذي غرق فيه كبراء المجتمع؛ لذا فقد خشي أبو عثمان على لُحمة المجتمع الإسلامي الذي تبدلت فيه القيم والعادات والتقاليد، بعد أن تداعت الأمـــم عليه فنجد البعض قد أُصيب بصدمة ثقافية وصرعة الموضة، فراح يستهجن كـــل ما حوله فيسعى لمجاراة كل مستحدث بغض النظر عن ملائمة تلك المستجدات لواقعه وعقيدته وقيمه التي زرعها الإسلام في النفوس، وراح البعض يلبس كل ثوب مزركش مزخرف رآه في الأسواق غاضاً الطرف عن حجمه ولونه وجودته.

وهكـــذا كان المجال مفتوحاً لأن تتسرب بعض المشينات إلى مجتمع الجاحظ وتنتشـــر مخلفـــةً ورائها آثاراً سلبيةً كادت تغرق المجتمع والأمة، لولا أن وقف لها ولدعاتها صفوة من المفكرين بالمرصاد، وكان في طليعة هؤلاء أبو عثمان الجاحظ الذي كان حريصاً في مؤلفاته على أن يعرض ويكتب في كل موضوع من شأنه أن يقـــوي دعامة هذا المجتمع، فهو خير شاهد على عصره ،وخير شاهد على امتزاج الحضارات وعلى تسرب العديد من العادات والتقاليد، التي كان بعضها يمثل سهاماً خبيـــثةً فـــي قلب ذلك المجتمع؛ لذا نجده يحث ويدأب على تأسيس المجتمعات وبناء الأجـــيال مـــنذ النشـــأة الأولـــى، مؤمناً بأن هذه الأجيال هي التي ستبني المجتمع، فمسؤولية إعماره تقع على كتف هذا الجيل، فإن صَلُحَ الجيل صَلُحَ المجتمع، فأول ما حث عليه في حيوانه وناقشه، أمر الأسرة إيماناً منه بأن الأسرة هي اللبنة الأولى والـــنواة التـــي تـــتجمع حـــولها ســـائر العناصر، فإن ضمنت سلامتها من العدوى

بالأمراض الاجتماعية، استطعنا أن ننشئ مجتمعاً سليماً خالياً من الأمراض معافاً في جسده وروحه، والجسد هم سائر أفراده.

لقد اهتم أبو عثمان بتنشئة أسرة صالحة؛ ليقينه بأن الأسرة هي أساس المجتمع الصالح وهي البيئة الأولى التي تنتج أفراداً، والرافد الأول الذي يمد المجتمع بجنوده فإن صلحت كان نتاجه كذلك، وإن فسدت عاد فسادها على المجتمع كله بالشر والفساد. وأول ما يركز عليه أبو عثمان ويوليه جل اهتمامه ورعايته، والتنبيه على الشباب بنوعيه: ذكوراً وإناثاً، فيدعو إلى رعاية هذه الفئة من أبناء المجتمع، التي هي في سن ومرحلة غاية في الحساسية، وهو سن يؤهل فيه الشباب للإقبال على الزواج وإنشاء الأسر.

وأبو عثمان كان قد نبه على هذه المرحلة التي قد أطلق عليها التربويون فيما بعد(سن المراهقة)، التي تنبه لها هذا العالم التربوي وعالم الاجتماع، والعجب أن الجاحظ كان قد أورد في كتابه الحيوان ما يخص هذه الفئة من الشباب، فنجده يورد وصايا من آباء لأبنائهم، ثم وصايا كذلك موجهة للبنات، وقد دعا أبو عثمان إلى تعليم الفتيات بالرغم من أن عصره لم يكن يشجع على ذلك، فقد كان المألوف والموصى به والمتبع، ألا تُعلم البنات الكتابة – والمرأة بشكل عام – إلا أن أبا عثمان نجده يأخذ من القرآن الكريم منهجاً ومن السنة الكريمة طريقاً، فقد أعطى ديننا الحنيف للمرأة حقها في أن تتعلم وتتفقه في كل أمر من شأنه أن يرفع مكانتها ويعلي شأنها دنيا وآخرة، ويكفي أنه– صلى الله عليه وسلم –كان قد خص نساء المسلمين بيوم يجلس فيه معهن للتفقه بأمور الدين، ويكفي المرأة مكانةً وفخراً أنه كان قد أوصى بالنساء خيراً وأنه قال:" خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميراء" ويعني أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها – ونجد أبا عثمان يُعلي مكانة المرأة العربية، وتأتي المرأة الجارية في مطلع العصر العباسي وفي خضم ذلك الاختلاط الموحش لتحل محل المرأة العربية فتزاحمها على منزلتها فلا يبقى لها ذلك الدور الكبير، حيث عجت البيوت العربية بالإماء والقيان وقد ظهر منهن الشاعرات والأديبات كما وضح ذلك أبو عثمان.

واحتلت النساء في عصر الجاحظ مكانةً مرموقةً (فقد كانت زوجة هارون الرشيد تؤلف أخطر مراكز القوة في عهده، وهي بنت عمه الأميرة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، فقد كانت تتدخل في أمور سياسة الدولة، وكانت نساء الطبقة الراقية يتمتعن بقدر كبير من الانطلاق والتحرر ويزاحمن الرجال في التدخل في شؤون الدولة، وقد أدى تدخل المرأة السيدة في شؤون الدولة إلى ضعف الخلافة العباسية)[1].

والحديث عن المرأة سواءً السيدة العربية أم الأَمَة ربما أفرد له مجال وحده، لكن أبا عثمان كان مهتماً بشؤون الإنسان كوحدة اجتماعية، مركزاً على إنسانيته وتربيته ليحقق إصلاحه؛ فنجده يدعو إلى تعليم الفتيات ويخصهن في الدرجة الأولى ليضمن حداً من الوعي والثقافة الأولية لديهن، (فأمّا الأبكار الغريرات فهنّ إلى أن يؤخذن بالقراءة في المصحف، ويُحتال لهن حتى يصرن إلى حال التشييخ والجُبن والكَزازة، وحتى لا يسمعن من أحاديث الباه والغزل قليلاً ولا كثيراً)[2].

وقد اختار أبو عثمان للفتاة العلم النافع، وأراد أن يؤهلها لأن تكون فتاة ذات خلق، وذات دين، سليمة النشأة نيرة الفكر، فقد أراد منها أن تتأهل لتكون أم المستقبل ومصنع الرجال والأجيال، فهو في كل حين يحث على لُحمة المجتمع بأن تكون متينةً، وذلك بأن يبث بين أفرادها الخصال الحميدة، والأخلاق العالية، وقد رأينا كيف كان موقفه من الحاسدين، وكيف كان موقفه من العداوة، وكيف رأى أبو عثمان السعادة !وقد حث ملياً على كتمان السر، فيورد في حيوانه أقوال الصالحين والسلف الخير في ذلك، سواء أكان القول شعراً أم نثراً، وهذا له دور كبير في أن يثق أبناء المجتمع ببعضهم، فيحفظوا السر؛ حفاظاً على وحدة المجتمع. وأبو عثمان يمتدح من لا يخون الأمانة، ويعدها من الخصال الفريدة التي تفتقد إليها المجتمعات، مستهينين بثقلها فيصف هذا الأمر ويعتبره غايةً في الأهمية بقوله

(قال رجل من بني سعد:

إذا ما ضاق صدرك عن حديثٍ ... فأفشته الرجال فمن تلومُ

---

(1) (محمد سعد القزاز، **الفكر التربوي في كتابات الجاحظ** ،ص 220).

(2) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج 3 ، ص 291).

إذا عاتبتُ من أفشى حديثي سرّي عنده فأنا الظلومُ
وإني حين أسأم حمل سري وقد ضمّنته صدري سؤوم
ولست محدِّثاً سري خليلاً ولا عرسي إذا خطَرت هموم
وأطوي السر دون الناس، إني لما استودِعت من سرٍّ كتوم[1]

وحتى يؤكد أبو عثمان هذه الشيمة الحميدة في أبناء مجتمعه وبناته،نجده يورد ما كان قد أوصى به سلفنا الصالح من صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لتكون لشباب الأمة حينها قدوةً صالحةً يقتدون بها، فهو كما كان حريصاً على الفتيات هو أيضاً شديد الحرص على شباب المجتمع من الرجال، حيث أنه كان يعدهم لحمل مسؤولية عظيمة'فيروي عن (العباس بن عبد المطلب) حديثه مع ابنه (عبد الله بن عباس)–رضي الله عنهما– (يا بنيّ أنت أعلم منّي، وأنا أفقه منك إن هذا الرجل يدنيك –عمر بن الخطاب)– فاحفظ عني ثلاثاً: لا تفشي له سرّاً، ولا تغتابنّ عنده أحداً، ولا يطّلعنّ منك على كذبة)[2].

فنجد أبا عثمان أورد الحديث السابق محذراً من الكذب والغيبة وإفشاء السر، والمتأمل في هذه الصفات الثلاث يجد أنها من أسوء ما يمكن أن يهدم المجتمع ويقوض دعائمه من أساسه ويزلزله عن قواعده؛ لذا نجده يحض على حميد الشيم وطيب الخصال، حتى يُربي جيل مجتمعه على ما أوصى به الإسلام العظيم، قدوته في ذلك قوله تعالى (ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)[3]، (.. ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان..)[4]، محافظاً على ما ورثه من أمته العربية التي اتّصفت بالنخوة والكرم، ولا عجب أن يصدر مثل هذا الأمر عن أبي عثمان، فهو مفكر من مفكري الأمة التي ذُهلت بما كان قد غشي العالم العربي والإسلامي في عصر

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ، ص 188 ، ج 5).

(2) (الجاحظ ،الحيوان،ج5،ص189).

(3) (سورة الحجرات: الآية11)

(4) (سورة الحجرات : الآية 12)

الجاحظ، حيث أراد أبو عثمان لمجتمعه التميّز ؛ ليكون قادراً على مواجهة تلك المتغيرات الطارئة على سبل الحياة، فإذا ما تهيأ الشباب لسن الزواج نجد أبا عثمان حريصاً على أن يورد في حيوانه وصايا من أب وأم لابنتهما ليلة زواجها، وذلك حتى يُبنى البيت المسلم منذ اللحظة الأولى لتكوينه على أساس سليم، وإشادته على ما أمر به الدين الحنيف، فقد أوصى رجل من العرب ابنته ليلة زفافها بوصايا فكان مما قال لها (احذري مواقع أنفه، واغتسلي بالماء القرّاح، كأنك شنٌ ممطور!)[1].

ثم يورد أيضاً وصيةً من أم لابنتها العروس (وليكن أطيب طيبك الماء...

بنيتي إن نامَ نامي قبله وأكرمي تابعه وأهله
ولا تكوني في النصام مثله فتخصميه فتكوني بعلَه)[2]

ولأن الأسرة هي أهم الوحدات الاجتماعية لذلك نجده يهتم بها من جميع نواحيها وكافة شؤونها، وإذا مل أبو عثمان أقوال البشر في ذلك نجده يلجأ إلى عالم الحيوان فيستدل منه، وكأنه يعرض هذه الشرائح نموذجاً لأبناء مجتمعه لتكون خير أسوة من كائن أصم غير عاقل ،وذلك بثاً منه للمحبة وتقوية العلاقات بين الأزواج، فينصح أبو عثمان إلى التأسي بعالم الحمام في رواية يعرضها وقصة يسردها مستوفيةً كافة عناصرها لبث الرقة في قلب زوجة كانت قد جفت زوجها ورغبت عن العيشة معه (انظر الحيوان)[3].

وأبو عثمان عندما يعود إلى عالم الحيوان يكون واثقاً من أن عوده لذلك العالم لا بد أن يكون فيه العظة العظيمة، ولا بد أن تكون فيه الفائدة التي تعود على البشر وسائر المجتمعات التي تسعى لخيرها ونفعها العميم، والجاحظ حتى لا يُؤخذ عليه عوده إلى تلك المخلوقات التي ربما قال قائل إن تلك المخلوقات لا تقوم بذلك من ذاتها وإنما هي مسيّرة وملهمَة من الله سبحانه ومبرمجة على ذلك، ويرد على ذلك أبو عثمان بأسلوب مباشر بقوله (أوصيك أيها القارئ المتفهّم، وأيها المستمع

---

(1) (الحيوان ، **الجاحظ** ،ج 5 ، ص 138).

(2) (الحيوان ، **الجاحظ** ، ج 5 ، ص 139).

(3) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 5 ، ص 287).

المتمست المصيخ، ألا تُحقر شيئاً أبداً لصغر جثّته، ولا تستصغر قدره لقلة ثمن)[1].
ثـم يقول (وأنّ صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله. ولم تفترق الأمور في حقائقها، وإنمـا افتـرق المفكرون فيها، ومن أهمل النظر، وأغفل مواضع الفرق، وفصول الحدود فمن قبل ترك النظر... اختلفوا)[2].

وربمـا نجد أبا عثمان في كثير من الأحيان يعرض أمراً فيريد نقيضه،فكأنه خـاف اختلاط الأنساب في مجتمعه فخشي على العنصر العربي النقي أن يتلاشى، وربمـا هو من خلال حديثه أيضاً عن الحيوان ولا سيما الحمام، أراد بعض الفئات فـي مجـتمعه التـي رأى عندها عدم المبالاة في التعامل مع النساء، واتقاء الفساد والحـذر في تعاملهم مع الإماء، وأن يحرصوا في اختيارهم لزوجاتهم، وأن يكون لهـم ذوقهـم فـي انتقاء الأعراق ،فيعرض رأيه هذا من خلال عرضه لعناية أهل مجتمعه بأنساب الحمام (وكيف تُفرد في البيوت، وتجمع إذا كان الجمع أمثل، وتفرّق إذا كانـت التّفـرقة أمثل وكيف تنقل الإناث عن ذكورتها، (وكيف تنقل الذكور عن إناثهـا) إلى غيرها، وكيف يُخاف عليها الضّوَى إذا تقاربت أنسابها، وكيف يُخاف علـى أعراقها من دخول الخارجيّات فيها، وكيف يُحتاط في صحة طرقها ونجلها، لأنـه لا يؤمن أن يقمُط الأنثى ذكر من عُرض الحمام، فيضرب في النّجل بنصيب، فتعتـريه الهُجـنة- والبيضـة عند ذلك تنتسب إلى طرقها. وهم لا يحيطون أرحام نسائهم كما يحيطون أرحام المنجبات من إناث الحمام)[3].

ويـؤكد أبو عثمان ضرورة تخير الزوجة بطريقة حذرة دقيقة؛ لما لذلك من أثـر علـى النسل الذي سيُنسب للأب بعد ذلك ويلصق به (وقد زعم الأصمعيّ أن رجـلاً مـن العـرب قـال لصاحب له: إذا تَزوّجتَ امرأةً من العرب فانظر إلى أخوالها،وأعمامها، وإخوتها، فإنها لا تخطئ الشبه بواحد منهم!)[4].

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ،ج 3 ،ص 298).

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 3 ، ص 299).

(3) (الجاحظ ،الحيوان ج 3 ،ص 313-314).

(4) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 3 ،ص 165).

أمـــا إذا مـــا همــت الأسرة بالتكوين وبدأت المرأة التي اختيرت على أسس صـــالحة منــتقاة كمـــا حــث عليها أبو عثمان، فإنه يعود إلى العالم الذي رأى فيه الأنمــوذج الصـــالح لبني البشر، عالم الحيوان ليُري مجتمعه والناظر فيه كيف أن الأب يـــتحمل مســؤولية عظــيمة وهي العناية بالأسرة، فتبدأ العناية بالأم الحامل والمحافظـــة علـــى صـــحتها، وتوفير البيئة النقية والمريحة والبيت الهانئ الهادئ لأبـــنائه، وكأن أبا عثمان يناشد الآباء والأمهات أن يُعدوا أنفسهم ويهيئوا بيئات نقية لتربية أولادهم القادمين إلى الحياة، وكأنه يقول: فهل عجزت أيها الإنسان أن تكون مـــثل هذا الحمام؟ ولنستمع إليه كيف يروي لنا قصة الحمام في إعداد البيئة اللازمة فـــرحاً ورعايةً لأبنائه (فإذا علم الذكر أنه قد أودع (رحم) الأنثى ما يكون منه الولد تقـــدّما فـــي إعـــداد العشّ، ونقل القصب وشِقَقِ الخُوص، وأشباه ذلك من العيدان الخوّارة الدّقاق حتى يعملا أفحوصةً وينسجاها نسجاً مداخلاً، وفي الموضع الذي قد (رضـــياه واتخـــذاه واصـــطنعاه، بقدر جثمان الحمامة، ثم اشخصا لتلك الأفحوصة حـــروفاً غيـــر مرتفعة؛ لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج، (ولتزم كنَفَى الجؤجؤ) ولـــتكون رِفداً لصاحب الحضن، وسنداً للبيض، ثم يتعاوران ذلك المكان ويتعاقبان ذلك القرموص وتلك الأفحوصة، يُسخّنانها ويُدفيانها ويطيّبانها، وينفيان عنها طابعها الأول، ويحـــدثان لهـــا طبـــيعةً أخرى مشتقةً من طبائعهما، ومستخرجةً من رائحة ابـــدأنهما وقـــواهما الفاصـــلة (منهما؛ لكي تقع البيضة إذا وقعت، في موضع أشبه المواضع طباعاً بأرحام الحمام)، مع الحضانة والوثارة؛ لكي لا تنكسر البيضة بيُبس الموضـــع، ولئلا ينكر طباعها طباع المكان، وليكون على مقدارٍ من البرد والسّخانة والرخاوة والصلابة. ثم إن ضربها المخاض وطرّقت بيضتها، بادرت إلى الموضع الذي قد أعدته)[1].

ويكمـــل أبـــو عـــثمان في هذه الرواية ليؤكد أهمية البيئة وأثرها في النشأة الأولـــى، ويكمـــل أبو عثمان في كتابه الحيوان كأنه تعهد تلك الأسرة قبل أن تتكون وبعـــد تكونها، بأن يضع أمامها كل ما يلزمها من دواعي الحياة الهانئة التي تُخرج

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج 3 ، ص 150- 151).

النسل القوي لذا؛ (فقد اهتم الجاحظ بتوجيه النصح لمربين من أباء وأمهات، والمعلمين والمهتمين بتربية الأطفال، وليس إلا لأنهم عدة المستقبل)[1].

ولأن أبا عثمان يؤمن بالتربية منذ الطفولة الأولى ومنذ نعومة الأظفار، وكان من دعاة إصلاح الأب والأم أولاً، ولأنه كان يدرك أن الطفل أول ما يولد، يولد على الفطرة، فالأثر الناتج فيما بعد هو أثر من يلتقيهم الطفل في أولى سني عمره؛ لأنه حينها يكون قابلاً لأن يُشحن بما هو متوفر من عادات وحركات وسلوكات، خاصةً في شهوره الأولى فالطفل يكون مقبلاً على التقليد وبدرجة كبيرة، لذلك يبين أبو عثمان أن المرأة ما تلبث أن تلد طفلها حتى تهيئ نفسها لحياة تختلف عما كانت عليه في سالف أمرها. لقد أعد لها العالم التربوي والمفكر الاجتماعي -وفي الحيوان أيضاً -سياستها التي يجب اتباعها مع طفلها الرضيع، وذلك لتخرج منه رجلاً متحملاً ضنك الحياة وصلفها ،عارضاً تجارب الأمهات الفاضلات في مجال الرضاعة والتربية، فأبو عثمان يرى أن المرأة لا تختلف عن أي أم من فصيلة الحيوان في رعاية ولدها، وفي هذه الغريزة التي أودعها الله قلبها.

وهو يرى أن عليها مسؤوليةً عظيمةً اتجاه طفلها، فعليها بادئ الأمر أن تهيئ له بيئةً صحيةً وسليمةً خاليةً من شوائب المجتمع، حيث هو صفحة بيضاء، وأن تحاول الأم ما استطاعت حمايته من الأخطار التي قد تعرض له وذلك لضعف جسمه وعدم قدرته على مقاومة المؤثرات الخارجية، وعدم قدرته الدفاع عن نفسه كما يوضح ذلك الجاحظ، فهو يُحمل الأم المسؤولية الكاملة في رعاية رضيعها، فعليها أن تُراعي كل ما من شأنه أن يجلب إليه السرور ويبعده عن الغم؛ لما لذلك من أثر عظيم في نفسية الطفل مهما صغر، والرعاية منها متطلب متدرج حسب عمر الطفل، فعليها المتابعة الحثيثة، والمراقبة، وشدة الملاحظة، مراعيةً متطلبات كل مرحلة عمرية، وربما جاء هذا التكليف أو هذه الملاحظات من قبل أبي عثمان وللأم خاصة لأنها هي المسؤولة عن الطفل، وهي الأكثر ملازمة له من سائر الناس حتى لو كان ذلك الشخص هو الأب، فالله- سبحانه وتعالى- أودع في الأم غريزة

---

[1] (محمد سعد القزاز،**الفكر التربوي في كتابات الجاحظ** ،ص 175).

الحب والتحنان على طفلها وهبأها للحفاظ على ما استودعه، فعلى الأم كما حدد أبو عـثمان- في تنظيره التربوي- أن تبعد الألم عن طفلها، وتحاول ومنذ البدء أن تجدّ فـي مداعبته حسب سنه وبما يلائم هذا العمر، وأبو عثمان هنا يشن حملةً لا هوادة فـيها علـى الأم الجاهلة في تربية وليدها وينعتها بالأم الخرقاء، فما يكون منها مع طفلهـا إلا أن تهـزه في المهد مراراً حتى تورثه الدوار، ثم هي تضرب يدها على جنبـيه حتـى يـنام، وربما نام الصغير على غم وكتم اللوعة في قلبه، فأكسبه هذا الهزال والضعف، فانظر إلى الجاحظ كيف يُحذر من مغبة هذا السلوك الصادر عن الأم الحمقـاء -كمـا نعتها أبو عثمان- محذراً من هذا السلوك الذي ما زلنا نعيشه ونعانـي منه اليوم، حتى عند أكثر الأمهات تعلماً وثقافةً، فيورد أبو عثمان في قوله (وأمـا قـولها في المأقة، فان الصبيّ يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأم جاهلـةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُوار أو نوّمته بأن تضرب يدها على جنبه. ومتى نام الصبيّ وتلك الفزعة أو اللّوعة أو المكروه قائم في جوفه. ولم يعلَّل ببعض مـا يلهـيه ويضحكه ويسره، حتى يكون نومه على سرورٍ، فيسري فيه ويعمل في طـباعه، ولا يكـون نومه على فزع أو غيظ أو غم، فإن ذلك مما يعمل في الفساد. والأم الجاهلـة والمرقِّصـة الخرقاء، إذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين، كثر مـنها ذلـك الفساد ويرادف، وأعان الثاني الأول والثالث الثاني حتى يخرج الصبي مائقاً)(1).

ثـم بعـد ذلـك يضرب مثلاً على ذلك المأق -كما يصفه- بعد أن يكبر وما سـيلاقيه مـن انتقاص بين رفقائه، ونحن عادةً نكون في غاية السرور عندما نردد بعض النظريات التربوية التي تلج إلينا من عالم الغرب والشرق، ونحسب ذلك غاية الـثقافة والاطـلاع، ونردد دائماً تلك الأقوال كقولنا إن نابليون يقول: (إن الأم التي تهـز المهـد بيمينها، فإنها تهز العالم بشمالها)، ولكن ما كان منا مثقف ينقض تلك المقـولة، ولم ينهض منا متعلم ومطلع ليقول إن الجاحظ أبا عثمان كان قد حذر الأم مـن أن تهـز المهد حتى لا تورث ولدها الدوار، وقد عدها أبو عثمان أماً جاهلةً

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان** ،ج1 ،ص287).

خرقاء، بل انتظرنا طويلاً إلى أن جاء العلماء المُحدَثون ليحذروا من تلك السلوكات، مع الأطفال الصغار. وأبو عثمان كعادته لم يكتفِ بأن يعرض ما عنده فقط، وحتى يكـــون فـــي كلامـــه مقنعاً لقارئه أو من هو في صدد إسداء النصيحة له، يعود إلى الحكمـــاء والمعروفين بالحكمة والسداد، مدعماً ما ذهب إليه فيعرض نصائح من أم مجـــربة مـــن نساء العرب الفاضلات أسلوبها في التربية، التي بغت من ورائها أن يشتد عود ابنها وتقوى سواعده، فيصبح قادراً على مواجهة الحياة التي ربما فُرضت علـــيه أو أُجبر على أن يخوض في غمارها،وهو من خلال ما تسديه أم تأبط شراً، يبعث رسائله إلى الأمِ الحامل ثم إلى المرضع: كيف يجب أن يكون التصرف إبقاءً علـــى صحة وسلامة المولود (وفيما يُحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساء العرب–وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مُقدَّمة فيهم –فروَوا جميعاً أن أم تأبط شراً قالت (والله ما ولَدته يَتناً، ولا سقيتُه غَيلاً ولا أبـــتّه علـــى مأقة)[1]. وجملة كلامها أنها ولدته بطريقة طبيعية، ولم تسقه حليبها وقت أن كانت تحمل بغيره، مما يضمن له سلامة صحته على مدى الأيام.

ثم يعرض أبو عثمان في هذا المقام، ما كان يعتقد به القوم ويتفاءلون به من صـــحة المواليـــد، فقد كانوا يتشاءمون بالمولود البكر لأنهم لا يضمنون سلامته، ثم يعتقدون بأن حجمه لا يكون في الوضع اللائق، وكذلك صحته؛ لذا كانوا يتمنون أن تكـــون البكـــر أنثـــى، وربمـــا تكون هي الحالة الوحيدة التي تمنت فيها العرب في جاهليتها إنجاب الإناث، وذلك لأن الأنثى لو تعرضت للخطر كان أسهل على القوم مـــن أن يتعرض لذلك الذكر، وكانوا يتفاءلون بالمولود الثاني بحيث أن الأول ربما كان ضعيف الجسم قليل الحجم، وذلك في قوله (وهم لا يثقون بحياة البكر من الناس كمـــا يثقون بحياة الثاني ويرون أن طبيعة الشباب والابتداء لا يعطيانه شيئاً إلا أخذه تضـــايق مكانـــه من الرحم، ويحبون أن تبكر بجارية! وأظن أن ذلك إنما هو لشدة خـــوفهم علـــى الذكر. وفي الجملة لا يتيمّنون بالبكر الذكر. فإن كان البكر ابن بكر تشاءموا به، فإن كان البكر ابن بكرين فهو في الشؤم كقيس بن زهير والبسوس[2].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج1 ، ص286).

(2) (الجاحظ ، الحيوان، ج3 ، ص 174–175).

وهــم ربمــا أحبوا الذكر لحاجتهم له في حروبهم وغزواتهم، فلذلك حرصوا على أن يكون نسلهم قوي العزيمة عالي الهمة، منذ أن يفتح عينيه على نور الحياة. وأبــو عثمان ما ترك موضوعهم في حبهم للولد الذكر دون أن يستوفيه حقه، فراح يبــين أسباب حب العرب لكثرة الولد، وذلك رغبةً من بني البشر في الحرص على الامتداد في الحياة، فحب الذرية غريزة بالرغم من تبعاتها وهمومها ومشقة التربية، والــرجل يقوى ببنيه وعزوته، فإن لم يرزق من الأولاد الذكور يبقى شعور الوحدة والوحشة يساوره، وهذا الشعور لم يستثنَ منه حتى الأنبياء، رغم تكفل الله لهم بكافة شــؤونهم، ولا ننسى خطاب زكريا لربه بقوله (وزكريّا إذ نادى ربّه ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين)[1]، (وما أكثر ما يطلب الرجل الولد نفاسةً بماله على بني عمّه، ولإشفاقه من أن تليه القضاةُ وترتع فيه الأمناء، فيصير ملكاً للأولياء، ويقضي بــه القاضي الذّمام ويصطنع به الرجال، وربما همّ الرجل بطلب الولد لبقاء الذكر، ولــلرغبة في العقب، أو على جهة طلب الثواب في مباهاة المشركين، والزيادة في عــدد المســلمين، أو للكســب والكفاية، وللمدافعة والنصرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع الله بني آدم عليه، من حب الذريّة وكثرة النسل)[2].

ونحــن إذا نقــرأ عــناية الجــاحظ الفائقة بشؤون الطفل، ونراه يكشف هذه المعلــومات عظــيمة الأهمــية– فــي كتاب كان قد أفرده وخصصه للحديث عن الحــيوان– فــنخال أنــنا نقــرأ لعالم تربوي متخصص كان قد درس هذه المراحل التــربوية من حياة الطفل دراسةً علميةً تامةً؛ فخرج بالخلاصات والتوصيات ليأخذ بهــا معشــر الآباء والأمهات. ويعود الجاحظ ليؤكد أثر الأم العظيم في طفلها منذ اللحظــة الأولــى من حملها حتى فترة الرضاع، وهو إذ يرشد إلى هذا فهو يطلب المــزيد من العناية، ربما من الآباء بالأمهات والأولاد، ولا نعلم لو قُدّر لأبي عثمان أن يكــون له أسرة وولد فهل نجده يطبق جميع ما نظّر له في مجال التربية؟ فانظر إلــيه كــيف يوضح أثر الأم برضيعها، والمرضع بشكل عام، وقد شاع عند العرب إرســال أبنائهم إلى البادية، حيث الفصاحة وحيث الرضاع وصفاء البيئة وامتدادها،

---

(1) (سورة الأنبياء).

(2) (الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 109).

(والمرأة المرضع تشرب النبيذ فيسكر من لبنها الرضيع وتشرب دواء المشي فيعتري الرضيع الخلفة. فلذلك يختار الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدواء: في عقلها وفي بدنها)[1].

وكم نبه أبو عثمان على ضرورة اختيار الزوجة الصالحة وذلك بأن تُختار على أسس، والزوجة بدورها عليها انتقاء زوجها بوعي، فينظر الزوجان إلى الهدف السامي من ارتباطهما، وإلى أن نتاج الزواج سيكون إنشاء أسرة، فمجتمع، فنجده يعيب على هؤلاء الذين يسيئون الاختيار، فتقع بينهم المشاحنات وتسوء العلاقة الزوجية إلى حد القدح، وهجاء كل منهما الأخر، وهذا هو الحد المقلق والمزعج في حياة الأزواج، وهو أن تُستبدل المودة والرحمة والسكينة والراحة والطمأنينة التي أوجدها الله، إلى قدح وفضح كل منهما أسرار الأخر على مرأى من الناس ومسمع، ولأن أبا عثمان يخشى على قارئه ومستمعه- أو من هو في مقام النصح له -الملل يراوح بين الأساليب في عرض أفكاره، فمرة تأتي الفكرة بقالب الوصية، ومرة تأتي قصة متينة السبك، وتارة تأتي نثراً وخطاباً مباشراً، وأخرى يلجأ فيها إلى الخطاب الشعري، ففي الشعر الحكمة والعظة، وفي ذلك يقول وإنما اكتب لك من كل باب طرف لأن إخراجك من باب إلى باب أبقى لنشاطك، وهو يعرض ما قد توصلت له الأسر العربية من تفكك حتى أدى بها الأمر إلى التهاجي والتعايب وكشف السقطات والأخطاء بينهما والعيوب، وهذا الحال الذي أسف له أبو عثمان وكان قد حذر من تكراره، وذلك بعرضه بعض اللوحات والشرائح الاجتماعية من قبل رجال كانوا قد أطالوا في هجاء زوجاتهم، ونساء كن قد نظمن في الغرض ذاته يقول في ذلك:

(وقال شاعر:

تجهزي للطلاق وانصرفي ذاك جزاء الجوامح الشّمُس

فأجابته زوجته:

ليلتي حين بتّ طالقةً ألذ عندي من ليلة العرس

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان ،ج5 ، ص 366 -367).

وقالت أخرى:

كأن الدار حين تكون فيها ... علينا حفرةٌ مُلئت دخانا

فليتك في سفين بني عِبادِ ... وتصبح لا نراك ولا ترانا

وقالت أخرى:

فليته كان أرض الروم منزلُه ... وأني قبله صُيّرت في الصين)[1]

وكم دعا أبو عثمان إلى ضرورة صواب الاختيار، وذلك حتى تثمر عملية الزواج وتؤتي أكلها ذرية قويةً صالحةً، وكأنه لا يُحبذ زواج الأقارب حفاظاً على سلامة وقوة النسل، وذلك أنه رأى الأمثلة الكثيرة في مجتمع عصره، وقد وجد أن الزواج بين الأجناس المتباينة من الناس ربما حسن النسل وأضفى عليه القوة، وربما الذكاء. ويتحدث الجاحظ عن زواج الأقارب وكأنه عالم من علماء الوراثة، حين رأى أن الزواج من القريبات ربما أتى عنه سلالةً ضعيفةً، وينبغي على الراغب بالزواج أن يتزوج من غير قريباته، وهو في هذا أيضاً إسلامي المنهج، فقد سبق الإسلام العلم الحديث في هذا المعنى (غربوا النكاح) (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) وهو يعلل ذلك بقوله: (ورأينا الخِلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخلّق بين الحبشيّ والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنّه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمِريه. ورأينا البَيسريّ من الناس، وهو الذي يُخلق من بين البيض والهند؛ لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتّهما، ولكنه يجئُ أحسن وأملح وهم يسمُّون الماء إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكينا عن البيض والهنديات)[2].

هذا ولم يترك أبو عثمان الأسرة عند هذا الحد من التوجيه والإرشاد، فقد رأينا كيف أوصى بتعليم الفتيات اللاتي كن في سن الزواج، وأوصى بتعليمهن كتاب الله- سبحانه وتعالى- ولا سيما سورة النور حتى تكون في مأمن من الجهل بأي حكم خاص بها، وكيف أهلها لأن تكون أم المستقبل، وكيف أوصى المرأة بزوجها

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج7 ،ص 160–162).

(2) (الجاحظ ، **الحيوان**، ج 1 ، ص 157.).

خيـراً، حتـــى إذا ما أصبحت زوجاً وأماً رسم لها سياسة التربية التي يجب عليها اتباعها، فكان قد دعا إلى رعاية الأم وهي حامل، ثم تناول مرحلة الرضاع مبيناً ما يجب عليها اتباعه مع الرضيع من تحنان واهتمام خاص، وحذّر من العادات السيئة التـــي لا تتـــبعها إلا الأم الخـــرقاء الجاهلـــة التي لا تعي الدور المناط بها في بناء المجـــتمع السليم، ولا تدرك أهميتها في إنشاء الأجيال، بعد أن كان أبو عثمان بسط القول في اختيار الأزواج لتوفير الحياة الهانئة السعيدة الهادئة، وإنجاب النسل السليم الصحيح، عارضاً صوراً من التفكك الأسري الذي كان نتيجة الاختيار الخاطىء من قبل الزوجين، لكنه لم يترك الأسرة عند هذا الحد -في كتاب الحيوان -بل سار معها فـــي تـــربية أبنائها حسب كل مرحلة عمرية، فنجده يعرض في الحيوان أنواعاً من الألعاب التي يحتاجها الأطفال التي من شأنها أن تساعد على النمو الذهني والحركي لديهم.

وهـــو بعـــد ذلك يتحدث عن علامات البلوغ لدى الشباب، وكأنك تقرأ لعالم تـــربوي ثم عالم نفسي يوضح تلك الفترات الحساسة من العمر، ويبين ما يجب على الأهـــل في التعامل مع أبنائهم، فيبين أن الاحتلام وغلظ الصوت وغيرها مما يشير إلـــى أن الـــولد أو الشـــاب قد بلغ، (وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور: منها انفراق طـــرف الأرنبة، ومنها تغير ريح إبطيه، ومنها الأنياب، ومنها غلظ الصوت. ومن الغلمان من لا يحتلم)[1]، هذا بعد أن حث على ضرورة تعليم الأولاد في سن مبكرة؛ لمـــا لـــذلك من أثر على قدرة الفهم وقوة حافظتهم في هذه المرحلة، والطفل عندها يكون أقل انشغالاً من الكبار، فهو يرى أن هناك من الأطفال من لو لقنته وكتبت له أغمـــض المعاني وأطولها ثم أخذته بدرسها وحفظها لحفظها حفظاً عجيباً، ويرى أن التعلـــيم في هذه المرحلة لدى الصبيان قبل اعتراض الاشتغال (حين العناية تامةٌ لم تنقص، والأذهان فارغةٌ لم تنقسم، والإرادة وافرةٌ لم تتشعّب والطّينة ليّنة، فهي أقبل مـــا تكـــون للطـــبائع، والقضيب رطبٌ، فهو أقرب ما يكون من العُلوق، حين هذه الخصال لم يخلق جديدها، ولم يوهن غربها، ولم تتفرق قواها)[2].

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ،ج2، ص 32).

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج1، ص40).

ثم ليجد أهل عصره ومجتمعه في كلامه مقنعاً تاماً؛ يلجأ إلى أقوال الحكماء والأشعار التي يثق بها فيقول: (ومن كلامهم التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، وقال أخر وهو صالح بن عبد القدوس:

وإن من أدّبته في الصّبى كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الذي قد كان في يُبسه

وقال آخر:

يقوم من ميل الغلام المؤدّب ولا ينفع التأديب والرأس أشيب)[1]

ثم رأينا كيف عنى الجاحظ بالمرأة ولم يقتصر اهتمامه بها كونها أماً، بل أنه أولى المرأة اهتماماً عظيماً بالرغم من أن البعض قد قال: بأن أبا عثمان كان ناقماً على المرأة في أول عهده بها، ثم بعد حين غدا من أنصارها، وهو أول كاتب كان قد أولى المرأة اهتماماً ورعايةً فائقةً فقد تحدث عنها في أطوار ومراحل نفسية متعددة، فذكر في حيوانه صنفاً رائعاً من النساء التي تتميز بحدة الذكاء والفطنة السليمة، وضربها مثلاً للمرأة التي تعرف كيف تنقذ نفسها من الوقوع في مواقف محرجة، وتنتشل نفسها ومن حولها من أزمات قد تمر بها، وهذا مثال لامرأة قد تصرفت بحكمة مع لصوص كانوا قد غزوا بيتها لنهبه، فيقول في ذلك (الأصمعي قال: كانت امرأة (تنزل) متنحّية من الحي، وتحب العزلة وكان لها غنم، فطرقها اللّصوص فقالت لأمتها: اخرجي! من هاهنا؟ (قالت: هاهنا) حيّان، والحمارس، وعامر والحارث، ورأس عنز وشادن. وراعيا بهمنا. (فنحن ما أولئك). فلما سمعوا ذلك ظنّوا أن عندها بنيها، وقال الأصمعيُّ مرة: فلما سمعت حسّهم قالت (لأمتها): أخرجي سُلَحَ بنيّ من هاهنا)[2].

ثم نجده يتحدث عن المرأة في حالات ضعفها وحاجتها للرجال،أو من ترى فيه القوة والحماية، فيكون خير سلاح لها تستخدمه في حالات ضعفها (والمرأة إذا

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان ، ج 1،ص40-41).

(2) (الجاحظ ،الحيوان، ج 3 ،ص 122).

ضعفت عن كل شيء فزعت إلى الصراخ والولولة؛ التماساً للرحمة، واستجلاباً للغياث من حماتها وكفاتها، أو من أهل الحسبة في أمرها)[1].

وقد ظهرت مكانة المرأة العظيمة ومنزلتها الرفيعة في فكر أبي عثمان بالرغم من أنه لم يتزوج ولم يكن له أسرة إلا أنه تحدث عن المرأة، (من حيث كونها كائناً جميلاً معشوقة محبوبةً، وتحدث عنها أيضاً طالبةً للعلم بنتا وزوجاً وأماً ومرضعةً، ولفت الأنظار إليها حتى يمكن القول أن الجاحظ أول كاتب عربي مناصر للمرأة على أنها إنسانة ومن سلالة آدم، ولها ما للرجال من حقوق وعليها ما عليهم من واجبات)[2].

ناظراً لها بما منّاها الدين العظيم به من مكانة رفيعة ومنزلة عالي، فقد نظر الإسلام للمرأة نظرة تختلف عن غيره من الملل والشرائع في الجاهلية وغيرها، فالإسلام رفعها عن أن تكون سلعةً تباع في الأسواق، وعن أن تكون كائناً يُنظر لها بشيء من الدونية والقذارة، وأنها سبب كل شر، وذلك لأن الإسلام السمح سبق كل الشرائع وكل المنظمات الداعية إلى مساواة المرأة بالرجل في الحديث عن حرية المرأة وبيان دورها المناط لا الدور الذي ألزمها إياه الرومان مثلاً، وهم من نظر للمرأة على أنها أداةُ شيطانيةُ يستخدمها الشيطان لغواية الرجال وإفساد قلوبهم وفتنتهم، بل أن الإسلام العظيم لم يساوِ بين المرأة والرجل تلك المساواة في مفهومها الحاضر، بل أنه رفع المرأة إلى مرتبة سامية صونا لكرامتها، وحفاظاً على جمالها ورفعتها ورقيها، فقد أطلق الرسول الكريم على النساء (القوارير) في قوله الشريف:(رفقاً بالقوارير)، وأوصى بهن خيراً فما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم.

هذا ولم يقتصر حديث أبي عثمان في كتابه الحيوان على ما يخص الأسرة، وتركيزه على المرأة باختلاف أطوارها وظروفها، كونها الأهم في تأسيس المجتمعات وصلاحها، وكونها العنصر الأول، بل إن الجاحظ ما ترك طبقةً اجتماعيةً ولا فئةً فكريةً ولا ملةً ومعتقداً ولا فرقةً إسلاميةً، إلا ورسم صورتها في

---

(1) (الجاحظ ،**الحيوان** ،ج 6 ، ص379).

(2) (محمد سعد التزاز ،**الفكر التربوي في كتابات الجاحظ** ، ص 215).

كتاب الحيوان وأنطقها وأبرز دورها في سير حياة ذلك المجتمع، فالحيوان-كما قلن مــثّل لــنا مسرح حياة بمفهومه الواسع العميق، فكل فرد من أفراد مجتمع الجاحظ ظهــر على مسرحه أدى دوره، ابتداءً من الخلفاء الذين عاصرهم الجاحظ، وانتهاءً بأقــل الطــبقات الاجتماعية منزلةً أو تمسكاً بفضائل الأخلاق، فقد أرانا أبو عثمان طــبقة الخلفــاء بدءاً من أبي جعفر المنصور وانتهاءً بآخر خليفة عاصره الجاحظ، حــين ألف وأنشأ هذه الموسوعة العظيمة، بقطع النظر عن ذلك الجانب الذي رأينا الخلــيفة عليه، مراعين أهداف أبي عثمان من وراء تلك الومضات التي يعرضها، فبعضــها كان انتقاداً للحال، وبعضها الأخر فخراً وإعجاباً بالمسلك، وآخر عُرض لــيكون مواطن إقتداء وتأسي. وهكذا فقد عرض في حيوانه صورةً لكثير من خلفاء زمانه، وهذه اللمحات التي أرانا وكشف من خلالها عن اهتماماتهم وبعض هواياتهم، ثــم بين سخاءهم لبعض بطاناتهم، ومن خلال تلك الإشارات أيضاً نلمح رضى أبي عــثمان عن سير السياسة في أثناء سيادة الخليفة أو عدم رضاه، حيث يورد بعض اللقطــات والمشاهد؛ فتستدل من خلالها عن سخطه أو رضاه ونقده، فنجده يعرض كــيف كان أبو العباس أمير المؤمنين سخياً مع من يقصده ،وفي الوقت ذاته يكشف الجــاحظ عــن طمع النفوس وشرهها في حب المال والتملك، فيروي: (أبو الحسن قــال: أبــو العباس أمير المؤمنين لأبي دُلامة: سل!: قال كلباً. قال ويلك! ما تصنع بالكلب؟!، قال: قلت أصيد به. قال: فلك كلب. قال: ودابّةً، قال: ودابةً. قال: وغلاماً يــركب الدابــة ويصــيد. قال: وغلاماً، قال: وجاريةً. قال: وجارية. قال: يا أمير المؤمنين! كلب وغلام وجارية ودابة، هؤلاء عيال ولا بد من دار، قال: ودار، قال ولا بــد لهــؤلاء من غلة ضيعة. قال: أقطعناك مائة جريب عامرةً و مائة غامرة. قال: وأي شئ الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات، قال: أنا أقطعك خمسة مائة جريب من فيافــي بني أسد غامرة. قال: قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلها، ثم قال: أبقى لك شــيء؟ قــال: نعم أقبّل يدك. قال: أمّا هذه فدعها. قال: ما منعت عيالي شيئا أهون عليهم فقدا منه؟!)[1].

---

[1] (الجاحظ، الحيوان،ج2 ،ص170-171).

ثـــم يبـــين أبـو عثمان كيف أن خلفاء زمانه ربما كانوا على دراية تامة بما يحــدث في مجتمعهم من تحايل بعض أصحاب الحيل ومن يدعي المعرفة بغير علم، فلــم تشـــغلهم مسؤولياتهم عن ما يجري بين طبقات الشعب، سواءً أقاموا بإصلاح المجــتمع أم تغاضـــوا عـــن ذلك، فأبو جعفر المنصور كان يسمع بتحايل الحوائين وتسـلطهم علـــى الـــناس، فأراد أن يكتشف ذلك بنفسه؛ مما دعاه إلى استدعاء أحد الحوائـــين إلى دار الخلافة، ثم قام باصطناع أفعى من رصاص ليكشف صدق ذلك الحواء من كذبه[1].

ويحدّث عن المنصور أنه كان أكثر الملوك والخلفاء اهتماماً بالفيلة، لما لهذا الحيوان من مكانة عظيمة في نفوس الملوك، فهو من دواعي التباهي والفخر بالنسبة للمـــراكب، حيث حرص المنصور على أن يجمع العدد الأكبر من الفيلة حفاظاً على هيـــبة وشـــرف الخلافة، فالفيل أشرف مراكب الملوك (ولم يجتمع لأحد من ملوك المسلمين من الفيلة ما اجتمع عند أمير المؤمنين المنصور، فقد اجتمع عنده أربعون فيلاً، فيها عشرون فحلاً)[2].

ويبرز أبو عثمان فيما يخص الخلفاء بعض الهوايات، فصور كيف كان أمير المؤمنين المعتصم بالله مغرماً باللعب مع الحيوان، فقد كان يقيم مشاهد رياضيةً منها مصـــارعة ومـــبارزة الحيوانات مع بعضها بعضا، اهتماماً منه بالمناشط الرياضية والتـــرفيهية فـــيقول: (وأما الجاموس والأسد فخبرني محمد بن عبد الملك أن أمير المؤمنـــين المعتصـــم بالله، أبرز للأسد جاموسين فغلباه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولـــدها فغلبته وحمت ولدها منه، وحصّنته، ثم أبرز له جاموسا وحده فواثبه ثم أدبر عنه ...)[3].

ويـــروي الجاحظ عن الأمين قصةً فيلقبه بالمخلوع، مما يدل عن عدم رضاه بسياســـة الأمـــين فـــي أيام حكمه في مجتمعه، فيبين مجالس اللهو التي كان يديرها

---

(1) (انظر الجاحظ ،الحيوان ، ج4، ص 419-420).

(2) (الجاحظ ،الحيوان ،ج7 ، ص182).

(3) (انظر القصةالجاحظ، الحيوان ،ج 7، ص131).

الأمـــين أو يتردد عليها ويحبذ الجلوس مع أهلها، كما يكشف عن التسيب واللامبالاة في عهده، وإن جلساته كانت في دور القمار والخمارات، فكان يترك البلاد في وقت الشـــدائد ليجالس هؤلاء الخلعاء، مفصحاً في نهاية القصة عن أنه كان قد وضع في مكان ربما لا يليق به أو ربما ليس أهلاً له؛ تمهيداً لمجيء المأمون ؛وتبريراً لصنيعه والـــتفاف القـــوم حـــول المأمون رضىً بسياسته (وحدثني (إبراهيم بن هانئ، قال: حدثنـــي) ســـعيد بن جابر، قال: لما كادت الأجناد تحيط ببغداد من جوانبها، قال لنا المخلـــوع: لو خرجنا هكذا إلى قُطربُل على دوابنا، ثم رجعنا من فورنا، كان لنا في ذلـك نشـــرةً. قـــال: فلما صرنا هناك هجمنا على موضع خمّارين، ورأى أناساً قد تطافـــروا من بعض تلك الحانات، فسأل عنهم، فإذا هم أصحاب قمار ونرد (ونبيذ) فبعث في آثارهم (فردّوا) وقال لنا: أشتهي أن أسمع حديثهم، وأرى مجلسهم وقمارهم قـــال: فدخلـــنا إلى موضعهم... قال فبينا هو يضحك منهم إذ رأيت قملة تدب على ذيلـــه، فتغفلته وأخذتها فرآني فقد تناولت شيئاً، فقال (لي): أي شيء تناولت؟ فقلت: دويـــبة دبت على ذيلك من ثياب هؤلاء، قال وأي دابة هي؟ قلت قملة، قال: أرينيها؛ فقـــد والله سمعت بها! قال فتعجبت يومئذ من المقادير كيف ترفع رجالاً في السماء، وتحط آخرين في الثرى)[1].

أما ما يعرضه أبو عثمان في حيوانه عن أمير المؤمنين المأمون فقد عبر عن مـــدى الـــتطور والـــنمو والازدهار الثقافي والعلمي، الذي تميز به عصر المأمون وكشـــف عـــن مدى ثقافته كقائد دولة وراعي سياسة، حيث وصف الأدباء والكتاب عصـــر المأمون بأنه كان العصر الذهبي للأمة العربية والإسلامية، وذلك بما أفسح في مجال حرية الفكر،وقد شارك المأمون نفسه في الندوات وحلقات العلماء التي كان مقامها الأول دار الخلافة، فقد تميزت مجالسه بأنها مجالس علم وكلام وحجاج ،فقد جـــالس الفقهـــاء والأطـــباء واســـتمع لأصحاب الفرق، والنِحل بل وشارك في تلك الجلســـات الثقافـــية وأعطـــى رأيه فيها. والجاحظ يعبر عن إعجابه الشديد بسياسة المأمـــون ولا عجـــب فـــي ذلك، فالمأمون هو من أفسح باب القول للمعتزلة، والتي

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج 5، ص 381 –382).

تنسب الجاحظية إليها فهي إحدى فرقيها، بل أن المأمون جعل الاعتزال مذهب الدولة الرسمي أيام حكمه، وعلى الرغم من ذلك فقد تميز المأمون بثقافة واسعة مكنته من نقاش الأطباء والاستماع إليهم، وأن يحاجج المترجمين واللغويين، ولا ننسى أنه كان لتشجيعه الدور الأعظم في سير الحياة الثقافية والعلمية في عصره ووصولها إلى الحد الذي ما زلنا ننهل منه علماً وثقافةوشرفاً وأدباً، وقد أخبر الجاحظ في كتابه كيف أن أمير المؤمنين المأمون كان يجري تجارب بنفسه على بعض المواد ليعرف قابليتها للتفاعلات والتغيرات التي تتعرض لها، فيجري تجارب على مادة (الخشب) ليعرف مدى قابليتها على الاحتراق، وهي من ضمن تجارب كثيرة أجراها في مجال العلم والطب للتثبت من الحقائق العلمية، وجادل النصارى في هذا الأمر وناقش فيه رهبانهم، الذين ادعوا أن الخشب الذي صلب عليه المسيح عليه السلام لا يحترق ،فقد فنّد المأمون مزاعمهم وبين بطلانها، (ونُبِّيت عن(أمير المؤمنين) المأمون أنه قال: لو أُخذ الطحلب فجفف في الظل؛ ثم أُسقط في النيران لم يحترق. ولولا ما عاينوا من شأن الطّلق والعود الذي يُجاء به من كرمان لاشتد إنكارهم. وزعم ابن أبي حرب أن قسّاً راهباً على أن الصليب الذي في عنقه من خشب (أنه) لا يحترق؛ لأنه من العود الذي كان صُلب عليه المسيح، وأنه كان يفتن بذلك ناساً من أهل النظر، حتى فطن له بعض المتكلمين، فأتاهم بقطعة عود يكون بكرمان. وكان أبقى على النار من صليبه)[1].

ويعرض الجاحظ شطراً من محاورات ومجادلات المأمون مع الأطباء وعدم قناعته ببعض ما يصفونه من علاجات، فقد راح يسأل أهل التجربة وأهل العلم، وذلك لعدم قناعته وبُعد تجربته الشخصية بما ذهب إليه بعض هؤلاء الأطباء ،وما ذاك إلا دليل على مدى ثقافة الرجل بسائر علوم عصره وما يدور في مجتمعه، فقد قال المأمون: (قال لي بختيشوع بن جبريل، وابن سلمويه، وابن ماسويه (إن الذباب إذا دُلك به موضع لسعة الزنبور سكن)، فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابةً فما سكن في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج. فلم

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج 5، ص310).

يبقَ في يدي منهم إلا أن يقولوا: كان هذا الزنبور حتفاً قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك)[1].

هذا وقد بين أبو عثمان وفي حيوانه أن الخلفاء لا بد أن يواجهوا صعوبة وجهداً لأداء أعمالهم وإتمام سياستهم، مما يورثهم الكد والنصب، فضلاً عن المسؤولية العظيمة أمام الله –سبحانه– فالقول فيهم (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وقد بين أبو عثمان عظم هذه المهمة ومشاقها بقوله: (وليس في الأرض عملاً أكدّ لأهله من سياسة العوامّ. وقد قال الهذلي يصف صعوبة السياسة:

وإن سياسة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويل

وقال آخر في شبيه بهذا المعنى

ودون الندى في كل قلبٍ ثنيّةٌ لها مصعدٌ حزن ومنحدر سهل[2]

وربما أن هذا الأمر يدفع بالملك والحاكم أو الخليفة إلى أن يتهرب في بعض الأحيان من تلك المشاق، ليخلد قليلاً إلى عالم اللهو والترفيه عن النفس، لا سيما وإن كان ذلك الحاكم أو الخليفة ممن لم يتعودوا جسام الأمور والمهام الصعبة ،وكان قد نشأ نشأةً مرفهةً، ولم يخطر بباله يوماً أن يؤهل إلى قيادة أمة، فتأتيه الخلافة فجأةً دون عداد مسبق، كما كان الحال عند الأمين وغيره في الأزمنة المتعددة؛ لذا (فاحتاج حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامّة، أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن، ويشدّوا من متنهم بالشراب، الذي إذا وقع في الجوف حرّك الدم، وإذا حرك الدم حرّك طباع السرور، ثم لا يزال زائداً في ميكال الدم، زائداً في الحركة المولّدة للسرور، هذه صفة الملوك. وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله، وعلمه من علمه) [3].

لذلك نجدهم يتخذون السمّار، وخاصة من القصاص والخصي والشعراء والمحدثين والمضحكين، ورأينا كيف أن (السفاح) كان قد أعطى (أبا دلامة الشاعر)

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج 5، ص364).

(2) (الجاحظ ،الحيوان، ج2 ،ص94).

(3) (الجاحظ،الحيوان،ج1 ،ص287-288).

مائتـــي جـــريب منحةً له؛ وذلك لمكانة الشعراء عند الخلفاء. فأوضح أبو عثمان أن الرشيد كان أكثر خلفاء عصره حظوةً بالشعر دلالة على عظمته في نفوس الشعراء والــرعية، (وقد كان عبد العزيز بن مروان أحظى في الشعر من كثير من خلفائهم. ولــم يكــن أحد من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أحظى بالشعر من الرشيد.فقد كان يــزيد بن مَزيد وعمه، ممّن أحظاه الشعر. وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً)[1].

ثــم نجــده يذكر أن (أبا نُخيلة) كان قد صنع أُرجوزة في (المنصور) وذلك لإغــرائه فــي تلك الأرجوزة أن يخلع (عيسى بن موسى) ويعقد العهد لابنه (محمد المهدي) حيث أن المنصور كان ذواقاً بالشعر عارفاً بنظمه.

هــذا وقــد أحاط الخلفاء كما نعلم أنفسهم بالجواري والمغنين، فقد كان لكل خلــيفة جــواريه، وقــد كانت مجالس اللهو في دور الخلافة تتم بحضور الشعراء والمغنين، والملهين، وضرّاب العود، وأصحاب الزمر، وقد كان بلاط الخلفاء يزخر بالمتــندرين والمضــحكين، فقد روى الجاحظ تندر أبي المبارك الخصي وذلك جلباً للضــحك والســرور (وقد كانوا يستمعون منه أحاديث عن خصيان الصابئة ويسمر عــندهم فيروي طرفاً من الأخبار ونوادر الكتب)[2]، لذا قد انتشرت في ذلك العصر أصــناف الكــتب الداعية إلى اللهو والظرف والتندر والتملح وكتب الخُلاّع والفرار وكتب الملاهي والفكاهة[3].

وربمــا أســرف بعضـــهم في هذا اللهو، الذي أدى بهم إلى حد المجون كما لاحظنا ذلك عند الأمين، حيث كان وفي أكثر ظروف البلاد قسوة يميل إلى مجالس الخمر والنرد ومجالس السفهاء من الناس، بينما رأينا كيف أظهر أبو عثمان صورة الخليفة المأمون وهو يتزعم مجالس العلم ويدعو العلماء إلى قصره، فثمة بون شاسع بين المجلسين، اللّذين صورهما أبو عثمان وما ذلك إلا حرصاً منه لإظهار المجتمع على حقيقته دون زيفٍ، تطبيقاً للواقعية التي اتخذها له منهجاً وطريق تأليف، فقد بين

---

(1) (الجاحظ ، **الحيوان**، ج 4، ص382-383).

(2) (الجاحظ ،**الحيوان** ، ج1، ص125).

(3) (انظر الجاحظ، **الحيوان** ، ج1،ص125.).

أن المأمون كان محباً للعلم مقدراً للعلماء، والحكماء مثمناً دورهم في بناء المجتمع، مــدركاً حاجــة المجتمع إليهم، فكان دائم الترداد لأقوالهم في مجالسهم من مثل قول ســهل بــن هارون (قال بعض العلماء اقصدوا أصناف العلم إلى ما هو أشهى إلى نفســك وأخف إلى قلبك فإن نفاذك فيه على حساب شهوتك له)[1]، ولا ريب في ذلك فقد كان المأمون شغوفاً بالحكمة متعلقاً بها تجده صاحب رأي في الكثير من المسائل العلمية.

أمــا صورة الأمراء وهم من يلي الخلفاء قدراً ومكانة اجتماعية، فقد حرص الجــاحظ علــى أن يُظهر الوجه الحسن لمجتمعه كحرصه على إظهار وجه القباحة فيه، فقد صور لنا منهم من كان جاداً عالماً أديباً، وفي المقابل رسم صورة من كان لاهــياً، معاقراً للخمر مدمناً عليها، (ويصور لنا الجاحظ اسحاق بن سليمان الهاشمي ولعــاً بالحياة الأدبية والعلمية حتى أنه حين دخل عليه بعد عزله عن إحدى الولايات التــي كــان يليها إذ ذاك وحواليه الأصفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر)[2].

وقــد أعجب أبو عثمان بهذه الصورة البهية للأمير، التي تشرح الصدر وتسر القلــب رؤيتها، فقد أراد الجاحظ من وراء عرضه وتصويره أولئك الأشخاص وتلك الشخصــيات أن يعرض نماذج صالحةً للاقتداء في مجتمع عصره، فهو يقول (فما رأيــته قــط أفخــم ولا أنبل ولا أهيب، ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لأنه جمع مع المهابــة المحبة ومع الفخامة الحلاوة، ومع الود الحكمة)[3]. واصفاً ذلك الأمير بأنه معدن من معادن العلم.

ولــم تكن تلك الصورة فريدة وحيدة من أمراء مجتمع الجاحظ، فقد أورد في حــيوانه أن دار جعفر بن سليمان الهاشــي غدت أشبه بالمنتدى الأدبي، تُناقش فيها أهــم المسائل العلمية والأدبية ويناظر حولها، وهو نفسه كان ولعاً بالأدب والعلم وقد

---

(1) (الجاحظ ، الحيوان، ج5، ص310).

(2) (محمد عويص، **المجتمع العباسي في كتابات الجاحظ** ، ص 103 .).

(3) (الجاحظ، الحيوان، ج1 ،ص61).

أورد الجاحظ مناظرة دارت بين الأصمعي والمفضل الضبي في بيت ذلك الأمير وكانت حول تحقيق بيت من شعر أوس بن حجر[1].

ثم يذكر دار أيوب بن جعفر فقد كانت من أهم الدور الحافلة بمجالس العلماء، والأدباء فقد كانت تعقد فيها المناظرات بين المتكلمين، وكذلك حال داوود بن جعفر وغيره من جلة الأمراء والخطباء في ذلك المجتمع.

وعلى النقيض من ذلك يعرض أبو عثمان صوراً لأمراء كانوا قد ساروا في دروب اللهو والمجون، فمنهم من كان مدمنا على الخمر، وبين أن الكثير منهم لم يسرِ على جادة الطريق، فقد كانوا شديدي الميل إلى لون الحياة المترفة اللاهية، ومن ذلك أن سليمان بن داوود الهاشمي كان محباً لحياة الصيد، والقنص حتى أنه اتخذ لنفسه كلباً وقد رباه على الصيد فأحسن تربيته منذ الصغر، بحيث أخضعه لتدريبات في مجال الصيد، فبات يصحبه في رحلاته[2]، أما من كان منهم مولعاً بشرب الخمر، والتردد على مجالسه، فقد صور لنا أبو عثمان محمد بن الجهم البرمكي، وهو الذي ولي للمأمون عدة ولايات، فكان مكثراً للشرب إلى درجة عدم التأثر به والإدمان عليه[3].

أما القُوّاد فعرضت لنا كتابات الجاحظ- ولا سيما الحيوان- صوراً كصورة أبي مسلم الخرساني وهومن تبنى الدعوة لبني العباس، حيث تميز هذا القائد بمكانة عالية وسطوة وجبروت وسلطان واسع، ويعرف عنه أنه كان حازماً قاسياً مع كل من حاول معارضة بني العباس، أو يحاول الوقوف في طريقهم، وقد وضعه أبو عثمان مع الجلادين الذين يضربون أعناق الرعية بين يدي السلطان إرضاءً له فيقول (فلا ينمو له شيء وإما لا يجعل من نسلهم عقباً مذكوراً، ولا ذكراً نبيهاً وذرية طيبة)[4].

---

(1) انظر الجاحظ ،**الحيوان** ج4، ص25-26

(2) (انظر **الحيوان**، ج2، ص30-32).

(3) (انظر **الحيوان** ،ج2،ص226).

(4) (الجاحظ، **الحيوان** ،ج4، ص430).

ومـــا عــرْضُ أبــي عثمان لمثل هذه الصور إلا ليبين ما كان يقع على أفراد الرعية من ظلم اجتماعي من قبل الحكام.

أما الوزراء فقد كشف الجاحظ في عصره أن مكانة الوزراء كانت قلقة غير مستقرة فلا تتسم بالدوام إلا لفترات وجيزة، حيث كان الوزراء معرضين للإقالة بل وإلى القتل ومصادرة جميع أموالهم وممتلكاتهم في حال تبدل الخليفة وتغيره، فيتغير كـل مـن كـان حـوله من بطانة وحاشية، بل إنهم معرضون للزوال والاستبدال والضـرب والإهانة في كثير من الأحيان، كما حدث مع صاحبنا -الجاحظ- وقصته الشـهيرة (ثاني اثنين إذ هما في التنور). وربما كان هذا حال السياسة في كل حين فالوضـع لا يقتصر على دولة بني العباس فلكل زمان- كما ذهبوا- دولة ورجال، فالصـور التي عرضها الجاحظ في الحيوان متكررة مع تكرر الظروف ومتبدلة مع تـبدل الأوضاع السياسية في كل حين، (ومن المؤكد أن منزلة الوزراء عند الخلفاء في العصر الأول من دولة بني العباس لم تكن واضحة حتى أننا نراهم شديدي القلق على مصيرهم غير آمنين على أنفسهم من تقلب أحوال الخلفاء عليهم)[1].

وممـا دعا الجاحظ لأن يعرض صورة أحد هؤلاء الوزراء في الحيوان من خـلال حديثه عن الباز والديك، فقد عوّد الجاحظ قارئه على أن يمرر هدفه ومراده إن هـو وجـد تشابهاً في عالم الحيوان يناسب عالم الإنسان في مجتمعه، فيرسم لنا صـورة (أبـي أيوب المورياني) أحد وزراء المنصور حينما كان جالساً في مجلسه ،فأتاه رسول الخليفة فقد أظهر قلقاً واضحاً،وخوفاً شديداً على مكانته ، حـيث كان فـزعاً مـن بطش الخليفة فلاحظ الجلوس هذا التغير الذي بدا واضحاً على قسمات وجهـه، إذ سـار يتـرقب ما ينتظره من سوء المصير ثم عاد من عند الخليفة ولم يصـرح بمـا جـرى بينهما حين سأله القوم، فما كان منه إلا أن ضرب لهم مثلاً بأسطورة وهي معايرة الباز للديك في عدم الوفاء، ضارباً ذلك مثلاً لنفسه مع خليفته بالرغم من طول وقت الخدمة، ووفائه للمنصور، لكنه كغيره من وزراء بني العباس لا يأمن غدر الأيام وبطش الخليفة[2].

---

(1) (محمد عويص،**المجتمع العباسي في كتابات الجاحظ** ،ص112 .).

(2) (انظر **الحيوان** ج2 ،ص361.).

هـذا وقـد وقع ما كان يتوقعه أبو أيوب إذ كشف الخليفة أمراً أغضبته من وزيـره، فمـا كان منه إلا أن صادر أمواله، وهذه صورة من صور متعددة لحال الوزير في ذلك العهد.

وقد عاش الوزراء يتمتعون بما تمتع به الخلفاء من ترف وكثرة أموال، حيث كان الكثير منهم يمتلك العديد من الاقطاعات والثروات الطائلة التي ربما لا يتكشف أمـرها ومـداها إلا حـين يُعزل الوزير عن منصبه، فيتم التفتيش لمصادرة جميع ممـتلكاته، (وقد كان في قطيعة الربيع خصيٌّ أثيرٌ عند مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكـان يثق به في ملك يمينه، وفي حرمه من بنت وزوجة وأخت، ولا يخص شيئاً دون شيء)[1].

ولشدة ثراء الوزراء واهتمامهم بالشعر كان الشعراء أيضاً يفدون إليهم، شأنهم فـي ذلك شأن الخلفاء العباسيين، حيث تجمع من الشعراء على باب الفضل بن يحي البرمكي، فكان ذلك مبعثاً على الدهشة والغرابة من سكان المدينة، فأخذ أحد السكان يعبّر ببيت من الشعر عما كان يراه من تجمع الشعراء بباب الوزير بقوله:

(مـا لقيـنا من جود فضل ابن يحي   تـرك الـناس كلهـم شـعراء)[2]

وقـد كان هذا مسلك الكثير من الوزراء ،إذ وفد الشعراء على (محمد بن عبد الملك الزيات) مادحين إياه طمعاً فيما كان يصرف لهم من منح وأعطيات، وبين ذلك الجاحظ بقوله: (وقال الطائي يمدح محمد بن عبد الملك...)[3].

ثـم إن دور الفتح بن خاقان في أن لوّن خلافة المتوكل بالله باللون الأدبي لا يخفـى علـى قارئ؛ حتى عُد من بين الثلاثة الذين هم كانوا الأكثر حُباً للكتاب، فقد كـان الفـتح أديباً وذواقاً للأدب، وبيّن ذلك أبو عثمان في الكثير من كتاباته. وربما عـرض فـي الحيوان بعض اهتمامات الوزراء،حيث كان يعقوب بن داوود وزير

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج1،ص172).

(2) (الجاحظ ، الحيوان ،ج3،ص117).

(3) (الجاحظ،الحيوان ،ج1 ،ص67.).

المهدي مولعاً بتربية الحمام[1]. ثم أظهر تعلق الوزراء بالجواري شأنهم في ذلك شأن خلفائهم وكبراء القوم كتعلق (عُبيد الله بن يحي) _أحد وزراء المتوكل _ (وقال عبيد الله بن يحيى :كان من أصحابنا بمرو جماعة، فجلسنا ذات يوم نتتمنى، فتمنيت أن أصير إلى العراق من أيامي سالماً، وأن أقدم فأتزوج سماع، والي كسكر.
قال: فقدمت سالماً، وتزوجت سماع، ووليت كسكر)[2].

والذي يجب الاعتراف به هنا وتسجيله لأبي عثمان أنه لم يجعل كتاباته قصراً على الطبقات العليا في عصره، كما أنه لم يخص طبقة دون سواها ولم يجد في نفسه تعالياً على أن ينزل إلى أسفل الطبقات في مجتمعه، وأن يصور أقل المشاهد وأبسطها أهميةً، هنا تكمن العظمة والحذق والمهارة ودقة الملاحظة، وتتمثل قدرة الأديب والفنان الذي لم يعش لنفسه ولا لطبقات خاصة يمتدحها ويصور فضائلها؛ ليصور للقارئ مجتمعاً فاضلاً خالياً من المثالب والعيوب، لا بل أن أبا عثمان لم يكن هذا مسلكه لأن ذلك الأمر لم يكن طبعه ومراده فيما كتب وألف، فهو يصرح أكثر من مرة في حيوانه أن كتابه هذا موجه لكافة طبقات المجتمع وطوائفه،وما ساد فيه من فقر وعامة وخاصة وعادات وتقاليد وقيم، فهو كما وصفه (على أنه كتاب معناه أنبه من اسمه)[3]، بل أنه لم يقصره على المجتمع العربي فحسب فهو صادق الوصف، فكان مجتمعه يتكون من مزيج عربي أعجمي من سائر الأجناس التي قُدر لدولة بني العباس حكمها ،حيث كان موقناً أنه يصور مجتمعاً يكاد يكون فيه العنصر العربي في بعض الأحيان أقل مكانةً وأهميةً من غيره من العناصر فيقول في ذلك (وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم)[4].

لقد أدرك أبو عثمان حقيقة مجتمعه الذي يتحدث عنه، وعما تسرب إليه من فساد العوائد وسيء التقاليد، وما انتشر فيه على وجه النقيض من حسن ثقافة وخير علم ونشر معارف، فعمد أبو عثمان كما هو واضح في كتابه إلى الحياة العلمية

---

(1) (انظر الحيوان،ج3، ص226.).

(2) (الجاحظ،الحيوان ،ج5، ص196).

(3) (الجاحظ ، الحيوان، ج1،ص10).

(4) (الجاحظ ، الحيوان، ج1،ص11.).

والثقافية التي كانت في ذروتها في عصره، وراح يبسط القول في الحياة الاجتماعية ليُـري قارئه ذلك المجتمع وما فيه من خير وشر، وما فيه من رقي وسمو وما فيه من دنو ورذائل أخلاق.

فالجاحظ لم يترك طائفةً إلا وتناولها بالذكر، وخصها بالتصوير بمنتهى الواقعية، مما جعل كتابه ينطق بمجتمع عصره ويمثله خير تمثيل دون تستّر أو تخفٍ (نرى فيه الحقائق عارية دون أن يُسدل عليها أي ستار أو أي حجاب)[1]،[3]، لذا نجده يدخل في أعماق مجتمعه فينقل ما قد يخفى على الكثيرين، مصوراً حياة الطبقات المسحوقة في مجتمعه التي ربما كان سوء حالها المادي وإهمالها الاجتماعي أدى بها إلى أن تسلك سلوكات اجتماعية خاطئة، وكان أبو عثمان قد انتقدها بل ونقم عليها أشد نقمةٍ، وحاول جاداً أن يصلحها وذلك بإصلاح أهلها،و ربما عبر الجاحظ عن الطبقات الدنيا في مجتمعه بكثير من الألفاظ، إلا أن اللفظ الذي كان أبو عثمان أكثر استخداماً له هو لفظ العامة أو السوقة، فراح ينتقد معتقداتهم وإقبالهم على التصديق دون حالة الشك في مجال العلم التي كان هو يتخذها أداة بحث ومنهج، وراح ينتقد الكثير من عاداتهم وسلوكاتهم، ونجده يؤرقه ويسيئه ما انتشر في مجتمعه من ظواهر وحركات ربما لم تكن في أصل ذلك المجتمع، فالجاحظ كان بارعاً ناجحاً كل النجاح في عرض شرائح اجتماعية كان قد حذر منها أبناء مجتمعه، وقد سلكت تلك الفئات سلوكات شاذةً خارقةً للمروءة لم يأت بها العرف والشرع، وتجده في الوقت ذاته يعرض شرائح غايةً في الورع والوقار والتقوى والالتزام بمكارم الأخلاق، في حين أظهر الجاحظ الذكاء الحاد والفطنة والفراسة لدى بعض أفراد المجتمع لا يميز في كتابه بين هذه الصورة أو تلك، ناقلاً أميناً حريصاً على أن يجعل قارئه يعيش المجتمع بكل ما فيه حتى لو كان ذلك السلوك سلوكاً مشيناً صادراً من علية القوم، فما كان من الجاحظ أن يجامل أو يُداجي في مجال الأدب الصادق الواعي الملتزم بنقل الحقائق.

---

(1) (محمد عويص، **المجتمع العباسي في كتابات الجاحظ**، ص55).

(3) محمد عويص، **المجتمع العباسي في كتابات الجاحظ**، ص55

ومـــن الصـــور القلقة السلبية التي عرضها الجاحظ وصورها في الحيوان، وشـــاعت فـــي مجـــتمعه، فانـــتابه اليأس، وكان أسفاً لشيوعها وذلك ما شاهده من ممارسات للفئات السفلى في مجتمعه، تلك الظاهرة المزعجة التي شاعت على امتداد واسع في ذلك المجتمع، تلك هي ظاهرة الخناقين، وما كان يمارس أو يمارسونه من قطـــع للطـــريق، وســـلب لمقتنيات المارة وسرقة متاعهم ، فقد أطال أبو عثمان في وصـــف تلـــك الســـلوكات التـــي غدت ظاهرة متشعبة الأساليب على امتداد الدولة العباســـية،حيث كانت تلك الفئة التي مثلت سفلة الشعب تسبب التوتر والقلق والفزع لفـــئات كثيرة ناشرةً الرعب بين أفراد المجتمع بتلك الممارسات المرعبة التي أرقت روح المجتمع.

ويبدو أن فئة الخناقين كان روادها الطبقة الدنيا في مجتمعه، ويوضح الجاحظ آلية عمل هؤلاء المجرمين وتلك العصابات، فيبين طرق سفرهم وكيفية تحايلهم على ضـــحاياهم وتعاونهم على تنفيذ شرورهم، ثم يصف الأدوات التي استخدمها هؤلاء مبيناً الأساليب التي لجؤوا إليها، والمسالك التي سلكوها وكيف كانوا يوزعون بينهم الأدوار، حـــيث هـــم (فـــلا يكونون في البلاد إلا معاً، ولا يسافرون إلا معاً ،فربما اســـتولوا علـــى دربٍ بأسره، وعلى طريق بأسره، ولا ينزلون إلا في طريق نافذ، ويكون خلف دورهم: إما صحاري وإما بساتين، وإما مزابل أو أشباه ذلك)[1].

ويصف أبو عثمان تآمر هؤلاء وتعارفهم على إشارات تدل على قرب سقوط الضـــحية بأيديهم! ثم تصدر منهم ممارساتٌ متفق عليها محاولين تغطية ذلك الفعل المشـــين عن آذان وعيون الناس. ومما يأسف عليه أبو عثمان أنه كان من الخناقين معلمون يعلمون الصبيان الإجرام، فيشاركون في تلك الجرائم، بل ويدرسون أبنائهم ويعلمـــونهم علـــى مـــثل تلك الجرائم، فكأنهم كانوا بمثابة مدرسة تخرّج الشواذ في سلوكهم، وتعلمهم ممارسة العنف والإجرام ضد أفراد المجتمع (وفي كل دار كلابٌ مـــربوطة، ودفوف وطبول. ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلّم كُتّاب منهم، فإذا خـــنق أهل دارٍ منهم إنساناً ضرب النساء بالدفوف، وضرب بعضهم الكلاب فسمع

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج2،ص264- 265 .).

المعلِّم فصاح بالصبيان: انبَحوا ! وأجابهم أهل كل دارٍ بالدفوف والصُّنوج كما يفعل نساء أهل القرى وهيّجوا الكلاب. فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد)[1].

فمن المشين أن يُتخذ من مربيي الأجيال-الذين من أولى مهامهم خدمة المجتمع وإعماره- أداة لبث وتعليم الأجيال الفساد والإجرام وسوء الخلق.

ولم يكتف الجاحظ بحديثه النظري عن بشاعة هؤلاء الذين كانوا يمثلون الإجرام في مجتمعه، بل أنه ذهب إلى وصف أساليبهم وتفننهم بل وتمتعهم في طرقهم بقتل ضحاياهم والتقاطها، ونقلاً عما نظمه (حماد الراوية) في ذلك ذاكراً القبائل التي كان هؤلاء ينحدرون منها ونحلهم محذراً منهم المسافرين.

ويطيل الجاحظ مفصلاً في مواضعهم وأماكنهم التي كانوا يتواجدون فيها ذاكراً أسمائهم وألقابهم، محذراً من شرورهم[2].

وبعد أن تحدث أبو عثمان عن تلك الظاهرة، نجده يتنبه إلى فئة في مجتمعه كادت تشكل ظاهرة وهي ظاهرة الخصيان، التي نسب وجودها إلى الروم فهم أول من قام بهذا الفعل الذي يأباه الخلق والدين، ويتعاطف أبو عثمان تعاطفاً شديداً تجاه هذه الفئة التي وقعت تحت ذلك الظلم والجور الاجتماعي، مبيناً الحالة النفسية لهؤلاء الرجال كيف كانت قبل وبعد الخصاء، حيث كانوا يتمتعون بكامل صحتهم وخصائص الرجولة لديهم، فيصف ما آل إليه حالهم بعد أن وقع عليهم ذلك العمل الغاشم من تسلط عليهم ليفقدهم بذلك الرجولة وبعض خصائصهم البشرية، وهذا بالطبع أدى لأن يظهروا من سلوكات شاذة غير مألوفة ولا مقبولة اجتماعياً، وذلك انتقاماً منهم لما يختلج نفوسهم، وتعبيراً عن مأساتهم الدائمة، فقد وقعوا تحت قهر لا تطيقه النفس البشرية، وتأباه المروءة والكرامة، فكيف نتوقع أن يكون سلوك إنسان كانت قد صودرت وسلبت منه سماته الإنسانية فلا بد من أن يحقد على مجتمعه فيظهر منه العبث الخُلقي. ويرى الجاحظ أن هذه الفئة شديدة الكره للروم لأنهم هم الأصل والسبب المباشر لمثل ذلك العمل، وقد تلوث المجتمع العربي فنُقل له من ضمن ما نُقل بعض هذه العادات والسلوكات الشاذة، وقد أوكل لهذه الفئة من الرجال

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج2 ،ص265).

(2) انظر، **الحيوان** ، ج2 ،ص266 ، ج6 ،ص388.

وذلــك بعـــد سلبهم رجولتهم حماية النساء، وحراستهن وطهي الطعام وصنع الخبز والاهتمام بشؤون الدار (وكانت قيمتهم المادية تبعاً لتكوينهم المهني)[1].

ثم يعرض أبو عثمان شرائح من تلك الطبقات المعدمة المسحوقة في مجتمعه، التـــي يعــزوها في الدرجة الأولى إلى الفقر وضنك العيش وصعوبة الحياة، حيث أوقعهـــا الظلـــم الاجتماعي وسوء توزيع أرزاق الدولة وارداتها، مما جعل بعض الأفراد في ذلك المجتمع – وربما كانت هذه السمة متكررة في الكثير من المجتمعات – يعمـــدون إلى سلوكات اجتماعية تخالف العرف الاجتماعي والشرائع السماوية. ونحـــن لا نعفـــي تلـــك الشـــرائح الاجتماعـــية كما لم يعفها أبو عثمان من تبعات المســـؤولية، فسوء الحال يجب أن يواجه بالشجاعة والعمل لتحسينه، فعلاجه أبداً لم يكـــن المســـالك الخاطـــئة ولـــم يكن مبرراً لتلك التصرفات، حتى أن بعض هؤلاء اللصـــوص فـــي عصر الجاحظ بات يعد السرقة مهنة يمتهنها، فلم تعد السرقة أمراً معيـــباً محـــرماً في رأيه، بل صار لها أصولها كأية مهنة أخرى، كما أوضح ذلك الجـــاحظ في وصية عثمان الخياط التي تردد ذكرها في كثير من مواضع الحيوان، فمـــن خلال ما أورده الجاحظ وفي وصايا عثمان هذا لغلمانه الذين يبدو أنهم كانوا يعملون تحت إمرته ، يوصيهم بأمور تشعرك بالغرابة والعجب، لكنها في الوقت ذاته تشير إلى ما عند هذه الجماعة من مقاييس في الخلق والسلوك العام، حيث كانت لهم ممارســـات شـــبيهةً بمفاهيم ومقاييس الفروسية، فمن مبادئهم أنهم يحرمون الكذب بينهم وهتك الستر وكشف العورات ولا يعتدون على جارهم أبداً، إلا أنهم كانوا في الـــوقت نفســـه يسرقون أموال الناس، وربما عدّوا ذلك من صفات الفتوة، يقول أبو عثمان في وصف الشطّار منهم: (وإن الشطّار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له لا يكـــون الغـــلام فتى أبداً حتى يصادفه فتى وإلا نكسٌ والنكس عندهم هو الذي لم يؤدبه فتى ولم يخرجه)[2].

---

[1] (شارل بلا – **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء** ،ص317، 1985 ، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،دمشق .).

[2] (الجاحظ ،**الحيوان**، ج2،ص366).

ثـم يـورد من وصايا عثمان الخياط بقوله (إياكم إياكم وحب النساء وسماع ضرب العود، وشرب الزبيب المطبوخ، وعليكم باتخاذ الغلمان؛ فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك، وأعون لك من ابن عمك ،وعليكم بنبيذ التمر، وضرب الطنبور، وما كان عليه السلف...) [1].

والملاحـظ من بنود تلك الوصية أن اللعب في الحمام مثلاً كان من شروط الفـتوة لفتـرة زمنـية معينة من حياة ذلك المجتمع، وكذلك سائر الحيوانات الوارد ذكـرها في وصية عثمان لغلمانه، ويبدو أن اللعب في الحمام لم يكن عادة مستحبة ولعلـه كان يقترن بالطبقات الدنيا من المجتمع وأراذل الناس، وذلك لأنه ربما شغل اللاهـين عـن أمـور مهمـة، ولما له من سلبيات تعود على الفرد وعلى المجتمع بالضـرر الكبيـر(وهـذه العادة في الوقت نفسه تُنسب إلى قوم لوط الذين اشتهروا بممارسة عادات بذيئة أخرى)[2].

ثـم يـورد أبو عثمان روايةً عن عثمان بن عفان- رضي الله عنه- في ذم اللعـب بالحمـام وذلك (وحدث أسامة بن زيد قال:سمعت بعض أشياخنا منذ زمان، يحدث أن عثمان بن عفان -رضي الله عنه -أراد أن يذبح الحمام ثم قال: (لولا أنها أمة من الأمم لأمرت بذبحهن، ولكن قصوهن)، (فبدل بقوله: قصّوهن) على أنها إنما تـذبح لـرغبة من يتخذهن، ويلعب بهن من الفتيان والأحداث والشطار، وأصحاب المـراهنة والقمار، والذين يتشرفون على حرم الناس والجيران، ويختدعون بفراخ الحمـام أولاد الناس، ويرمون بالجلاهق وما أكثر من قد فقأ عيناً وهشم أنفاً، وهتم فمـاً، وهـو لا يـدري ما يصنع، ولا يقف على مقدار ما ركب به القوم. ثم تذهب جنايته هدراً؛ ويعود ذلك الدم مطولاً بلا عقل ولا قود ولا قصاص ولا أرش؛ إذ كان صاحبه مجهولا...)[3].

وكأن الجاحظ يعيش عصرنا ومجتمعنا الذي يستهين بالكثير في مجال حقوق الـناس، وربمـا أرواحهم فتذهب سُدى بقليل من المسامحات والعفو الذي هو أكثر

---

(1) (الجاحظ ،الحيوان، ج2، ص366 .).

(2) (وديعة طه، الجاحظ والحاضرة العباسية ،ص74).

(3) (الجاحظ ،الحيوان،ج3 ،ص190-191).

أنـــواع الغـدو شــراً في هذا المجال؛ مما يبعث في الكثير من المستهترين في تلك المجـــتمعات علـــى الـتمادي للاســـتمرار بمثل هذه الجرائم والعبث بحقوق الناس وأرواحهـــم، مستندين إلى الكثير من العادات الاجتماعية الخاطئة التي ربما تُعد من شيم المسامحة والكرم وطيب الخصال، إلا أن هذا لا يعمم على سائر الحمام أو من يـــتعامل معـــه فعلى العكس من ذلك، حيث راجت تجارة الحمام في عصر الجاحظ حتى غدت تجارته مشهورةً، وقد أفاض الجاحظ القول معبراً عما كان لهذه التجارة مـــن أثر عظيم في حياة الناس، لاسيما وإن كان الحمام من حمام (واسط) إذ كانت تدفـــع لقـــاء حـــيازته المبالغ الباهظة إضافةً إلى فائدة الحمام على مر العصور في المراســـلات، هـــذا وقد أفاد المجتمع العباسي من الحمام في مراسلات الخلفاء حتى يصبح -وبعد حين - كاتب خاص للحمام.

ومن صور التحايل في مجتمع الجاحظ التي ربما قصد الجاحظ عرضها لبيان مدى الظلم الذي يقع على أفراد المجتمع ومدى تحايل الناس الذين كان لديهم القدرة علـــى الهروب من جور وظلم السلطان، فمن استطاع النجاة بماله سارع إلى إنقاذه مـــن المصـــادرة المحـــتمة من قبل السلطان، فيصف الجاحظ الجمّال وحين يكون للســـلطان رغـــبة في التسلط على بعض ماله وإبله كيف يحاول إنقاذ الإبل من ذلك التســـلط (وبسقوط الذبّان على البعير يحتال الجمّال للسلطان، إذا كان قد تسخر إبله وهو لذلك كاره، وإذا كان في جماله الجمل النفيس أو الناقة الكريمة؛ فإنه يعمد إلى الخضخاض فيصبّ فيه شيئا من دبس ثم يطلى به ذلك البعير، فإذا وجد الذبان ريح الـــدبس تساقطن عليه، فيدّعى عند ذلك أن به غدّة ويجعل الشاهد له عند السلطان مـــا يـــوجد عليه من الذبان! فما أكثر ما يتخلصون بكرائم أموالهم بالحيل من أيدي السلطان، ولا يظن ذلك السلطان إلا أنه متى شاء أن يبيع مائه أعرابيّ بدرهم فَعل. والغدة عندهم تعدى، وطباع الإبل أقبل شيءٍ للأدواء التي تعدى، فيقول الجمال عند ذلـــك للســـلطان: لـــو لم أخف على (الإبل إلا) بعيري هذا المغدّ أن يُعدى لم أبال،

ولكنـــي أخـــاف إعـــداء الغدة ومضرتها في سائر مالي! فلا يزال يستعطفه بذلك، ويحتال له به حتى يخلّى سبيله)[1].

ومن صور الخداع الاجتماعي الذي كان بعض الأفراد يمارسونه في مجتمع الجاحظ من أجل كسب الأموال هي تلك الفئة التي كان يطلق عليها (القُصاص)، فقد كـــان لديهم الكثير من الخطط التحايلية في إعداد القصص للناس، إذ وجدوا في ذلك الأســلوب وســيلةً ســـهلةً ومريحةً لكسب المال، وقد انتقد أبو عثمان جهل هؤلاء القصاص وقلة علمهم، وكيف أنهم كانوا يسيطرون على عقول عامة الناس وجهلتهم (كأبي كعب القاص) وغيره.

ومن طرق الكسب وربما غير المشروعة من الطبقات الدنيا أيضاً، يصور لنا الجاحظ أساليب الحوائين في ترقية الناس وإخراج الأفاعي والحيات من بيوتهم،حيث كان لديهم القدرة على التلاعب بعواطف الناس وسلبهم أموالهم بدجلهم وشعوذتهم.

لقـــد سار أبو عثمان في مجتمعه ودخل جميع أحياءه المأهولة بالسكان فالتقى البحريين، وناقش أهل التخصص نقاشاً مفصلاً كما رأينا في حواره مع النجار معرباً عن إعجابه بمن يفهم عمله فهماً جيداً، وطاف في الأسواق مع الباعة وكان له معهم جدلٌ وحوار طويل، فهو لم يترك مهنةً ولا صنعةً إلا وحاور أهلها وانتفع بهم ،ولم يتـــرك علمـــاً مفـــيداً إلا وطرق بابه في حيوانه والتقى أهله حتى غدا كتابه نابضاً بالحياة بمختلف جوانبها. هذا والبحث يعجز عن الإلمام بالقدر الأكبر من هذا الكتاب الموســـوعي، فأبو عثمان كان يتنقل بآلته التصويرية من الطبقات الدنيا في مجتمعه؛ ليعرض أهل الذمة في مجتمعه، فيتحدث عن اليهود ويحاورهم في معتقدهم الديني، ويجـــالس النصارى ويصور وينقل ادعاءات بعضهم من القساوسة وخداعهم للعامة مـــن أبناء ديانتهم، وله حديث مطول عن أهل المعتقدات التي استجدت وشاعت في عصـــره من مجوس وزنادقة، وأبحاثه في الحيوان حول هذه الأمور ربما احتاجت إلـــى كـــتاب وحـــده، كـــان قد بين فيه زعمهم وهراء اعتقادهم، وحارب عداوتهم وبغضـــهم للإسلام وأهله. كما كان لأبي عثمان موقفه من أهل زمانه ومجتمعه من

---

[1] (الجاحظ ،الحيوان، ج 3،ص307).

المسلمين وما شاع من فرق كالشيعة والخوارج والإباضية والمتكلمين وحتى أهل السنة والجماعة، ولو أن القارئ قرأ الحيوان وحده فهو كفيل بإعطائه صورةً واضحةً عن عصر الجاحظ، وما كان فيه من حياة علمية وثقافية واجتماعية، (فالحيوان) كتاب موسوعي نابض بالحياة، مسرحٌ حيوي فيه متسع لجميع طبقات المجتمع وفئاته وشرائحه، وفيه متسع لأصوات عباقرة عصر الجاحظ، كما كان فيه متسع لحمقى ذلك المجتمع وإن لم تظهر جميعها على صفحات هذا البحث؛ وذلك لطول واتساع المقام وطول الحديث، فصعوبة الإحاطة بكل ما أورد أبو عثمان حيث كان (صوت عصره ومرآة أحداثه وسجله وكتابه وديوانه أيضاً)[1]، في كتابه الحيوان إلا أن العزاء في هذا المضمار (ما لا يدرك كله لا يترك جله).

---

(1) (محمود أدهم، أدب الجاحظ من زاوية صحفية، ص 36).

المراجع

المراجع باللغة العربية:

أبـو الحـب، جلـيل، (1990)، الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ، **مجلة المـورد**، المجلـد (19)، العـدد (1)، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية.

أبـو داوود، الإمـام الحـافظ أبـو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، (1969)، **سـنن أبـي داوود**، إعـداد وتعليق عزة عبيد الدعاس، ط (1)، حمص، سوريا.

أبو سويلم، أنور عليان، (1983)، **الإبل في الشعر الجاهلي**، دار العلوم، بغداد.

أبـو طالب، محمد نجيب، **الصراع الإجتماعي في الدولة العباسية**، دار المعارف، القاهرة.

أبـو علـي، محمـد بركات حمدي، (1982)، **سخرية الجاحظ من بخلائه**، مكتبة الأقصى، عمان.

أدهم، محمود، (1980)، **أدب الجاحظ من زاوية صحفية**، (د.م)، (د.ن).

الأصـفهاني، حمزة بن الحسن، (د.ت)، **التنبيه على حدوث التصحيف**، حققه محمد أسعد طلس، دار صادر، بيروت.

أمـين، أحمد، (1991)، **ضحى الإسلام (بحث في نشأة العلوم في العصر العباسي الأول)**، ج(2)، ط (10)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابراهيم،عباس، (1994)، **شرح ديوان عنترة بن شداد**، ط(1)، دار الفكر، بيروت.

ابـن الأنباري، أبي البركات، كمال عبد الرحمن بن محمد، (1985)، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، ط(3)، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.

ابـن الجـوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (1992)، **المنتظم في تـاريخ الملوك والأمم**، ط(1)، دراسة وتحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، بيروت، لبنان.

ابـن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (1970)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (1982)، **أدب الكاتب**، تحقيق محمد الدالي، ط(1)، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابـن قتيبـة، أبي محمد عبد الله بن مسلم، (د.ت)، **تأويل مختلف الحديث**، صححه وضبطه محمد زهري النجار، مكتبة الكليات الأزهرية، 9 شارع الصادفية، ميدان الأزهر.

ابـن قيم الجوزية، الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبي عبدا لله الدمشقي، (د.ت)، **الطـب النـبوي**، تحقـيق الشيخ محمد علي قطب، ط(1)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

ابن كثير، الإمام الحافظ، أبي الفداء إسماعيل، (1982)، **البداية والنهاية**، ج(11)، دار الفكر، بيروت.

ابـن مـنظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن الأكرم، (1992)، **تهذيب حيوان الجـاحظ**، تحقـيق زهران محمد جبر عبد الحميد، تصدير محمد عبد المنعم خفاجي، ط (1)، دار الجيل، بيروت.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن الأكرم، (1992)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

بـروكلمان، (1983)، **تاريخ الأدب العربي**، تحقيق عبد الحليم النجار، ج(3)، دار المعارف، القاهرة.

بريتشر، ايتانز، (د.ت)، **البناء الاجتماعي**، ترجمة أحمد أبو زيد، (د.ن)،(د.م).

بطـرس، جوزيـف، (1958)، مآثـر العرب في علم الحيوان، **مجلة العلوم**، عدد (1)، ص 52-76، بيروت.

الـبغدادي، أبـي علـي إسماعيل بن القاسم القالي، **كتاب الأمالي**، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الـبغدادي، أبي بكر أحمد بن علي الخطيب، (د.ت)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها وحتى سنة 463**، ج(12)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

بـلا، شـارل، (1985)، **الجـاحظ فـي البصرة وبغداد وسامراء**، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

بـو ملحـم، علـي، (1988)، **المناحي الفلسفية عند الجاحظ**، ط(1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

التـرمذي، أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (د.ت)، **الجامـع الصحيح: سنن التـرمذي**، المجلد الخامس، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، الناشر المكتبة الإسلامية.

التكريتي، أحمد خطاب، (1975)، النزعة الدينية في كتاب الحيوان للجاحظ، **مجلـة المورد**، المجلد الرابع، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 126، بغداد، الجمهورية العراقية.

التنوخـي، القاضي أبي علي المحسن بن علي، (1995)، **الفرج بعد الشدة**، اختيار عبد الإله نبهان، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا.

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، (د.ت)، **البصائر والذخائر**،ج(7,1)، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت.

الجـاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1996)، **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ثمانية مجلدات، دار الجيل، بيروت.

الجـاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1968)، **كتاب الحيوان**، تحقيق فوزي عط، شركة الكتاب اللبناني، بيروت.

الجـاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1985)، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج1، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (1991)، **الرسائل الأدبية: رسائل الجاحظ**، قدم لها وبوبها وشرحها علي بو ملحم، الطبعة الثانية، دار مكتبة الهلال، بيروت.

الجـاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (2000)، **رسائل الجاحظ، الفصول المختارة مـن كـتب الجاحظ**، قدم لها وبوبها وشرحها عبيد الله بن حسان، دار الكتب العلمية، بيروت.

الجـاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (د.ت)، **التاج في أخلاق الملوك**، تحقيق عمر الطباع، شرح دار الأرقم بن الأرقم، بيروت، لبنان.

جبـر، جميل، (1987)، **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان.

جبــري، شــفيق، (1948)، **الجاحظ معلم العقل والأدب**، محاضرات كلية الآداب، القاهرة.

الجــراح، أبــي عبد الله، (1991)، **من اسمه عمرو من الشعراء**، ط (1)، مطبعة المدني، مصر.

الجويني، مصطفى، (1921)، نظر الجاحظ في فهم النص القرآني والحديث، **مجلة مجمع اللغة العربية**، مجلد (27)، ص123- 152، القاهرة.

الجوينـــي، مصطفى، (1969)، الجاحظ يحكي عن الأدب في زمانه والعلم في كل زمــان، **مجلــة العربي**، عدد (133)، مجلة ثقافية مصورة شهرية، وزارة الإعلام، الكويت.

الحاجري، طه، (1962)، **الجاحظ حياته وآثاره**، (د.ن)، القاهرة.

الحاجــري، طــه، 1(983)، الجاحظ مؤرخ للحياة العربية الشعبية، **مجلة المورد**، مجلد (12)، عدد(1)، ص 141-176، **مجلة تراثية فصلية**، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية.

حســين، عادل محمد علي الشيخ، (1969)، مأثرة الجاحظ في علم الحيوان، **مجلة العلوم**، لعدد (7)، بيروت.

الحســيني، أحمــد حماد، (1964)، كتاب الحيوان للجاحظ، **مجلة تراث الإنسانية**، المجلــد(2)، ص 111- 143، وزارة الــثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

حطـيط، كاظم، (1987)، **أعلام ورواد في الأدب العربي (الجاحظ)**، ط (1)، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الحمــود، محمد حسن،2004، **وسائل الإيضاح العلمية في قطعة نادرة لمخطوطة كــتاب الحيوان للجاحظ** ، مؤتمر تحقيق التراث العربي والرؤى والتطلعات، كلية الآداب والعلوم –جامعة آل البيت، الأردن.

الحموي، ياقوت، (د.ت)، **معجم الأدباء**، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

الخزرجي، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة، (د.ت)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

الخضري، محمد رضى، (2004)، **الواقعية في أدب الجاحظ** وأسلوبه، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب، بإشراف عبد اللطيف عمران، جامعة دمشق، كلية الآداب.

خفاجي، محمد عبد المنعم، (1982،**أبو عثمان الجاحظ**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الدروبي، سمير محمود، ومحمد محمود، (1999)، **الجديد من رسائل الجاحظ**، (د.ن)، (د.م).

الدروبي، محمد محمود، (2004)، ضوء على مرض الجاحظ ووفاته، **مجلة المنارة**، مجلد(10)،العدد (3)، جامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية.

الدروبي، محمد محمود، **التهم الموجهة إلى الجاحظ نظرٌ نقدي**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة آل البيت، المملكة الأردنية الهاشمية.

دقاق، عمر، (د. ت)، اللغة المحكية في أدب الجاحظ، **مجلة المورد**، المجلد(17)، **مجلة تراثية فصلية**، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 56– 82، بغداد، الجمهورية العراقية.

الدليمي، طه هاشم، (1976)، المعتقدات العربية في الحيوان للجاحظ، **مجلة التراث الشعبي**، العدد (4)، ص 131– 186، مجلة شهرية يصدرها المركز الفلكلوري في وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، دار الحرية، بغداد.

الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (1982)، سير **أعلام النبلاء**، ج(11)، ط (1)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وصالح السمر، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الربيعي، أمين أحمد عبد الحميد، (2002)، **دراسة تحليلية في كتاب الحيوان**، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد.

رحيمو، زهير إبراهيم فتوحي ونجم شليمون كوركيس، (1989)، **علم حيوان العام**، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق.

الرومي، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطنّي الحنفيّ الشهير بالمُلا كاتب الجلبـــي، (1982)، **كشـــف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**،ج(1)، دار الفكر، بيروت.

زكي، أحمد كمال ، 1967 ،**الجاحظ** ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

زيّـــاد، صـــالح، (2003)، نرجســـية الثقافة: محاورات التفاضل بين الأمم، **مجلة الآطام**، لعدد(15)، ص 76- 101، إصدارة دورية تعنى بالإبداع والدراسات الأدبية، نادي المدينة المنورة الأدبي، الرياض.

زيـــدان، أحمد عبد، (د.ت)، **الحيوان عند الجاحظ**، وزارة الثقافة والفنون، مديرية النشر، الجمهورية العراقية.

الزيدي، كاصد ياسر، (1980)، الجاحظ الناقد التفسيري، **مجلة المورد**، مجلد(17)، مجلـــة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 77، بغداد، الجمهورية العراقية.

السامرآئي، إبراهيم، (1978)، الجاحظ وعلم اللغة، **مجلـــة المورد**، مجلد (7)، عدد (4)، مجلـــة تـــراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 62- 87، بغداد، الجمهورية العراقية.

السامرآئي، إبراهيم، (1982)، **من معجم الجاحظ**، دار الرشيد للنشر، بغداد.

سعد، فاروق، (2001)، **الجاحظ تفرج وحكى**، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

سفان، فاضل، (1999)، الجاحظ ومغالطات الرواة، **مجلة بناة الأجيال**، العدد (31).

ســـلوم، داود، (1986)، **الـــنقد المنهجي عند الجاحظ**، ط(2)، كلية الآداب، مكتبة النهضة العربية، بغداد.

سلوم، داود، (1987)، الجاحظ مفكراً معاصراً، المورد، مجلد(7)، عدد (4)، **مجلة تـــراثية فصـــلية**، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 112- 162، بغداد، الجمهورية العراقية.

السندوبي، حسن، (1931)، **أدب الجاحظ**، ط(1)، المطبعة الرحمانية، مصر، القاهرة.

الشخاترة، خولة خليل حسين،(1996)، **بنية النص الحكائي في كتاب الحيوان للجاحظ**، دار الينابيع للنشر والتوزيع، عمان.

الشذر، طيبة صالح، (1998)، **ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ**، دار قباء للنشر، القاهرة.

الشهابي، مصطفى، (1931)، مقتطفات من كتاب الحيوان، **مجلة المجمع العلمي العربي**، ج(11)، دمشق.

الشواربي، إبراهيم، (1936)، تأثر الجاحظ بالحياة الفارسية، **مجلة الآداب**، الجامعة المصرية.

صفور، جابر أحمد، (د. ت)، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي**، دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (د. ت). **العصر العباسي الأول، تاريخ الأدب العربي**، ط(8)، دار المعارف، القاهرة.

ضيف، شوقي، (د.ت)، **العصر العباسي الثاني**، ط(8)، دار المعارف، القاهرة.

طاليس، أرسطو، (1977)، **طباع الحيوان**، ترجمة يوحنا بن البطريق، حققه عبد الرحمن بدوي، ط(1)، وكالة المطبوعات، الكويت.

طاليس، أرسطو، (1978)، **أجزاء الحيوان**، ط(1)، وكالة المطبوعات، الكويت.

طوي، فوزي، (1998)، **الجاحظ دائرة معارف عصره**، دار الفكر العربي، بيروت.

الطويلي، أحمد، (د. ت)، **طرائف أبو عثمان الجاحظ**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

ظاظا، حسن، (ن. ت)، **اللسان والإنسان**، مطبعة المصري، القاهرة.

عبد الباقي، أحمد، (1991)، **معالم الحضارة العربية في القرن الثالث الهجري**، بيروت، لبنان.

عبد التواب، رمضان، (1980)، **العربية دراسة في اللهجات والأساليب**، مكتبة الخنجاني، القاهرة.

عبد الحميد، مصطفى، (1978)، نظرية الجاحظ في الترجمة، **مجلة المورد**، المجلد (7)، العـــدد (4)، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ص 53-91، بغداد، الجمهورية العراقية.

عبد الشهيد، صموئيل، (1975)، **الروح العلمية عند الجاحظ**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

العســقلاني، الإمام الحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر، **لسان الميزان**، ج(4)، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.

علوان، محمد باقر، (1974)، **رأي الجاحظ في المسخ**، **مجلة التراث الشعبي**، العدد (8)، ص 142-198، مجلة شهرية يصدرها المركز الفلوكلوري في وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، دار الحرية، بغداد.

علـــي، عادل محمد، (1978)، الجاحظ وريادة البحث العلمي، **مجلة المورد**، مجلد (7)، العدد (4)، ص 92- 141، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر بغداد، الجمهورية العراقية.

علـــي، محمـــد كـــرد، (د.ت)، **أمراء البيان**، ج(2)، مطبعة لجنة التأليف للنشر، القاهرة.

عمـــارة، محمد، 1977، الشك المنهجي عند الجاحظ، **مجلة العربي**، عدد (227)، ص63-96، مجلة ثقافية مصورة شهرية، وزارة الإعلام، الكويت.

العمـــد، هاني، 1990، **صورة البصرة في بخلاء الجاحظ**، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

عمـــر، معن خليل، (1980)، أصالة وعمق التحليل الاجتماعي عند الجاحظ، **مجلة المورد**، مجلد (9)، العدد (3)، ص81-110، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية.

عويص، محمد، (1977)، **المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ**، دار الثقافة، القاهرة.

عويضـــة، كامل محمد، (1993)، **الجاحظ الأديب الفيلسوف**، ط (1)، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان.

فـرح، الـياس، (د.ت)، **الصـراع الفكري عند الجاحظ**، دار الجاحظ للنشر بغداد، العراق.

فندريس،(1951)، **اللغة**، ترجمة عبد الحميد الدوافعي، لجنة البيان العربي، القاهرة.

فياض، سليمان،1991، **الجاحظ عالم الحيوان**، ط(1)،الأهرام للنشر، القاهرة.

القاسمي، ظافر، (1970)، الجاحظ نصير المرأة، **مجلة العربي**، عدد(13)، ص 71 -108، مجلة ثقافية مصورة شهرية، وزارة الإعلام، الكويت.

القزاز، محمد سعد، (1995)، **الفكر التربوي في كتابات الجاحظ**، ط(1)، دار الفكر العربي، مصر.

كريم، سامح، (2003)، الحيوان بين أرسطو والجاحظ، **مجلة العربي**، عدد(536)، ص44- 101، **مجلة ثقافية مصورة شهرية**، وزارة الإعلام، الكويت.

كيالي، سامي، (د.ت)، **النفس الإنسانية عند الجاحظ**،

اللقانـي، رشـيدة عـبد الحميد أحمد، (1993)، **ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ**، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض.

لمصري محمد بن عبد الغني، (1987)، **نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي**، دار مجدلاوي للطباعة والنشر والتوزيع، عمان.

المجـذوب، البشـير، (1975)، **القصص النفساني عند الجاحظ**، حوليات الجامعة التونسية، عدد (12)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس.

المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين، (د.ت)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**،ج (4)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

مطلوب، أحمد، (د.ت)، البصرة في تراث الجاحظ، مجلة المورد، المجلد(12)، ص 31- 66؛ القسـم الثانـي، مجلـة تـراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية.

مطلوب،أحمد، الجاحظ والفصاحة، (د.ت)، مجلة المورد، المجلد(12)، ص 105- 147؛ القسـم الثاني، مجلة تراثية فصلية، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية.

الـنجم، وديعة طه، (1968)، أثر الجاحظ في تطوير مفهوم الرسالة الأدبية، **مجلة كلـية الآداب**، العـدد (11)، ص 102- 156، كلية الآداب،جامعة بغداد ، مطبعة الحكومة ،بغداد.

النجم، وديعة طه، (د.ت)، **الجاحظ والحاضرة العباسية**، مطبعة الإرشاد، بغداد.

الـنجم، وديعة طه، (د.ت)، **الجاحظ والنقد الأدبي**، وحدة البحث والترجمة، جامعة الكويت، الكويت.

الهاشـمي، محمد يحيى، (1944)، تحليل رأي الجاحظ في الطيور المهاجرة، **مجلة الثقافة**، العدد(280)، القاهرة.